رحلات الحج

في عيون الرحالة
وكتابات الأدباء والمؤرخين

تأليف

عبدالله بن حمد الحقيل

أمين عام دارة الملك عبدالعزيز السابق

١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

مكتبة الرشد ناشرون

رحلات الحج

في عيون الرحالة
وكتابات الأدباء والمؤرخين

بسم الله الرحمن الرحيم

رحلات الحج

في عيون الرحالة

وكتابات الأدباء والمؤرخين

تأليف

عبدالله بن حمد الحقيل

أمين عام دارة الملك عبدالعزيز السابق

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

مكتبة الرشد ناشرون

ح مكتبة الرشد ١٤٣٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحقيل ، عبدالله حمد
رحلات الحج في عيون الرحالة وكتابات الادباء والمؤرخين / عبدالله حمد الحقيل - الرياض ١٤٣٣
ردمك :٧-٨٧٣-٠١-٩٩٦٠-٩٧٨
١- رحلات الحج ٢ - الحج ٣- الرحالة أ ٠ العنوان
ديوي ٩١٥,٣١٢٠٤ ١٤٣٣/٢٩٢٩

ردمك ٧- ٨٧٣- ٠١ -٩٩٦٠ -٩٧٨ رقم ١٤٣٣/٢٩٢٩

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

مكتبة الرشد – ناشرون
المملكة العربية السعودية – الرياض
الإدارة : مركز البستان – طريق الملك فهد هاتف ٤٦٠٤٨١٨
ص ٠ ب ١٧٥٢٢الرياض ١١٤٩٤ فاكس ٤٦٠٢٤٩٧

Email: info@rushd.com.sa
Website : www.rushd.com.sa

فروع المكتبة داخل المملكة

الريـــاض :المركز الرئيسي:الدائري الغربي بين مخرجي ٢٧ و٢٨ هاتف ٤٣٢٩٣٣٢
الريـــاض : فـــرع طريـــق عثمـــان بـــن عفـــان هـــاتف ٢٠٥١٥٠٠
فـــرع مكـــة المكرمـــة : شـــارع الطـــائف هـــاتف ٥٥٨٥٤٠١ فـــاكس ٥٥٨٣٥٠٦
فـــرع الدينـــة المنـــورة : شـــارع أبـــي ذر الغفـــاري هـــاتف ٨٣٤٠٦٠٠ فـــاكس ٨٣٨٣٤٢٧
فـــرع جـــدة : مقابـــل ميـــدان الطـــائرة هـــاتف ٦٧٧٦٣٣١ فـــاكس ٦٧٧٦٣٥٤
فـــرع القـــصيم : بريـــده – طريـــق الدينـــة هـــاتف ٣٢٤٢٢١٤ فـــاكس ٣٢٤١٣٥٨
فـــرع أبهـــا : شـــارع الملـــك فيـــصل هـــاتف ٢٣١٧٣٠٧ فـــاكس ٢٢٤٢٤٠٢
فـــرع الـــدمام : شـــارع الخـــزان هـــاتف ٨١٥٠٥٥٦ فـــاكس ٨٤١٨٤٧٣
فـــرع حائـــل : هـــاتف ٥٣٢٢٢٤٦ فـــاكس ٥٦٦٢٢٤٦
فـــرع الإحـــساء : هـــاتف ٥٨١٣٠٢٨ فـــاكس ٥٨١٣١١٥
فـــرع : تبـــوك هـــاتف ٤٢٤١٦٤٠ فـــاكس ٤٢٣٨٩٢٧
فـرع القاهرة : شارع إبراهيم أبو النجا – مدينة نصر : هاتف ٢٢٧٢٨٩١١ – فاكس ٢٢٧١٢٦٢٥

مكاتبنا بالخارج

القاهرة : مدينة نصر : هاتف ٢٧٤٤٦٠٥ موبايل ٠١١٦٢٨٦١٧٠
موبايل ٠١٠١٦٢٢٦٥٣فاكس ٢٢٧١٣٦٢٥
بيروير : تلفاكس٠١٨٠٧٤٧٧ موبايل ٠٣٢٠٧٤٨٨

المقدمة

الحمد لله على سابغ نعمه والقائل: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحَجّ: ٢٧] والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم وأتم به مكارم الأخلاق أما بعد، فإن الإسلام أكبر نعمة أنعم الله بها على الأمة واستحضار هذه الحقيقة في كل عمل مخلص هو قمة الوعي بها وإن الحج ركن من أركان الإسلام ومظهر من مظاهر العبادة يرمز إلى اتحاد الكلمة والأهداف وتلاقي القلوب فالحج رحلة إيمانية وملتقى روحي عظيم حول البيت الحرام ليشهدوا منافع لهم وثقافة وتدريب على ركوب المشقات ومفارقة الأهل والوطن وتربية على احتمال الشدائد والصبر ومواجهة الحياة كما فطرها الله.

ولقد حرص كثير من العلماء والأدباء والمؤرخين والرحالة على تدوين رحلاتهم وتعد هذه الرحلات التي كتبها هؤلاء عن رحلة الحج من مصادر التاريخ التي تضيف الكثير من المعلومات وتقدم وصفا للأماكن والمعالم والجوانب التاريخية والحضارية وحظيت رحلة الحج بعناية خاصة من لدن العلماء والرحالة والمؤرخين عبر مراحل التاريخ الإسلامي ولقد تجلى ذلك في كثرة ما دار حولها من المؤلفات منذ وقت مبكر إلى وقتنا هذا ولا مراء في أن موضوع رحلة الحج في كتابات وعيون الرحالة والمؤرخين

شاسع واسع مألوف وكان أهل الحاج يودعونه وهم غير واثقين تمامًا من عودته. ولقد زخرت كتب الرحالة بكتابات رحلاتهم بلغة أدبية عظيمة التأثير والإمتاع وكان للحج أثره في التأثير عليهم وعبروا عن مشاعرهم الجياشة أثناء زيارتهم لمكة المكرمة والمدينة المنورة والأماكن المتعلقة بالحج التي ينزل بها الحاج وغير ذلك مما يدور حول الحج ووصف الراحلة والرحلة على متنها إلى الحج، وتمدنا منظومة رحلات الحج إلى مكة والمدينة عبر العصور بأضخم سجل لتاريخ المدينتين المقدستين وما كتب عن رحلة الحج.

ولقد كان الحج عنصرًا مؤثرًا واضح التأثير وكان للسماع من أئمة وعلماء الحرمين أثره البعيد في اتساع دائرة العلم والأدب. ولقد وصفوا المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة والطرق الموصلة إليهما وكذا ما يتعلق بالمشاعر المقدسة المتعلقة بالحج وما في البلدين المقدسين من آثار كريمة - وكان العلماء والأدباء والمؤرخون والرحالة يقصدونها من مختلف أقطار العالم الإسلامي ليؤدوا ركنا من أركان الإسلام وليضيفوا إلى ذلك أموراً من أهمها التزود بزاد العلم والمعرفة والالتقاء بعلماء الحرمين والاستزادة من العلم والمعرفة فكان كثير من الرحالة والعلماء وخاصة من المغرب والأندلس يفدون إلى مكة المكرمة لا للحج وحده ولكن لينشروا العلم ويستزيدوا منه ويكونوا صلة بين الشرق والغرب بالثقافة والعلم ولقد برز علماء المغرب على غيرهم في تدوين الرحلات ومن يطالع كتب الأندلسيين "كنفَح الطيب"

للمقري "وفهرست الأشبيلي" وغيرها يجد أن كثيرًا من العلماء الذين رحلوا إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة كانوا رسل علم وحملة ثقافة ودعاة معرفة حتى أثر عن بعضهم كتب دونت ما كان يطرح فيها من مسائل العلم وقضايا الأدب والنقد واللغة.

وعلى الرغم من أن الدور العلمي لرحلات الحج يمكن أن يكون موضوعاً لكثير من البحوث نظرًا لغزارته وتنوع مضامينه فلقد حفلت كتب الرحالة بالعرض والمناقشة التاريخية التي تؤرخ لهذه البلاد ولعلمائها ووصف سكانها وأنشطتهم إلى جانب ما فيها من معلومات وتحليلات ذات أهمية بالغة لتاريخ الأماكن المقدسة وجغرافيتها ولسكانها ومناحي نشاطهم وعن الحج ومناسكه وحكمه وأسراره.

وإن أدب الرحلات مدين للحج بالكثير جدا فإن الكثير من الرحالة إنما بدءوا رحلاتهم بقصد الحج كما هو معروف عن رحلة ابن بطوطة وابن جبير وغيرهما من الرحالة المشهورين. كما أن كتب الرحالة تعد من أهم المصادر التاريخية حيث أبدعوا في تدوين رحلاتهم وتسجيل انطباعاتهم واتصفوا بدقة الملاحظة والوصف والتقصي وتسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق. وهذه الرحلات في مجملها تعتبر سجلاً للكثير من المشاهدات التي رصدها الرحالة عن المدينتين مكة المكرمة والمدينة المنورة وطرق الوصول إليها.

رحم الله أسلافنا من الرحالة الذين كانوا ينشرون العلم والدين

والمعارف والأدب والفضائل خلال رحلاتهم وما زالت آثارهم باقية خالدة في تاريخ الحضارة الإسلامية وكم نحن في حاجة في هذا الزمان إلى إعادة قراءة كنوز تراثنا الفكري والتاريخي والتأمل والنظر فيه والإفادة منه ولتعميق إدراكنا بتاريخنا وتراثنا.

ويسرني أن أقدم نماذج متعددة من رحلات الحج التي سطرها عدد من العلماء والمؤرخين والأدباء فجاءت حافلة بذكرياتهم وانطباعاتهم وجدير بجيلنا أن يعرفها ويتذكر نعمة الله عليه حيث تيسرت سبل الحج وتهيأت وسائله. هذا ونرجوا من الله التوفيق والسداد والهداية إلى سواء السبيل.

المؤلف
عبدالله بن حمد الحقيل
١٤٣٣هـ
الرياض

رحلة ابن جبير الأندلسي ٥٧٨هـ

الرحلات من أهم مصادر التاريخ ولقد أمد الكثير من الرحالة الثقافة العربية الإسلامية بثروة فكرية وتاريخية وجغرافية وجمعوا قدرًا كبيرًا من المعلومات وكتبوا الرحلات التي قاموا بها والرحلات كما يقال شيء ثابت لا يأكله الدهر وتظل لها طابعها، ولقد عني أسلافنا بالرحلات واهتموا بشأنها فسافروا من بلد إلى بلد للحج أو لمجالس العلم والأدب أو توثيق الأخبار والأحاديث ووصفوا الطرق والمعالم والحياة وجابوا الأقطار والأمصار وتنقلوا بين المسالك والممالك والديار فتركوا آثارًا خالدة في التاريخ والأدب والجغرافية حيث وصفوا ما شاهدوه ودونوا ما رأوه بكل دقة وحصافة فأصبحت رحلاتهم معالم ثقافية حيث دونوا ثقافات الأمم وحضارتها وعلومها وآدابها وسجلوا ملاحظاتهم وتحليلاتهم فأسهموا بذلك في خدمة العلم والفكر وتنوير الأذهان، فالكتب التي دونوا رحلاتهم فيها شكلت في حينه ولا تزال تشكل حتى اليوم خير خدمة للتاريخ والجغرافيا. وكان للأدب العربي من كل ذلك حصيلة كبيرة وكم آثار الحج من مشاعر سجلها عبر التاريخ عدد لا يحصى من الأدباء والشعراء ومن المؤلفين والرحالة.

ونستعرض رحلة أحد الرحالة الأندلسيين ممن جاب الشرق والغرب وركب متن البحر والقفار والفيافي انتقل واستطلع

واستقصى وحقق ودقق ووقف واستوقف وضمن ما حملته ذاكرته وسجله يراعه وما شد انتباهه واستجلب نظره في رحلته الشهيرة ذلكم هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي ولد ببلنسية سنة ٥٤٠هـ وعنى أبوه بتربيته فدرس العلوم الدينية واللغوية ولم يلبث أن تيقظت فيه مواهبه الأدبية فأخذ في قرض الشعر والاهتمام بالأدب ولمع اسمه فألحقه حاكم غرناطة بكتّاب ديوانه - وعزم على الحج في سنة ٥٧٨هـ حيث غادر غرناطة وركب البحر في سفينة قاصدًا الإسكندرية ثم اجتاز البحر إلى جدة واتجه من فوره إلى مكة المكرمة فأدى فريضة الحج وزار المدينة وظل في هذه البلاد نحو ستة أشهر دوّن خلالها مشاهداته ورحلاته وعُرف دائمًا بكونه ألمع الرحالين الأندلسيين حيث كان محدثًا راسخا وأديبًا بارعاً وشاعرًا لسنًا وكاتبًا بليغًا.

ولقد جاب في رحلته العديد من البلاد فهو يقص ما شاهده في طريقه إلى حجه وعودته منه وهي مكتوبة بشكل مذكرات يومية فجمع كل مشهد وكل بلدة بالتاريخ وباليوم والشهر ويظهر أنه كتبها كما يقول الدكتور شوقي ضيف أوراقًا منفصلة ولم يجمعها بنفسه بل جمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" ومع ذلك فإن من نشرها في العصر الحديث من المستشرقين والعرب آثروا أن يطلقوا عليها اسم "رحلة ابن جبير" وهي رحلة لا تزال لها شهرة مدوية إلى وقتنا الحاضر، وقد بدأ رحلاته بقصد الحج وفي هذا يقول:

بدت لي أعلام بيت الهدى بمكة والنور باد عليه

لقد أخذ يتحدث عن رحلته وحجه إلى بيت الله الحرام ويصف لنا مشاهد كثيرة ويرسم الطريق إلى مكة منازله ومناهله رسمًا بارعًا وتصويرًا دقيقًا وتقصي أحوال مكة من جميع جهاتها.

ويقص رحلته قائلاً:

في مساء يوم الثلاثاء الحادي عشر من ربيع الأول ٥٧٨هـ، الثاني من أغسطس تركنا جدة متوجهين إلى مكة، بعد أن ضمن الحجاج بعضهم بعضًا، وبعد تسجيل أسمائهم في سجل لدى قائد جدة علي بن موفق، فواصلوا السير ليلاً حتى وصلوا (القرين) مع طلوع الشمس، والمسمى اليوم «بحرة»، ويقول بأن بهذا الموضع بئرًا معينةً عذبة .. فأقام به بياض يوم الأربعاء ثم رحل بالعشيِّ محرما بعمرة، وواصل السير ليلاً، فوصل مع الفجر إلى قريب من الحرم، ودخل مكة المكرمة في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر من شهر ربيع الأول، فدخل من باب العمرة، فقضى نسكه، وسكن بدار في جوار الحرم، مشرفة على الحرم والكعبة.

وبعد أن يفيض في وصفه كسوة الكعبة يصف مقام إبراهيم حيث قال: «هو حجر مُغشًّى بالفضة، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار، وسعته مقدار شبرين، وأعلاه أوسع من أسفله، عايناه، وتبركنا بلمسه وتقبيله،ثم وصف الحفرة التي كانت بين الملتزم وحجر إسماعيل فقال: «وبين الباب الكريم والركن العراقي حوض طوله اثنا عشر شبرًا، وعرضه خمسة أشبار ونصف وارتفاعه نحو شبر، وهو علامة موضع مقام إبراهيم».

ثم يصف مقام إبراهيم على ما كان عليه في عهده فيقول: «وموضع المقام الكريم هو الذي يصلى خَلْفَه، يقابل ما بين الباب الكريم والركن العراقي، وهو إلى الباب أميل بكثير، وعليه قبة خشب في مقدار القامة أو أزيد بديعة النقش .. ثم يقول: «ولموضع المقام أيضًا قبة مصنوعة من حديد موضوعة إلى جانب قبة زمزم، فإذا كان في أشهر الحج، وكثر الناس .. رفعت قبة الخشب ووضعت قبة الحديد، لتكون أحمل للازدحام».

وحينما يستمر ابن جبير في وصف الكعبة والحرم والآثار، لا يكف عن إحصائياته ومقاييسه مستعملاً ألشِّبْر، ويصف موضع الطواف بأنه مفروش بحجارة مبسوطة كالرخام حسنًا، أما سائر الحرم فهو مفروش بالرمل الأبيض، وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة.

ويصف حِجْر إسماعيل وصفًا بديعًا، ويذكر مساحاته وأقيسته، ويصف قبة زمزم، وأن البئر في وسطها، وعمقها إحدى عشرة قامة حسبما ذرع ابن جبير بنفسه. أما عمق الماء فيقول عنه: «وعمق الماء سبع قامات على ما يذكر» ويقول: «وتلي قبة بئر زمزم، من ورائها قُبة الشراب، وهي منسوبة للعباس رضي الله عنه؛ لأنها كانت سقاية الحاج، وهي حتى الآن يبرّد فيها ماء زمزم، ويُخرج مع الليل لسقي الحاج في قلال يسمونها «الدوارق»، كل دورق منها ذو مقبض واحدً».

وهكذا نرى ابن جبير يمضي في أوصافه، حيث يصف بئر

زمزم، والحجر الأسود بكل دقة وإبداع.

والرحالة ابن جبير يعني بتتبع الآثار المكتوبة التي تسجل الأعمال العمرانية العظيمة، فهو ينقل في كتابه ما وجده مكتوبا ومنقوشًا في جدران الحرم المكي. وما وجده على باب الكعبة منقوشًا بالذهب، بخط رائق الحروف، يجذب الأبصار برونقه وحسنه.

ويقول الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي رحمه الله في هذا المقام خلال الحديث عن رحلته في محاضرة ألقاها بمكة المكرمة بعنوان: «ابن جبير في الحرمين الشريفين»، وكما يصف ابن جبير الآثار بدقة، وينقل النصوص المكتوبة على الجدران، فهويصف بالدقة نفسها التقاليد المتبعة، فيما يتصل بالحرم، أو عادات المجتمع المكي حيث طالت إقامته بعض الشيء.

يقول الرحالة ابن جبير في وصف فتح باب الكعبة: إنه يفتح في كل يوم اثنين، وفي كل يوم جمعة إلا في رجب فإنه يفتح في كل يوم وإن فتحه يتم أولَ بزوغ الشمس، ويصف (المدرّج) الذي كان مخصصا لصعود الناس إلى باب (الكعبة)، فيقول: «يقبل سدنة البيت الشيبيون، فيبادر منهم من ينقل كرسيًا كبيرًا شبه المنبر الواسع، ويصور لنا ابن جبير المنبر والخطيب .. ومراسم الخطبة تصويرًا دقيقًا.

ولا يفوت ابن جبير وهو يصف هذا الوصف الشامل، أن يذكر أسماء من يدعو لهم الخطيب في خطبته، ومنهم الخليفة

العباسي، ثم لأمير مكة، ثم لصلاح الدين الأيوبي وولي عهده، كما لا يفوته أن يذكر، أن الألسنة تخفق بالدعاء والتأمين عند ذكر صلاح الدين من كل مكان، مستشهدًا بقول الشاعر:

وإذا أحب الله يوما عبده ألقى عليه محبة في الناس

ويثني على صلاح الدين على عادته، كلما جاءت مناسبة، ويذكر عنايته بأهل مكة والحجاج ورفع المكوس عنهم.

إن الصور واللوحات التي يقدمها لنا ابن جبير، في رحلته كثيرة، ممتعة وبعضها أخّاذ جذّاب.

وتحدث عن قبة زمزم .. وعن حَمَام الحرم، فقد رآه كثير العدد .. وقال: «وهي من الأمن بحيث يُضرب بها المثل، ولا سبيل أن تنزل بسطحه (أي سطح البيت الحرام) الأعلى حمامة، ولا تحل فيه بوجه ولا حال، فترى الحمام تتجلى على الحرم كله، فإذا قربت من البيت، عرجت عنه يمينًا أو شمالاً، والطيور سواها كذلك؛ وقرأت في أخبار مكة أنه لا ينزل عليه طائر إلا عند مرضٍ يصيبه ..).

وعندما حج ابن جبير، كانت الأئمة تتعدد في الحرم، بل كان هناك خمسة أئمة، أربعة منهم للمذاهب الأربعة المعروفة. أما الخامس، فللمذهب الزيدي وذكر أنهم يصلّون بترتيب معين، إلا في صلاة المغرب، فإنهم يصلون في وقت واحد مجتمعين، لضيق وقتها، وهو هنا يصف الفوضى والاضطراب الذي ينجم عن تداخل التكبير وما يسببه من تشويش على المصلين.

ويحدثنا ابن جبير عن أثر جليل هو مصحف الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فيقول: «وفي القبة العباسية، خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع، فيه مصحف أحد الخلفاء الاربعة أصحاب رسول الله ﷺ، وبخط زيد بن ثابت رضي الله عنه، منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله ﷺ، وينقص منه ورقات كثيرة، وهو بين دفتي عود مجلد بمغاليق صُفْر، كبير الورقات واسعها.

كما يحدثنا ابن جبير عن أبواب الحرم، وعن السواري الخضراء بالمسعى التي هي علامات الهرولة، والنقوش والكتابات التي عليها، ويقوم بعمليات إحصائية دقيقة كعادته، حتى خطوات السعي بين الصفا والمروة يحصيها فيقول: «فجميع خطى الساعي من الصفا إلى المروة أربع مئة وثلاثة وتسعون خطوة) .. ويصف المسعى على أيامه فيقول: «وما بين الصفا والمروة، سوق حافلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات، وحوانيت الباعة يمينًا وشمالاً. ويحرص على تتبع آثار مكة ومشاهدها ومساجدها وقبابها التي كانت قائمة على عهده، ويطنب ابن جبير في وصف سوق مكة المكرمة، وما تحفل به من أنواع البضائع والخيرات، حيث يقول:

«هي أكثر البلاد نعما، وفواكه، ومنافع، ومرافق، ومتاجر. ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد - فضلا عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجواهر، والياقوت، وسائر الأحجار، ومن

أنواع الطيب كالمسك، والكافور، والعنبر، والعود، والعقاقير الهندية، إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخرسانية، والبضائع المغربية، إلى ما لا يحصر ولا ينضبط.

ويمضي في وصفه الممتع فيقول:

«ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها: البطيخ والسفرجل، وكل فواكهها عَجَب. لكن للبطيخ فيها خاصةً من الفضل عجيبة، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها، يدخل به الداخل عليك، فتجد رائحته العبقة قد سبقت إليك، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه.

ويمضي ابن جبير مسترسلاً في وصف النعم بمكة وتوفرها وإعجابه بها من عسل وسمن وزبيب وحلوى وفواكه وغيرها مما شاهده ورآه في هذه الأرض المباركة.

وبعد هذا الوصف ينتقل ابن جبير إلى وصف اللحوم بمكة المكرمة: «وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجاب!: أنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا .. وما ذاك، والله أعلم إلا لبركة مراعيها.

كما وصف ابن جبير موسم (الرطب) وصفا مشوّقا فقال:

«ومن أغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله، وأجرينا الحديث باستطابته - ولا سيما لكوننا لم نعده - الرُّطب، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر في شجرة، يُجنى ويؤكل، وهو في نهاية من

الطيب واللذاذة.

ويخصص ابن جبير صفحات من رحلته في وصف احتفال أهل مكة المكرمة بالعمرة الرجبية، احتفالا لم يُسمع بمثله، كما يقول، ويذكر كيف تمتلئ الشوارع والطرقات بالهوادج المكسوة بالحرير والكتان كل بحسب حاله وكيف يتأنقون ويخرجون إلى التنعيم.

وبهذا الأسلوب الأدبي، يمضي ابن جبير، فيصف، خروج أمير مكة إلى العمرة، واحتفال أهل مكة المكرمة بذلك.

ويتحدث بعد ذلك عن روعة صلاة التراويح في رمضان المبارك بالمسجد الحرام، حينما شهد صلاة التراويح بالمسجد الحرام على عهده،ووصفه لطريقة الأذان بدخول وقت السحور، أو ما سماه بالتسحير، وكيف كان اختتام القرآن الكريم في تراويح رمضان؟ هذا ما يحدثنا عنه ابن جبير في شيء من الإسهاب.

أما ليلة سبع وعشرين، فقد احتفل ابن جبير بوصفها وصفا مسهبا، وذكر ما بُذل فيها من إضاءة الشموع والقناديل، حيث ضوعف من أعدادها، وزيِّن المسجد الحرام زينة فريدة.

ويمضي ابن جبير فيصف ما تبقى من ليالي رمضان بالمسجد الحرام، حتى يصل إلى يوم العيد، فيصف ما رأى بالمسجد يوم العيد.

ويقف ابن جبير على آثار مكة المكرمة ومشاهدها، ويصف كل مشهد، فعلى سبيل المثال عدما صعد جبل ثور، ودخل دار

خديجة الكبرى، ومسجد البيعة بمنى، ومسجد الخيف، وصعد إلى جبل حراء، وزار دار الخيزران بالصفا، وقال: «يلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل إليها مسكن بلال رضي الله عنه..».

ويصف ابن جبير تشمير أستار الكعبة إلى نحو قامة ونصف من الجدر من الجوانب الأربعة، وذكر أنهم يسمون هذا إحرامًا لها، وذلك في اليوم السابع والعشرين من ذي القعدة، ولا يُفتح بابها إلا بعد الوقفة.

وعندما صعد ابن جبير إلى عرفات، حاجًا مع الناس، حرص أيضًا على أن يصف مشاهداته للآثار، وما وجد منها في عرفة ومِنى ومزدلفة، كما يصف ازدحام الحجيج، ومضارب كبار الحاج، وقد يسهب في بعض وصفه، ويتجلى فيه أسلوب الأديب الشاعر.

ونقف عند وصف ابن جبير لكسوة الكعبة وموكبها حيث يقول:

«في يوم السبت: يوم النحر، سيقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الأمير العراقي [أي من مضرب خيامه] إلى مكة، على أربعة جمال، تقدمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوادية، والرايات على رأسه، والطبول تهز وراءه والشيبي معها .. فوضعت الكسوة في السطح المكرم، أعلى الكعبة، فلما كان في يوم الثلاثاء عشر اشتغل الشيبيون بإسبالها خضراء يانعة، تقيّد الأبصار حسنًا، في أعلاها رسم أحمر واسع» .. ثم مضى يصف ما طرز فيها من

كتابات وطرز وزخارف .. حتى ذكر أنه شُمرت أذيالها صونا لها من الأيدي التي تتجاذبها وتتهافت عليها.

ونراه - لا ينسى في بعض الأحايين أن يعقب على بعض ما يصف بروح الناقد الفقيه، من نقده أنه شاهد المسجد الحرام وقد تحول في بعض أجزائه إلى سوق عظيم، يباع فيه من الدقيق إلى العقيق، ومن البُر إلى الدُر. قال بعد ذلك ناقدًا منكرًا: «وفي ذلك من النهي الشرعي ما هو معلوم».

وحينما يختم ابن جبير إقامته بمكة المكرمة، لا ينسى أن يذكر أن مدة إقامته بها حيث أمتدت من يوم وصوله يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر من سنة تسع وسبعين (أي بعد الخمسمائة) إلى يوم إقلاعه وهو يوم الخميس الثاني والعشرين لذي الحجة من السنة نفسها: ثمانية أشهر وثلث شهر كما أحصى ذلك.

وقد اختار هذه المرة أن لا يعود عن طريق البحر الأحمر، بل صحب الركب العراقي إلى بغداد، وبدأت رحلته من حي الزاهر، مروراً بوادي فاطمة)، وعلى عادته، فهو يصف الطريق، وموكب الحجيج، وعدما وصل (عسفان) قال عنها: «وهي في بسيط من الأرض بين جبال، وبها آبار معينة تُنسب إلى عثمان رضي الله عنه، وشجر المقل (أي الدوم) بها كثير، وبها حصن عتيق البنيان ذو أبراج مشيدة غير معمور، ووصف (خليص) فقال: «وهي أيضًا في بسيط من الأرض، كثيرة حدائق النخل، لها جبل فيه حصن مشيد في قنّته، وفي البسيط حصن آخر قد أثر في الخراب، وبها

عين فوارة، قد أحدثت لها أخاديد في الأرض، مسربة يستقى منها على أفواه كالآبار، ويصف لنا ابن جبير في زيارته إلى المدينة المنورة مشاهد كثيرة حيث يتقصى التاريخ والآثار ويصف معالمها بدقة. كما يصف مجلس وعظ بالمسجد النبوي، وسرعان ما يترك يثرب في اليوم الثامن من شهر المحرم ميمما شطر العراق مستمرًا في تجواله في الآفاق.

ورحلته هذه مكتوبة بلغة سهلة ملائمة تمامًا لموضوعها وطريقته في السرد محببة إلى النفس وهو يصف ما يشاهده وصفًا دقيقًا وترك نفسه على سجيتها فلم يتكلف في عبارة ولا فكرة ونراه يذكر ما داخله من مشاعر وأحاسيس إزاء بعض المواقف والأحداث صادقًا صريحًا حيث عرض علينا وصفه للكعبة وكسوتها ولكل ما بداخل المسجد من أجزاء ويطيل في وصف المنبر وهيئة خطيبه يوم الجمعة وما يقوله من أدعية ولم يترك شيئًا في المسجد الحرام ولا في ظاهره وسطحه إلا ويصفه وصفًا دقيقًا ثم يصف مكة وآثارها وجبالها ومشاهدها وأبوابها ومطاعمها وحماماتها واحتفال الناس برمضان ويوم العيد ويفيض في وصف مناسك الحج ومشاعره وصف المشاهد الذي لا تفوته صغيرة ولا كبيرة حيث يتميز بالدقة وحب الوصف الأدبي وتاركًا وصفًا حيا للمسجد الحرام ومكة المكرمة.

ويسجل دائمًا ما يكتب في صورة يوميات حيث قص أحاديث كثيرة وكانت مخيّلته من المخيّلات اللاقطة التي تلتقط كل ما تشاهده وتسجله مع التوفيق في الرؤية ومن يطلع على رحلته كاملة

سوف يراها جديرة بالقراءة والتأمل، وكل ذلك وغيره مما نراه في كتب الرحلات هو ذخائر نفيسة ومعلومات شائقة ولا نبالغ إذا قلنا إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربي حيث ارتبطت الرحلة بالبحث والاكتشاف والتنقيب والوصف وغير ذلك من المقومات والأبعاد المتميزة.

وأخيرًا تلكم بعض الصفحات واللمحات من رحلة ابن جبير في سجل مكثف وتعتبر رحلته من أحسن كتب الرحلات الأندلسية وأمتعها وقد ترجمت إلى الكثير من اللغات وقد توفى رحمه الله في الإسكندرية سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م).

رحلة الحج في القرن الثامن الهجري

كما وصفها الرحالة ابن بطوطة ٧٢٦هـ

تفيض كتب التاريخ والحديث بالروايات والأخبار والقصص عن المحدثين الذين قاموا برحلات إلى الحج وأخرى بصدد جمع الأحاديث وتدوينها، وكذلك كان الرحالة يذهبون ويرتحلون من أجل التجارة والالتقاء بالعلماء والأدباء والمؤرخين والأطباء ووصف طريق الحج والمشاعر المقدسة والحرمين وما بهما من آثار ومعالم وعلماء ومخطوطات وأماكن ومساجد ومكتبات، وما أعظم ما كتب الرحالة ابن بطوطة في كتابه: (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وهو ألمع الرحالين الأندلسيين ويعتبر نموذجا فريدا للرحالة المغاربة والأندلسيين على يديه أخذت الرحلة شكلها النهائي.

لقد كانت الجزيرة العربية تتميز بخصوصية دينية وتاريخية واقتصادية كونها مهد رسالة الإسلام وخاصة الحرمين وأحد مواطن الحضارة القديمة وملتقى الطرق التجارية ومركز اتصال مع الحضارات المعاصرة.

ولقد حفل التراث العربي بالأقوال والأشعار والحكم والأمثال حول السفر والرحلات، وإن أدب الرحلات حينما يتصدى له

العلماء والمفكرون فإنه يظل مخصبا ومفيدًا وذا عطاء علمي غزير بحيث يبرز فيه الجانب التصويري والسياق الأدبي والتحقيق التاريخي والبحث الاجتماعي مع تطعيمه بمأثور الشعر والحكم مما تقتضيه المناسبة.

ونستعرض رحالة جاب الشرق والغرب ويجيد الوصف والسرد التاريخي والمعروف بابن بطوطة أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الطنجي، ولد في طنجة سنة ٧٠٣هـ-١٣٠٤م ومكث بها إلى أن بلغ الثانية والعشرين فاندفع بدافع التقوى إلى الحج وانساق بحبه للأسفار والرحلات في بلدان العالم المعروف في أيامه واستغرقت رحلاته زهاء تسع وعشرين سنة وكان دقيق الملاحظة يرغب في الاطلاع على كل شيء غريب.

ورحلاته من أطرف الرحلات لما فيها من وصف للعادات والتقاليد ولما فيها من فوائد تاريخية وجغرافية ومن ضبط لأسماء الرجال والنساء والمدن والأماكن فهو يعتبر شيخ الرحالة المسلمين طوى المشارق والمغارب فرحلته من أوسع الرحلات في القرون الوسطى (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ومن سطور رحلته يظهر لنا ابن بطوطة الفقيه وعالم الاجتماع والجغرافي والاقتصادي فاجتمعت له بذلك العديد من الصفات وربما يعود ذلك إلى كثرة تنقلاته واتصالاته بالناس وفيما أدى إلى اتساع أفقه ومداركه.

وما زالت رحلة ابن بطوطة مصدراً كبيرًا من مصادر علمي

التاريخ والجغرافية في القرون الوسطى حيث أنه أول من جاب كثيرًا من الأقطار وكتب عن حياتها الاجتماعية والسياسية وأحوال تلك الأمم وعاداتها وتقاليدها وكشف عن الكثير من أسرارها ولقد كتب كثير من المستشرقين والباحثين حول ذلك حيث أحلوه المرتبة والمكانة اللائقة به فهو رحالة واسع المعارف والمدارك راغب في اقتحام المخاطر والأهوال.

وتضم هذه الرحلة النفيسة وصفًا دقيقًا لمشاهداته في مكة المكرمة فلقد تحدث ابن بطوطة عن رحلته إلى الحج وزار مكة المكرمة التي أخذت بتلابيبه وشوقه.

يقول الرحالة ابن بطوطة:

ومن عجائب صنع الله تعالى، أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة، والمثول بمعاهدها الشريفة، وجعل حبها متمكنًا في القلوب، فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجامع قلبه، ولا يفارقها إلا آسفًا لفراقها متولها لبعاده عنها، شديد الحنان إليها، ناويًا لتكرار الوفادة عليها .. وكم من ضعيف يرى الموت عيانًا دونها، ويشاهد التلف في طريقها فإذا جمع الله بها شطه، تلقاها مسروراً مستبشرًا كأنه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصبًا.

ثم ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم حيث يقول: فمن عادتهم أن يصلي أول الأئمة إمام الشافعية، وهوالمقدم من قبل أولى الأمر، وصلاته خلف المقام الكريم مقام إبراهيم الخليل، عليه السلام، في حطيم له هنا بديع، وجمهور الناس

بمكة على مذهبه.

فإذا صلى الإمام الشافعي صلى بعده إمام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني، ويصلي إمام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلاً ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ثم يصلي إمام الحنفية قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هناك، ويوضع بين يدي الأئمة في محاريبهم الشمع وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع.

وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد كل إمام يصلي بطائفته ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي، وتراهم مصيخين كل واحد إلى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو.

كما تحدث ابن بطوطة عن الخطبة وصلاة الجمعة في مكة المكرمة قائلاً: وعادتهم في يوم الجمعة أن يلصق المنبر المبارك إلى سطح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي، ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم، فإذا خرج الخطيب أقبل لابسًا ثوب سواد معتمًا بعمامة سوداء، وعليه طيلسان أسود، كل ذلك من كسوة الملك المعاصر، وعليه الوقار والسكينة، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين، وبين يديه أحد القومة في يده الفرقعة، وهو عود في طرفه جلد رقيق مفتوح ينفضه في الهواء فيسمح له صوت عال، يسمعه من بداخل

الحرم وخارجه فيكون إعلاماً بخروج الخطيب.

ولا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر، فيقبل الحجر الأسود، ويدعو عنده ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمي، وهو رئيس المؤذنين، بين يديه، لابسًا السواد، وعلى عاتقه السيف ممسكًا له بيده، وتركز الرايتان عن جانبي المنبر، فإذا صعد أول درج من درج المنبر قلّده المؤذن السيف، فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرين ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة ثم في الثالث أخرى، فإذا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة، ووقف داعيا بدعاء خفي مستقبلا الكعبة ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله، ويرد عليه الناس، ثم يقعد ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في حين واحد، فإذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبي ﷺ ويقول في أثنائها: اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف، ويشير بإصبعه إلى البيت الكريم: اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ما وقف بعرفة؛ ويترضى عن الخلفاء الأربعة وعن سائر الصحابة وعن النبي ﷺ، وسبطيه وأمهما وخديجة جدتهما على جميعهم السلام، ثم يدعو للملك الناصر ثم للسلطان المجاهد، وبعد انقضاء الصلاة يعاد المنبر إلى مكانه الكريم.

إن رحلة ابن بطوطة تأخذ أشكالا متعددة وفي جملتها تكون أشبه بالدوائر المتقاطعة وقد أخذ في وصف وذكر شعائر الحج فنراه يقول:

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة تشمر أستار الكعبة، زادها الله تعظيما إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع صونا لها من الأيدي أن تنتهبها، ويسمون ذلك إحرام الكعبة وهو يوم مشهود بالحرم الشريف، ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنتهي الوقفة بعرفة.

وإذا كان أول يوم شهر ذي الحجة تضرب الطبول والدباب، في أوقات الصلوات، بكرة وعشية إشعارًا بالموسم المبارك ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات، فإذا كان اليوم السابع من ذي الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم، ويعلمهم بيوم الوقفة، فإذا كان اليوم الثامن بكّر الناس بالصعود إلى منى، وأمراء مصر والشام والعراق وأعلم العلم يبيتون تلك الليلة بمنى، وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشمع ولكن الفضل في ذلك لأهل الشام دائمًا، فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة فيمرون في طريقهم بوادي محسر ويهرولون وذلك سُنّة.

ووادي محسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى، ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين وحولها مصانع وصهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد، وبين منى وعرفة خمسة أميال وكذلك بين منى ومكة أيضًا خمسة أميال.

ولعرفة ثلاثة أسماء وهي: عرفة وجمع والمشعر الحرام، وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفيح تحدق به جبال كثيرة وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف وفيما حوله، والعلمان قبله بنحوه ميل، وهما الحد ما بين الحل والحرم، وبمقربة منهما مما يلي عرفة بطنُ عرنة الذي أمر النبي ﷺ بالارتفاع عنه، ويجب التحفظ منه ويجب أيضًا الإمساك عن النور حتى يتمكن سقوط الشمس، فإن الجمالين ربما استحثوا كثيرًا من الناس وحذروهم الزحام في النفر، واستدرجوهم إلى أن يصلوا بهم بطن عرنة فيبطل حجهم.

وجبل الرحمة الذي ذكرناه قائم في وسط بسيط منقطع عن الجبال، وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض وفي أعلاه قبة تنسب إلى أم سلمة رضي الله عنها، وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه، وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات، وفي قبليه جدار فيه محاريب منصوبة يصلي فيه الناس وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء تنسب إلى آدم عليه السلام وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي ﷺ عندها، وحول ذلك صهاريج وجباب للماء وبمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الإمام يخطب، ويجمع بين الظهر والعصر.

وعن يسار العلمين للمستقبل أيضًا وادي الأراك، وبه أراك أخضر يمتد في الأرض امتدادًا طويلاً ويفيض ابن بطوطة في الحديث قائلاً:

وإذا حان وقت النفر أشار الإمام المالكي بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لها الأرض وترجف الجبال فيا له من موقف كريم ومشهد عظيم ترجو النفوس حسن عقباه، وتطمح الآمال إلى نفحات رحماه، جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه.

ويتحدث عن نفسه قائلاً: وكانت وقفتي الأولى يوم الخميس سنة ٧٢٦هـ (ست وعشرين وسبعمائة) وأمير الركب المصري يومئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر وحجت في تلك السنة ابنة الملك الناصر، وهي زوجة أبي بكر بن أرغون المذكور، وحجّت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخوندة، وهي بنت السلطان المعظم محمد أوزبك ملك السراوخوارزم، وأمير الركب الشامي سيف الدين الجوبان.

ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة، فصلينا بها المغرب والعشاء جمعًا بينهما حسبما جرت سنة رسول الله ﷺ ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى منى بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام، ومزدلفة كلها موقف إلا وادي محسّر ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه.

ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وذلك مستحب ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف، والأمر في ذلك واسع ولما انتهى الناس إلى منى بادروا لرمي جمرة العقبة ثم نحروا وذبحوا ثم حلقوا وحلّوا من كل شيء إلا النساء والطيب، حتى يطوفوا طواف الإفاضة ورمي هذه الجمرة عند طلوع الشمس

من يوم النحر ولما رموها توجه أكثر الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا إلى طواف الإفاضة ومنهم من أقام إلى اليوم الثاني، وفي اليوم الثاني رمى الناس عند زال الشمس بالجمرة الأولى سبع حصيات وبالوسطى كذلك، ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء بفعل رسول الله ﷺ ولما كان اليوم الثالث تعجّل الناس الانحدار إلى مكة، شرفها الله بعد أن كمل لهم رمي تسع وأربعين حصاة، وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاة.

وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري إلى البيت الكريم، فوضعت في سطحه فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون في إسبالها على الكعبة الشريفة، وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفي أعلاه طراز مكتوب فيه بالبياض: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا﴾ [المَائدة: ٩٧]، الآية، وفي سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن، وعلينا نور لائح مشرق من سوادها.

ولما كسيت شمرت أذيالها صونا من أيدي الناس والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة، ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة، وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة. ويفيض في الحديث عن الكعبة تاركًا وصفًا حيا للمسجد الحرام ومكة المكرمة حيث يقول:

وفي هذه الأيام تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين

والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم، ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلاً فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب، وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة.

وبعد فإن ابن بطوطة رحالة مسكون بهواجس التجوال ودقة الملاحظة وتعتبر رحلته من أقيم كتب الرحلات وأمتعها وأعظم رحالة عرفه العرب في تاريخهم الوسيط وتوفي سنة ٧٧٩هـ وهو يستكشف برؤيته العميقة الرغبة الدائمة في البحث والتعلم. إن رحلته للحج وفي بلاد الله الأخرى سجل كبير يضم بين دفتيه صورة الحياة في تلك الحقبة من الزمان بما يمكن الإفادة منه نظرًا لما يمثله الحج والحرمان الشريفان والمشاعر المقدسة من مكانة عظيمة تتجه إليها أنظار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وتهفو إلى رحابها الطاهرة قلوبهم المفعمة بالإيمان.

رحلة ناصر خسرو شاه ٤٤٢هـ

نستعرض رحلة ناصر خسرو شاه إلى الحج حيث قام بها في القرن الخامس الهجري وقد نقلها إلى اللغة العربية الدكتور يحيى الخشاب حيث يقول نشأ ناصر خسرو في جو مضطرب سياسيًا ودينياً وقد ولد في قباديان عام ٣٩٤هـ وتثقف ثقافة واسعة وبدأ حياته في بلاط حماة السنة وقتذاك.

ويحدثنا ناصر خسرو في رحلته المسماة سفر نامة، قائلاً: إن الذي دفعه إلى رحلته هو ما قرأ في القرآن الكريم في سورتي محمد والفتح من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمّد: ٢٤]، إذن ففي القرآن، إذ أمعن النظر فيه وتدبر معانيه، ما يفرج كربته ويبدد الشك من نفسه، ويشع فيها من الهدوء والاطمئنان ما يوصل إلى إيمان قوي سليم. ولم يكد يستمر في القراءة قليلاً حتى قرأ في السورة التالية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠]. ثم قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨]، حينئذ أخذ منه الحماس كل مأخذ فنهض من مقعده وعزم على الرحيل إلى حيث الشجرة التي بايع

المؤمنون تحتها النبي ﷺ على أن يقاتلوا معه، والمؤمنون من أمثال جعفر والمقداد وسلمان وأبي ذر، فلعل من سحر المكان ما ينفذ إلى نفسه الحائرة بالسكينة والأمن. وقوّى هذا الرأي عنده ودفعه إلى العمل على تحقيقه، ما صادفه من تفاؤل توالى عليه بعد عزمه على الحج.

يبدأ وصف الرحلة حيث غادر مرو مستصحبًا أخاه أبا سعيد وغلامًا هنديا، وبعد أن زار بيت المقدس، قصد الحج لأن محدثه في الرؤيا أشار إلى القبلة حين سأله أين يجد ما يبدد شكوكه، ولأن قراءة القرآن هدته إلى الذهاب حيث الشجرة التي تعاهد تحتها المؤمنون على نصرة النبي عليه الصلاة والسلام إلى النهاية مهما كلفهم الأمر. وعاد إلى بيت المقدس فعزم على زيارة مصر على أن يغادرها إلى مكة، ولم يكن في نيته أن يرحل إلى بلاد أخرى، لذلك لم يكن استعداده كاملاً لهذه الرحلة الطويلة الشاقة التي سطرها في كتابه سفر نامه، والتي دامت سبع سنوات، والذي يعنينا من هذه الرحلة الطويلة ما يتصل بالحج.

وقد بدأ في وصف مدينة جدة حين وصلها قائلاً:

وجدة مدينة كبيرة لها سور حصين، تقع على شاطئ البحر، وبها خمسة آلاف رجل، هي شمال البحر (الأحمر)، وفيها أسواق جميلة، وقبلة مسجدها الجامع ناحية المشرق، وليس بخارجها عمارات أبدأ، عدا المسجد المعروف بمسجد رسول الله ﷺ. ولها بوابتان إحداهما شرقية تؤدي إلى مكة، والثانية غربية تؤدي إلى

البحر. ويبلغ السائر من جدة جنوبًا على شاطئ البحر، اليمن ومدينة صعدة، المسافة إلى هناك خمسون فرسخًا. وإذا سار شمالاً بلغ الجار وهي تابعة للحجاز، وليس في جدة شجر ولا زرع، وكل ما يلزمها يحضرونه إليها من القرى. وبينها وبين مكة اثنا عشر فرسخًا. وأمير جدة تابع لأمير مكة تاج المعالي بن أبي الفتوح الذي هو أمير المدينة أيضًا. وقد ذهبت إلى أمير جدة فأكرم وفادتي وأعفاني مما كان يجب علي من المكس ولم يطلبه. وهكذا خرجت من البوابة في سلام. وقد كتب إلى أمير مكة يقول عني: هذا رجل عالم فلا يجوز أن يؤخذ منه. وفي يوم الجمعة بعد صلاة العصر قمت من جدة فبلغت باب مكة يوم الأحد سلخ جمادى الثانية.

وكان قد حضر إلى مكة للعمرة خلق كثيرون من نواحي الحجاز واليمن في أول رجب، وهو موسم عظيم مثل عيد رمضان، وهم يحضرون وقت الحج، ولأن طريقهم قريب وسهل يأتون إلى مكة ثلاث مرات كل سنة.

ثم أخذ في وصف مكة المكرمة قائلاً:

تقع مكة بين جبال عالية، ولا ترى من بعيد، من أي جانب يقصدها السائر، وأقرب جبل منها هو جبل أبي قبيس، وهو مستدير كالقبة، لو رمي سهم من أسفله لبلغ قمته. وهو شرقي مكة، فترى الشمس من داخل المسجد الحرام، وهي تشرق من فوقه في شهر (ديسمبر). وقد نصب على قمته برج من الحجر يقال

إن إبراهيم عليه السلام رفعه عليه.

وتشغل هذه المدينة الوادي الذي بين الجبال والذي لا تزيد مساحته عن رمية سهمين في مثلها، والمسجد الحرام وسط هذا الوادي؛ ومن حوله مكة والشوارع والأسواق وحيثما وجدت ثغرة بين الجبال سدت بسور قوي وضعت عليه بوابة، وليس بمكة شجر أبدًا إلا عند الباب الغربي للمسجد الحرام المسمى باب إبراهيم، حيث يوجد كثير من الشجر الكبير الذي يرتفع على حافة بئر.

وعند الجانب الشرقي للمسجد سوق تمتد من الجنوب إلى الشمال، وفي أولها ناحية الجنوب جبل أبي قبيس الذي تقع الصفا على سفحه، وتبدو على هذا السفح درجات كبيرة من الحجارة المستوية التي يصعد الحجاج عليها ويدعون ربهم. والمروة في نهاية السوق، شمالي الجبل، وهي اقل ارتفاعًا في وسط مكة، وقد شيدت عليها منازل كثيرة. وما يسمى السعي بين الصفا والمروة هو المسعى في هذه السوق من أولها لآخرها. ويجد من يرغب العمرة وهو آت من بعيد، أبراجًا على مسافة نصف فرسخ حول مكة فيحرم منها للعمرة. والإحرام هو نزع الملابس المخيطة من على الجسد، وشد المحرم وسطه بإزار، ولف جسده بإزار أو وشاح آخر، وصياحه بصوت عال أن «لبيك اللهم لبيك»، ثم يسير نحو مكة.

فإذا أراد حاج أن يعتمر وهو بمكة، فعليه أن يذهب إلى تلك الأبراج ويرتدي ثوب الإحرام ويهتف لبيك ويدخل مكة بنية

العمرة، فحين يبلغ مكة يدخل المسجد الحرام، ويسير نحو الكعبة ثم يطوف ناحية اليمين بحيث تكون هذه على يساره، ويتوجه إلى الركن الذي به الحجر الأسود فيقبله، ثم يمضي ويستمر في الطواف حتى يعود إلى الحجر الأسود مرة أخرى فيقبله، وبهذا يكون قد أتم طوفة واحدة.

وعلى هذا النحو يطوف سبع مرات، ثلاثاً منها بسرعة وأربعًا على مهل. وبعد إتمام الطواف يتوجه نحو مقام إبراهيم عليه السلام، وهو أمام الكعبة، فيقف خلفه، بحيث يكون المقام بينه وبين الكعبة، وهناك يصلي ركعتين، هما صلاة الطواف. ثم يذهب إلى حيث بئر زمزم، فيشرب من مائها أو يمسح بها وجهه، ثم يخرج من المسجد الحرام، من باب الصفا الذي سمي كذلك؛ لأن جبل الصفا يقع خارجه، فيصعد على عتبات الصفا مولياً وجهه شطر مكة ويدعو بالدعاء المعلوم، ثم ينزل ويتجه ناحية المروة مارًا بالسوق التي يسير فيها من الجنوب إلى الشمال، وعليه أن ينظر إلى أبواب الحرام حين يمر بها، وأن يحث الخطى في المسافة التي سعاها الرسول عليه الصلاة والسلام مسرعًا، والتي أمر الناس باجتيازها مسرعين، وهي خمسون خطوة. وعلى طرفي هذا الموضع (الذي يسار فيه بسرعة) أربع منارات، على الجانبين. فإذا بلغ الحاج الآتي من الصفا ما بين المنارتين الأوليين أسرع حتى يصل إلى ما بين المنارتين الثانيتين، ثم يسير الهوينى، حتى يبلغ المروة فيصعد عتباتها، ويدعو ذلك الدعاء المعلوم. وهكذا يكرر هذا السعي في السوق، بحيث يسعى من الصفا إلى المروة

أربع مرات، ومن المروة إلى الصفا ثلاث مرات. فيكون قد سعى في هذه السوق سبع مرات.

وعندما ينزل الحاج من جبل المروة يجد سوقًا فيها عشرون دكاناً متقابلة، يشغلها جميعًا حجامون لحلق شعر الرأس. وحين يتم الحاج شعائر العمرة ويخرج من المسجد الحرام، يدخل السوق الكبيرة التي تقع ناحية الشرق، والمسماة سوق العطارين، وهي سوق جميل البنايات وكلها عطارون.

وبمكة حمامان بلاطهما من الحجر الأخضر السنان. وقدّرت أن سكانها، القاطنين بها، لا يزيدون على ألفين، والباقي ويقربون من الخمسمائة، من الغرباء والمجاورين. وفي ذلك الوقت كان بمكة قحط، فكان الستة عشر منا من القمح بدينار مغربي، وقد هاجر منها كثيرون.

وقد كان لأهالي كل مدينة من خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها منازل بمكة، ولكن أغلبها كان خراباً وقتذاك. وقد بنى بها خلفاء بغداد عمارات كثيرة وأبنية جميلة، وكان بعضها، وأنا هناك، خربًا والبعض الآخر اشتراه الناس (أصبح ملكًا خاصًا). وماء آبار مكة مالح ومُر لا يساغ شربه. ولكن بها كثيرًا من الأحواض والمصانع الكبيرة، بلغت تكاليف الواحد منها أكثر من عشرة ألاف دينار. وهي تملأ من ماء الأمطار الذي يتدفق من الأودية. وكانت فارغة ونحن هناك.

ويمضي في حديثه قائلاً: هذه هي المرة الرابعة التي أزور فيها

مكة، وقد مكثت بها مجاورًا من غرة رجب ٤٤٢هـ (١٠ نوفمبر ١٠٥٠م) إلى العشرين من ذي الحجة (٣ مايو ١٠٥١م). وقد أثمر بها العنب في الخامس عشر من (مارس - إبريل) فأُحضر من السواد إلى مكة وبيع في السوق. وكان البطيخ كثيرًا في أول إبريل - مايو). وكانت الفاكهة متوفرة طول الشتاء فلم تنقطع قط.

ونراه في وصف المسجد الحرام والكعبة يقول:

إن الكعبة تقوم وسط المسجد الحرام، وإن المسجد الحرام يقوم وسط مكة، والمسجد ممتد طولاً من الشرق إلى الغرب، وعرضًا من الشمال إلى الجنوب. وسوره ليس قائم الزوايا، بل أركانه مقوسة، تميل إلى الاستدارة، وذلك حتى تكون وجوه جميع المصلين شطر الكعبة، في أي جهة كانوا يصلون بالمسجد. وأقصى طول للمسجد من باب إبراهيم إلى باب بني هاشم، أربع وعشرون وأربعمائة ذراع، وعرضه من باب الندوة، وهو جهة الشمال، حتى باب الصفا، وهو جهة الجنوب، وأقصى اتساعه أربعة وثلاثمائة ذراع. وبسبب استدارته تبدو ساحة المسجد أضيق في جهة وأوسع في جهة أخرى. وحوله ثلاثة أروقة رفعت أسقفها على أعمدة من الرخام. ووسط هذه الأروقة مربع. وعلى طول السقف من ناحية ساحة المسجد أربعون طاقاً، وعلى عرضة ثلاثة وعشرون. وعدد الأعمدة الرخامية التي فيه أربعة وثمانون وأربعمائة عمود، قيل إنها كلها، أرسلت من الشام عن طريق البحر، بأمر خلفاء بغداد. وقيل إنه حين بلغت هذه العمد مكة، بلغ ثمن الحبال التي شدت بها إلى السفن والعجلات، والتي قطّعت قطعًا، ستين

ألف دينار مغربي. ومن هذه العمد عمود من الرخام الأحمر وضع عند باب الندوة، قيل إنه اشترى بوزنه ذهبًا، ويقدر وزنه بثلاثة آلاف من. وللمسجد الحرام ثمانية عشر باباً، عليها طيقان مقامة على عمد من الرخام، وضعت بحيث لا تعوق فتح الأبواب. وعلى الجانب الشرقي أبواب هي من الركن الشمالي: باب النبي وبه ثلاثة طيقان مقفلة. وعلى هذا الجانب نفسه عند الطرف الجنوبي (للباب الأول) باب آخر يسمى باب النبي أيضًا، وبين هذين البابين أكثر من مائة ذراع.

والكعبة في وسط ساحة المسجد، وهي مستطيل طوله من الشمال إلى الجنوب ثلاثون ذراعًا، وعرضه من الشرق إلى الغرب ستة عشر ذراعًا. وبابها شرقي، بحيث يكون الركن العراقي على يمين الداخل، وركن الحجر الأسود على يساره. ويسمى ركنها الجنوبي الغربي بالركن اليماني، وركنها الشمالي الغربي بالركن الشامي. والحجر الأسود مركب على زاوية الحائط في حجر كبير، بحيث إذا وقف رجل طويل القامة يكون مقابلاً لصدره. وطول هذا الحجر شبر وأربعة أصابع، وعرضه ثمانية أصابع، وهو مستدير الشكل. وبينه وبين باب الكعبة أربعة أذرع ويسمى ما بينهما الملتزم.

ويمضي في وصف باب الكعبة قائلاً:

هو باب من خشب الساج، له مصراعان. ارتفاعه ست أذرع ونصف ذراع، وعرض كل من مصراعيه ذراع وثلاثة أرباع الذراع،

فعرضهما معًا ثلاثة أذرع ونصف. وعلى صدر الباب وأعلاه كتابة، كما أن عليه دوائر زخرفية من فضة، وكتابات منقوشة بالذهب والفضة، وقد كتبت عليه هذه الآية حتى آخرها: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عِمرَان: ٩٦]. وله حلقتان كبيرتان من الفضة، وقد ركبتا في مصراعيه بحيث لا تصل إليهما يد إنسان. ومن تحتهما حلقتان أخريان من الفضة، أصغر حجما وموضوعتان بحيث تصل اليد إليهما. وفيهما قفل كبير من الفضة أيضا يقفل به الباب ولا يفتح ما لم ينزع القفل.

ويقول في وصف الكعبة من الداخل:

يبلغ سمك حائطها ستة أشبار. وأرضها مغطاة بالرخام الأبيض. وبالكعبة ثلاث خلوات صغيرة، كأنها دكاكين، إحداها تقابل الباب والآخريان على الجانب الشمالي. والأعمدة التي بالكعبة والتي أقيم عليها السقف كلها من خشب الساج المربع، إلا عمودًا واحداً مدورًا. وفي الجانب الشمالي قطعة مستطيلة من الرخام الأحمر.

أما مقام إبراهيم عليه السلام شرقي الكعبة. وهو الحجر الذي به آثار قدمي إبراهيم عليه السلام. وهو مركب في حجر آخر وعليه غلاف مربع من الخشب، بارتفاع قامة الرجل، وهو في غاية الدقة، ووضعت عليه ألواح من الفضة، وقد أحكم ربط الغلاف بالحائط بسلاسل من الجانبين، وعليه قفلان، وذلك حتى لا يستطيع أحد أن يلمس الحجر. وبين الكعبة ومقام إبراهيم

ثلاثون ذراعًا.

وعن بئر زمزم يتحدث قائلاً:

بئر زمزم شرقي الكعبة، حذاء ركن الحجر الأسود. وبين زمزم والكعبة ست وأربعون ذراعًا، وسعة البئر ثلاثة أذرع ونصف في مثلها.

وأما البئر ناحية المشرق، بناء آخر مربع عليه قبة، ويسمى سقاية الحاج، وضع به أزيار يشرب منها الحجاج. وبعد هذا البناء، ناحية الشرق، بناء آخر مستطيل عليه ثلاث قباب، يسمى خزانة الزيت، به الشمع والزيت والقناديل.

وحول الكعبة أعمدة يتصل بعضها بالبعض بواسطة عروق من الخشب، عليها زخارف ونقوش من الفضة.

في التاسع من ذي الحجة سنة اثنين وأربعين وأربعمائة (٢٧ إبريل ١٠٥١م) قضيت الحجة الرابعة بعون الله سبحانه وتعالى. ولما غابت الشمس عاد الحجاج والخطيب من عرفات، وسار فرسخًا إلى المشعر الحرام، ويسمونه المزدلفة، وهناك بناء جميل كالمقصورة يصلي فيه الناس ويأخذون منه حجارة الرجم التي يرمونها بمنى. والعادة أن يقضي الحاج هذه الليلة، وهي ليلة العيد، هناك، حيث يصلون الفجر، وعند طلوع الشمس يتوجهون إلى منى حيث يضحون، وهناك مسجد كبير يسمى مسجد الخيف، وليس من الفروض إلقاء خطبة وصلاة العيد بمنى في ذلك اليوم، ولم يأمر بهما المصطفى عليه السلام، ويكون الحجاج بمنى في

العاشر من ذي الحجة، وهناك يرمون الحجارة، وشرح ذلك مذكور في مناسك الحج، وفي الثاني من ذي الحجة، وهناك يرمون الحجارة، وشرح ذلك مذكور في مناسك الحج، وفي الثاني عشر من ذي الحجة يغادر منى من عزم على العودة لبلاده، ويذهب إلى مكة أهلها.

وبعد إتمامه الحج يقول، وقد ودعت بيت الله يوم الجمعة تاسع عشر ذي الحجة سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة (٧ مايو ١٠٥١م). وقد وجدنا مرجا بعد سبعة فراسخ من مكة عنده جبل، ولما بلغناه وجدنا سهلاً وقرى وبئرًا اسمها بئر الحسين بن سلامة. وكان الجو باردًا، وقد سرنا ناحية المشرق.

وانتهت بذلك رحلته إلى الحج وأخذ بعد ذلك في وصف جزيرة العرب وبلاد العراق ومصر والشام وإيران وبإلقاء نظرة على هذه الرحلة من خلال الاستعراض السابق لها.

فقد اشتملت هذه الرحلة على وصف دقيق وامتاز المترجم لها بدقة الترجمة وشرح بعض النصوص الواردة فيها. لقد أسهب في وصف رحلته إلى الحج ويدل على مدى قدرته وتناوله للأحداث والمواضع والأماكن التاريخية، وما فيها من عبر وعظات ذاكراً أطوالها وعروضها ومواقفها وكان أبرز ما عرضه في رحلته هذه جولته في ربوع الأماكن المقدسة ووقوفه على المشاعر وتوجه رحلته بالحج إلى بيت الله الحرام وتقديم وصف دقيق لما شاهده مع اهتمامه بذلك مما جاء في كتب التاريخ وما جاء عن العلماء

ممن حازوا قصب السبق في هذا الميدان، وهذه الرحلة وغيرها تضيف الكثير من المعلومات عن تلك الحقبة من الزمان.

رحلة ابن عبدالسلام الناصري الدرعي ١١٩٦م

ولد هذا الرحالة ابن عبدالسلام في بلدة درعة بالمغرب وهو من بيت علم مشهور أشار إليه الشيخ حمد الجاسر في كتابه أشهر رحلات الحج من منشورات دار الرفاعي في شوال ١٤٠٢هـ، ولقد تلقى العلم في مدينة فاس على علماء ذوي مكانة في المغرب، وقد قام برحلتين إلى الحج الأولى سنة ١١٩٦هـ، والثانية سنة ١٢١١هـ وله عدد من المؤلفات تدل على سعة إطلاعه على أمهات كتب الحديث والتفسير ومن مؤلفاته:

١- الرحلة الكبرى إلى الحج وهي أشمل مؤلفاته وأوسعها قال عنها الشيخ محمد الفاسي هي من أهم ما وضعه المغاربة في هذا الفن الذي برزوا فيه وأبدعوا.

٢- الرحلة الصغرى وتقع في ٢٧٩ صفحة وصف فيها مسيره إلى الحج سنة ١٢١١هـ وأكمل تأليفها بعد عودته سنة ١٢٢٠هـ فمر بمصر وأقام فيها ثم غادرها إلى مكة في سابع ذي الحجة وسار منها إلى المدينة في ٢٧ ذي الحجة وبقي فيها فترة من الزمن وغادرها إلى مصر ثم رجع إلى بلاده المغرب حيث مر بالقيروان وتحدث عنها ثم مر بمدينة تونس ووصفها وسار منها إلى مسقط سنة ١٢١٣هـ.

وتعتبر رحلته من أوفى الرحلات في ذكر مراحل الحج وتحديد منازل الحج ومناهله وسكان تلك المنازل وأحوال المدينتين الكريمتين مكة والمدينة كما تحدث عن بعض الأمور التاريخية والدينية وقد قسم رحلته إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في وصف الرحلة من مصر إلى مكة.

القسم الثاني: في الطريق من مكة إلى المدينة.

القسم الثالث: في الطريق من المدينة إلى مصر.

وعندما يتحدث عن تاريخ مكة المكرمة ينقل عن أشهر المؤلفات في تاريخها مثل كتاب الأزرقي وشفاء الغرام للفاسي والأعلام للقطبي وفي تاريخ المدينة ينقل عن السمهوري وفي تحديد المواضع ينقل عن الروض المعطار عن البكري في كتابه المسالك والممالك وعن المقريزي في وصف الطريق فقد أكثر النقل عن بعض الرحالة الذين سبقوه إلى البقاع المقدسة من أمثال العبدري والصفدي، وأبي سالم العياشي والفاسي والقاضي والسبتي والبكري وغيرهم من الرحالة الذين قاموا بها للحج. وهكذا في جل المواضع لا يصرح بالنقل حيث يقول الشيخ حمد الجاسر أن نقله عن الرحلات التي تقدم ذكرها بواسطة الرحلة الناصرية وهي رحلة الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي سنة ١٠٦٩-١١٢٩هـ التي قام بها للحج وبدأها في يوم ٢٤ جمادى الأولى ١١٢١هـ، وعاد منها في ٥ رمضان سنة ١١٢٢هـ، وتعتبر هذه الرحلة من أوسع الرحلات وأشملها وتقع في جزئين وطبعت في

مدينة فاس في سنة ١٣٢٠هـ في ٤٤٢ صفحة.

لقد جاءت رحلة ابن عبدالسلام المغربي إلى الحج محتوية على وصف الطريق من القاهرة إلى العقبة ومن العقبة إلى مكة المكرمة ووصف مكة المكرمة ثم وصف الطريق من مكة إلى المدينة ووصف الطريق من المدينة إلى مصر، وتحدث عن كسوة الكعبة ثم عن المحمل ووصفه بأنه قبة من الخشب رائعة الصنعة وشبائك ملونة بالصبغ عليها كسوة من الديباج المرصع بالذهب ويشبه موكب ضخم ثم تحدث عن كسوة الكعبة ومقام سيدنا إبراهيم ثم تحدث عن كسوة الحجرة النبوية كما وصف مراحل الطريق مرحلة من القاهرة إلى مكة المكرمة وذكر مناهل المياه والبلدان الواقعة على شاطئ البحر الأحمر.

وذكر الجبال والأودية والرمال التي شاهدها في الطريق حيث يقول:

هذي بيادر رمل ترى الأعاجيب منها
الريح طول الليالي تسفى وتكتال منها
والوضع لم يتغير وشكلها لم يخنها

كما تحدث عن الأشجار والقرى والبوادي والإبل والآبار والجبال والأحجار المنقوشة وما بها من كتابات وتواريخ وتحدث عن كثير من البلدان كرابغ وينبع والوجه ويقول ونزلنا الوجه تقول العامة الوش بالشين وهو لغة أهل مصر وقد مضى من النهار ساعة وبه بندر متقن حصين وربما نزلته الأعراب تخزن به ما تبيعه من

الحاج من الكلأ والحطب ثم مررنا بوادي الأراك وهو واد واسع قريب من البحر وبه شجر الأراك الأخضر الناعم ثم بمضايق ذات صعود وحدود وفي الوادي المذكور يقول الشاعر:

كيف الأراك بأرض الحجاز فصرت أسائل عن غايته
لنأت الحبيب بمسواكه لأن رقيبك إن غاب ته

وينصح في رحلته باجتناب النزول في أودية الحجار كلها حيث أن مطرها قليل وإن نزل كان طوفانا في لحظة لكثرة الجبال والأودية والشعاب المتطاولة بها وإذا نزل المطر في بعض الأماكن منه فيتضرر من لم يره ولا اعتاد نحو ذلك السيل المباغت ثم تحدث عن وادي العقيق وذكر أقوال الشعراء فيه كقولهم:

فيا سائرًا يبتغي حجة بدرب الحجار انتبه يا صديق
فمن أرض مصر إلى مكة فسهل ووعر بكل الطريق
ففي الرمل تلقى كثير العناء وفي عقبة تلق سوء المضيق
ولكنه لا ترى مثلما تراه على أرض وادي العقيق
وكل يهون على ما ترى بواد يسمى بوادي الحريق

ثم نزل في الخضيراء على غير ماء وقد مضى من النهار ساعتان وفيها يقول الشاعر:

انظر إلى االخضراء واغنم بسطها تلق رباها نزهة للرائي
فلرب حشاش شكا من همه قد زال عنه الهم بالخضراء

ولقد مر في رحلته ببدر وأفاض في الحديث عنها وذكر أقوال

الشعراء منها:

يا أهل بدر لقد طابت مآثركم ... وقد علا قدركم في أرفع الدرج
فز ثم بغفران أوزار وحسن ثناه ... على المدى نشره من طيب الأرج
يكفيكم في علاكم قول مادحكم ... هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

وقال آخر:

نزلت ببدر والشؤون مصاحبي ... وأذكرني أهلي وناس وصاحبي
تمنيت لو أن شاركوني بمنزل ... به نصر الرحمن خير المواكب

كما ذكر قول الشاعر:

يا أهل بدر فزتم بمزية ... ما نالها أحد من الأخيار
شاركتم الأملاك في قهر العدا ... وظهور دين المصطفى المختار
فجزاكم الرحمن إذ شاركتم ... أملاكه في المحو للأوزار

ثم قال فيالها من ليلة بهية ووفدة سنية وقد وجدنا بها الركب الشامي قبلنا مخيما وبالجملة فهذا البلد عليه أنوار تلوح ورياض النصر تغدو وتروح ينشرح فيه الصدر والقلب ومعالم النبوة لا تخفي ومواطئ أقدام الرسول ﷺ لا تخفى ولقد أطنب في الحديث عن بدر ومعالمها التاريخية.

وما ذكره العلماء والشعراء فيها ثم تحدث عن رابغ والجحفة واستشهد يقول الشاعر:

تجردت لما أن وصلت لرابغ ... ولبيت للمولى كما حصل الندا

وقول آخر:

وفي رابغ ركب الحجيج تجردا ليسأل مولاه الأمان من الردى

وتحدث في رحلته عن خليص وعسفان وأنشد في عذوبة مائها:

عسفان ردْ وتضلّع منه ففيه شفاء

ويقول لقد شربنا منها تبركا وفيها يقول الشاعر:

إن عسفان تسامت رفعة وعلت قدرًا على كل القرى
وبها بئر النبي المصطفى خير من صلى وصام وقرا

ثم تحدث عن التنعيم وكدي حتى وصل إلى مكة المكرمة ويذكر فضائلها والكعبة المطهرة ويورد من شعره قوله:

بلد نحوه يحن الرسول وبه علقت قديمًا عقول
لو رأى من سناه غيلان مي بارقا لم تشفه تلك الطلول
أسفى إن منعت سكنى حماه وعدني عنه الزمان المطول

وأبيات أخرى تتعلق بالكعبة وبالحجر الأسود ثم يصف خروجه إلى منى وعرفات ثم يورد فصلاً عن أخبار مكة ووضعها وعمارة المسجد الحرم ووصف الكعبة ونظافة الحرم وعن المقام وزمزم والأبنية داخل المسجد وتحديد المشاعر المقدسة ومسجد الخيف والآثار في منى وفي مكة المكرمة ثم ختم كلامه عن مكة بذكر من لقيه من علمائها وما رآه فيها من الكتب النادرة مما يعتبره ذخيرة يعود بها إلى وطنه ويذاكر بها إخوانه وتنتهي رحلته بحب هذه الديار وأهلها وستظل ذكراها في نفسه باقية متجددة مدى

حياته.

وبالجملة ففي هاتين الرحلتين تسجيل واسع لعلماء عصره الذين التقى بهم وفيها وصف بديع لكل ما صادفه في رحلتيه من شعائر الحج ونسكه والمدينتين المقدستين وما يتصل بذلك من الأمور التاريخية والدينية والاجتماعية ووصف ذلك وصفًا شاملاً.

رحلة إبراهيم رفعت باشا ١٣١٨هـ

كان قد حج أربع مرات وهذه المرحلة اكتسبت من خلال اسمها «مرآة الحرمين» شهرة واسعة قام بتأليفها اللواء إبراهيم رفعت باشا (١٢٧٣-١٣٥٣هـ) دون فيها انطباعاته ومشاهداته وذكرياته عن الحرمين الشريفين وقد قسم كتابه إلى قسمين وقد أسمى الأولى بالرحلة الأولى حيث قام بها في سنة ١٣١٨هـ، وأما الرحلة الثانية فهي سنة ١٣٢٠هـ، ولقد تولى إمرة الحج المصري عددًا من السنوات وكان عسكريًا وكتابه هذا الذي نعرض له مكون من جزأين يدل على ثقافة مؤلفه وخبرته بأرض الحجاز وبتاريخ الحرمين الشريفين وبالحج والزيارة ونسكها.

ويذكر المؤلف في مقدمة كتابه أنه قام بزيارته الأولى لأرض الحرمين سنة ١٣١٨هـ، والثانية في سنة ١٣٢٠هـ، والثالثة في سنة ١٣٢١هـ، والرابعة في سنة ١٣٢٥هـ، وأنه كان - في جميع رحلاته الدينية هذه - أميرًا للحج.

وأشار في المقدمة إلى أنه لم يدع صغيرة ولا كبيرة مما رأى أو سمع إلا قيدها ويقول أني كنت أرى مناظر جميلة وآثاراً ثمينة ومشاهد مهما دققت في وصفها لا أصل بك إلى الحقيقة، ولا أدخل من الروعة في نفسك ما تدخله المشاهدة والرؤية، وكنت

أتمنى مصورًا ماهرًا يحس ما نرى من المناظر، وكنت أودُّ أن أكون ذلك المصور .. فلما رجعت من حجتي الأولى تعلمت فن التصوير، وجعلته مسلاتي في وقت فراغي.

ونزعت نفسي إلى حجة أخرى أقيد فيها الصور .. فأنالني الله بغيتي ومن عليّ منّة أخرى في سنة ١٣٢٠هـ.

ولقد وضع في خاتمة الجزء الأول جدولاً لخط السير من مصر إلى الحجاز ثم إلى مصر ثانية .. ومن خلال هذا الجدول تتعرف على المواضع التي مر بها هذا الرحالة.

ومنها: بئر البرود، وادي الليمون، البركة، الغدير، بئر عثمان، الوجه وغيرها.

ويورد في الجزء الثاني قصيدة أمير الشعراء/ أحمد شوقي رحمه الله التي يصور عليها الحالة الأمنية السيئة التي كانت عليها طرق الحج قبل العصر السعودي الزاهر وما أنعم الله به من أمن وأمان وقد أطلق شوقي على قصيدته هذه اسم (صدى الحجيج) ومنها:

ضج الحجاز وضج البيت والحرم
واستصرخت ربها في مكة الأمم
قد مسّها في حماك الضر فاقض لها
خليفة الله. أنت السيد الحكمُ
الحج ركن من الإسلام نكبره
واليوم يوشك هذا الركن ينهدم

أرى صغائر في الإسلام فاشية
تودى بأيسرها الدولات والأمم
يجيش صدري ولا يجري به قلمي
ولو جرى لبكى واستضحك القلم
والموتُ أهونُ منها، وهي دامية
إذا أساها لسانٌ للعدى وفم

وهي قصيدة طويلة ومؤثرة.

إن هذا الكتاب يشكل موسوعة فلم يدع المؤلف شاردة وواردة تخص الحرمين الشريفين أو تخص المدينتين المقدستين إلا ذكرها - لقد كان هذا الكتاب حصيلة رحلاته حين كان أميرًا للحج في أربعة مواسم وقد قام بأربع رحلات وكان خلالها رئيسا وأميرًا للحج المصري الأولى سنة ١٣١٨هـ والثانية في سنة ١٣٢٠هـ الثالثة سنة ١٣٢١هـ، والرابعة سنة ١٣٢٥هـ.

تحدث المؤلف في الرحلة الأولى عن المحمل والوصول إلى جدة والمحجر الصحي كما تطرق إلى سكان جدة ثم انتقل الحديث إلى مكة والمناسك والمشاعر كما تطرق للعادات السائدة في مكة والحياة الاجتماعية والاقتصادية، وعن المناخ والسلطة السياسية وأجور المنازل والمرتبات التي يتقاضاها الأشراف ثم تناول في حديثه حج الرسول ﷺ وجغرافية الجزيرة العربية وتاريخها وأحوالها قديما وحديثًا وتاريخ المسجد الحرام وعن السفر إلى المدينة المنورة حيث وصفها وصفاً شاملاً وعرج إلى

الحديث عن القرى المجاورة لها وفي رحلته الثانية الواقعة في سنة ١٣٢١هـ فيشتمل حديثه على السفر إلى ينبع وتاريخها ومن ثم إلى المدينة وعن نفقات الحج في سنة ١٣٢٠هـ، وعن فقراء الحجاج وفي رحلته الثالثة ١٣٢١هـ أفرد المؤلف وصفًا وحديثًا عن الطريق من جدة إلى مكة ثم أورد بعض التقارير عن بعض الحوادث التي حصلت لبعض الحجاج ثم تحدث عن حجاج الهند ثم أخذ في وصف سفر المحمل من جدة إلى مكة وعن الإبل العربية والسفر إلى المدينة المنورة وما حدث في تلك السنة من الحوادث والفتن ثم انتقل للحديث عن المياه في ينبع وأورد تقريرًا عن نفقات الحج وأثمان المأكولات وأسعار العملات وغيرها وفي الرحلة الرابعة في سنة ١٣٢٥هـ أورد تفصيلاً عن الطب والأطباء والممرضين المرافقين للحملة المصرية، وقد أورد تفصيلاً شاملاً لهذه الرحلة.

وخصص حديثًا عن العلاقات بين الحجاج المصريين وسكان الحجاز ثم الوصول إلى مكة والسفر إلى المدينة وختم المؤلف حديثه بوصف السفر إلى المدينة وحديث عن الحملة ونفقاتها والكتاب بحق سفر مفيد في أدب الرحلات والتاريخ في تلك الفترة حيث اشتمل على وصف دقيق خلال رحلة الحج وهكذا وهب الأدب الوصفي والتاريخي كتابا قيماً هو ثمار رحلاته في مادة الحج.

رحلة أحمد حسن الزيات

الزيات رحالة وأديب ومن قمم المشتغلين بالأدب والتراث العربي الإسلامي وقدم للأدب واللغة العربية خدمات جليلة يلمس المدقق في سيرته حيث اهتمامه باللغة العربية والأدب كتب وملأ صدور الصحف وصاحب أعظم ديباجة عرفها هذا العصر وإبراز فضل البيان العربي وإعجازه.

لقد كان فارسًا مغوارًا في ميادين اللغة العربية وآدابها يعرف بأسلوبه كيف يجتلب القلوب ببيانه الأدبي وضخامة ثروته في الدراسات الإسلامية جعل من أدبه سلاحًا يناضل به في سبيل عقيدته ولغته، إنه الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة وكتاب تاريخ الأدب العربي ودفاع عن البلاغة ووحي الرسالة وفي أصول الأدب، ولد سنة ١٣٠٢هـ في مصر درّس الأدب العربي في عدد من الجامعات العربية وانتخب عضوًا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وتولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر توفي في القاهرة سنة ١٣٨٨هـ، لقد صاغ رحلته ومشاعره في الحج ووصف ذلك وصفا أدبيًا بليغًا حيث يقول:

أذن هلال ذي الحجة في المسلمين بالحج فأتوا بيت الله من كل فج عميق ومن كل قطر سحيق رجالاً وعلى كل ضامر، وفوق

كل عائم وطائر، ليشهدوا المؤتمر الإسلامي الإلهي الذي فرض الله شهوده على كل مسلم مرة في العمر ليؤلف القلوب في ذاته، ويؤاخي الشعوب في نسب الحق، ويستعرض علائق الناس في كل عام فيوشجها بالإحسان، ويوثقها بالتضامن، وينضح من منابعه الأولى على الآمال الذاوية فتنتصر، وعلى العزائم الخابية فتذكوا، ثم يجمع الشكاوى المختلفة من شفاه المنكوبين بالسياسة المادية والمدنية الآلية والمطامع الاستعمارية، فيؤلف منها دعاء واحدًا تجأر به النفوس المظلومة.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى شهود هذا المؤتمر، لقد طالما حصرهم المستعمرون في أوطانهم المغصوبة ثم قطعوا بينهم الأسباب، وحرموا عليهم التواصل، وفصلوا حاضرهم عن الماضي الملهم، والمستقبل الواعد بطمس التاريخ، وقتل اللغة، وإطفاء الدين، فلم تكن لهم جمعة إلا في موسم الحج لو خلوا بينهم وبينه، ويسروا لهم اللقاء فيه، ولكن الحوائل كانت تحول في العلن، والحبائل كانت تنصب في السر، فلم يكن للحج تلك الحكمة التي أرادها الله من شرعه، ولا للمسلمين تلك الرادة التي يردها عليهم من نفعه.

كان ذلك والشمل شتيت، والرأي مختلف، والقوة مبعثرة، والوطن محتل، والإدارة أجنبية، فلما ذهب الاستعمار، وخضع البغاة، وجلا الدخيل، وأصبح الحكم خالصًا للإسلام في الدول العربية، ولم يعد يفصل بين المسلم وأخيه من المغرب إلى المشرق إلا تخوم جغرافية ورسوم سياسية لا تقطع قلبًا عن قلب،

ولا تمنع يدًا عن يد، ولا تحبس لسانًا عن لسان، ولا تحول بين أخوة النسب وإخوان العقيدة أن يتلاقوا في ميقات الله على أم القرى ليذكروا اسمه جلّ وعز في أيام معلومات على ما أفضل عليهم من نعمة الإسلام، ووحدة الإيمان، وإجابة إبراهيم، وتفديه إسماعيل، وبعثة المصطفى خاتم الرسول وفاتح العالم الجديد.

ويفيض في الحديث عن الحج ويدعو إلى التأمل في ذلك حيث يتميز أسلوبه بالدقة وحب الوصف الأدبي حيث يقول:

إن الحج والزكاة هما الركنان الاجتماعيان من أركان الدين، يقوم عليهما الأمر بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة، كما يقوم على الثلاثة الأركان الأخرى الأمر بين المرء وربه وبين المرء وقلبه، فالزكاة تقيم نظام المجتمع على التعاطف والرحمة، والحج يقيمه على التعارف والألفة، فيحقق الأول معنى الإخاء بنفي العقوق، ويحقق الآخر معنى المساواة بمحو الفروق، والإخاء والمساواة شعار الإسلام وقاعدة السلام، وملاك الحرية، ومعنى المدنية الحق، وروح الديمقراطية الصحيحة.

ولقد ثارت في نفس الأستاذ الزيات الذكريات حيث يغمره شعور ديني يهز القلب ويخفق له الفؤاد حيث يقول:

كان الحج ولا يزال مطهر الدنيا، يزيل عن جوهرها أوزار الشهوات وأوضار المادة.

وكان الحج ولا يزال ينبوع السلامة تبرد عليه الأكباد الصادية وترفه لديه الأعصاب المرهقة.

وكان الحج ولا يزال مثابة الأمن، تأنس فيه الروح إلى موطن الإلهام، ويسكن الوجدان إلى منشأ العقيدة، وينبسط الشعور بذلك الإشراق الإلهي في هذه الأرض السماوية.

وفي تصوير أدبي يقول:

وكان الحج ولا يزال موعد المسلمين في أقطار الأرض على عرفات يتصافون على الوداد، ويتآلفون على البعاد، ويقفون سواسية أمام الله حاسري الرؤوس، خاشعي النفوس، يرفعون إليه دعوات واحدة في كلمات واحدة، تصعد بها الأنفاس المضطربة المؤمنة تصعد البخور من مجامر الطيب، أو العطور من نوافح الروض، هناك يقف المسلمون في هذا الحشر الدنيوي حيث وقف صاحب الرسالة وحواريو النبوة وخلفاء الدعوة وأمراء العرب وملوك الإسلام وملايين الحجيج من مختلف الألوان والألسن، فيمزجون الذكرى بالذكر، ويصلون النظر بالفكر، ويذكرون في هذه البقعة المحدودة وفي تلك الساعة الموعودة، كيف اتصلت هنا السماء بالأرض، ونزل الدين على الدنيا، ونبتت من هذه الصحراء الجديبة جنات الشرق والغرب وثمرات العقل والقلب، وبينات الهدى والسكينة.

وفي هذا القبض من الشعور يسترسل في الحديث قائلاً:

إن في كل بقعة من بقاع الحجاز أثرًا للفداء ورمزًا للبطولة، فالحج إليها إيحاء بالعزة، وحفز إلى السمو، وحث على التحرر، وتذكير بالوحدة، هنا غار حراء مهبط الوحي، وهنا دار الأرقم

رمز التضحية، وهنا غار ثور منشأ المجد، وهذا هو البيت الذي احتبى بفنائه أبو بكر وعمر وعلي وعمرو وسعد وخالد، والغطاريف من بني هاشم وبني أمية. وتلك هي البطحاء التي درج على رمالها قواد العالم وهداة الخليقة!

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عِمرَان: ٩٧] وشرط الاستطاعة قد تحقق للكثير في هذا العهد لعموم الرخاء وحصول الأمن، فأنت تستطيع بالمال اليسير وفي الزمن القصير أن تحج على الباخرة أو السيارة أو الطائرة دون أن تعرض حياتك للموت، وثروتك للنهب، وصحتك للمرض.

ويقول في خاتمة حديثه، مهيبا بكل مسلم إلى انتهاز الفرصة إذا سنحت لهم لأداء فريضة الحج لاسيما وقد تيسرت سبل الوصول والراحة.

لقد كان الحج لرهقه الشديد وجهاده الجاهد يكاد يكون مقصورًا على الطبقات الخشنة من الزراع والصناع والعمال، أما الناعمون المترفون من ذوي الرأي وأصحاب الزعامة فما كانوا يقدمون عليه ولا يفكرون فيه، فظل جدواه على المسلمين ضئيلاً لا يتعدى الحدود الخاصة من قضاء المناسك وأداء الزيارة.

فماذا يمنع رؤساء العرب وزعماء المسلمين أن يتوافوا على ميعاد الله في أرض رسوله ليحققوا حكمة الحج بالتشاور في أمور دينهم وشؤون دنياهم على النية الصادقة والرأي الجامع والغرض المشترك؟

إن في حجهم البيت زمنًا بعد زمن إعلاء لشأن الملة، وإغراء بأداء الفريضة، وسعيًا لجمع الكلمة، وسبيلاً إلى عموم الوحدة، وإن البيت العتيق الذي انبثق منه النور ونزل من سمائه الفرقان وانتظم عليه الشمل لا يزال منارًا للآمة ومثاراً للهمة، ومشرق الأمل الباسم بالعصر الجديد والمستقبل السعيد.

وجملة القول:

فلقد وصف الحج وصفاً حيًا أدبياً تجلى في أسلوبه جمال الصياغة وحسن الديباجة وتركيز الأفكار حيث تتساوق الجمل في بيانه وتنثال العبارات أمامه في هذا الوصف البديع الجميل ولا غرو فهو من أرباب البلاغة الذين يعرفون كيف يكتبون ويصورون مشاعرهم ويجسدون انطباعاتهم في هذا الموقف العظيم.

إن القدرة البيانية تتجلى وتبرز في هذا الموقف العظيم وما له من تأثير على القلوب والعواطف واشتياق القارئ إلى متابعته في هذه الوقفة الروحية فهو يصور الموقف في الحج ويفيض في التدليل على حاجة المسلمين إلى التعاون والاستفادة من رحلة الحج ويفيض في التدليل على حاجة المسلمين إلى التعاون والاستفادة من رحلة الحج ويقدم ذلك في حلة بهية وديباجة بديعة وأصالة أدبية وبالجملة فإن الحديث عن الزيات وأدب الرحالة في الحج عذب ممتع مستملح لا يمل، وهكذا فإن أدب الرحلات من أمتع الفنون الأدبية وأقربها إلى النفس لما في الرحلة من صور أدبية ومواقف رائعة وطرائف فائقة وحكايات شائقة ومشاهد

وأحداث ماتعة - وهو في رحلته وتصويره يكتب عن ثقافة ويعبر عن تجربة ومشهد عظيم وتميز بالدقة في الوصف الأدبي إلى جانب الدقة في الرؤية ولا نبالغ إذا قلنا إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربي حيث ارتبطت الرحلة بالصورة الأدبية والبحث والاكتشاف والوصف وغير ذلك من المقومات والأبعاد المتميزة.

رحلة إبراهيم المازني ١٣٥٤هـ

• له كتاب يسمى "رحلة الحجاز يشتمل على خواطر أدبية ووصف لرحلته للحجاز.

.. لأداء الحج وذكر الأماكن التي مر بها وتحدث المازني عن العادات والتقاليد السائدة في الأكل واللباس ووصف شوارع جدة وسكانها ثم غادرها إلى مكة المكرمة حيث تحدث عن الإحرام وعن البيت الحرام وعن دخوله الكعبة المشرفة كما أورد مقابلته مع نائب الملك الأمير فيصل والكتاب عموماً من كتب الرحلات الساخرة، ومن سخريته ما أورده تعليقًا عن إطالة بعض السكان لشعورهم وترجيلها وكحل عيونهم إذ كان يتحدث إلى أحدهم على أنه امرأة.

فهو تسجيل لتلك الرحلة وما شاهده في طريقه وعن المناطق التي زارها وما تحفل به من دور وقصور وأودية ومساجد وآثار ومشاهد روحانية ولقد عرف الأديب إبراهيم عبدالقادر المازني الذي ولد عام ١٣٠٨هـ وتوفي عام ١٣٦٨هـ بأنه من رواد الأدب وأعلامه وقد كان قمة من قممه واقترن اسمه مع الرواد كالعقاد وطه حسين وعبدالرحمن شكري وأحمد أمين وغيرهم من الأدباء الكبار الذين كان لهم دور في الحياة الأدبية وتألقوا في فتراته

وأضاؤا السبل لغيره من الأدباء ورسموا للكتّاب والأدباء جوانب وملامح الأسلوب الأدبي في مختلف الموضوعات الاجتماعية والفكرية ومن مجموعة قصصه ومقالاته الساخرة يمكن أن نقف على مقومات شخصيته والبيئة التي نشأ فيها وانعكاس المجتمع بقيمه وتطوراته على نفسه وموقفه من الأمور التي كانت تقع له ولقد كان المازني شاعرًا يجسد في شعره انفعالاته ويصور همومه وأحزانه وذكرياته وامتاز شعره بجزالة اللفظ ونصاعة الفكرة جمع بين الثقافة العربية والتراثية وبين الثقافة الغربية وكان زميلاه شكري والعقاد من أتباع المدرسة الرومانسية ومن أصحاب مدرسة الديوان وكان بينهم وبين مدرسة شوقي وحافظ معارك نقدية حيث أصدر كتاباً بعنوان: «شعر الحافظ» كما أصدر العقاد كتاب: "الديوان" حيث نقدا فيه حافظًا وشوقياً وتعرض بعد ذلك في دراسة نقدية لشكري والمنفلوطي ولقد تميز أسلوبه بالسخرية والفكاهة التي شاعت في مقالاته وله فلسفة خاصة في الحياة ولقد عمل في الصحافة فترة من الزمن حيث كتب في الأهرام والهلال والبلاغ والرسالة وغيرها من الصحف والمجلات وكان يقدم تجارب حياته اليومية في قصصه التي جمعها بعد نشرها في الصحف في كتب ويصفه الناقد محمد مندور بأنه كان رائدًا للتجديد الأدبي بعامة والشعر بخاصة في النصف الأول من هذا القرن.

وقال عنه أحمد المازني: كان أديبًا عظيمًا وصاحب مدرسة ومذهب في الأدب وقال العقاد: لا أعرف في أدب المشرق والمغرب نظيرًا للمازني في إجادته لأدب التراجم فهو يترجم النثر

في أسلوب كأسلوب الجاحظ ويترجم الشعر في أسلوب كأسلوب الجاحظ.

وقد أضفى على ترجماته من حسه وروحه وطلاوته وموسيقاته ما جعل الناس يقبلون بشوق وشغف عليها واتسم إنتاجه بالخصوبة والتنوع ولقد حذا في شعره فتأثر بالشريف الرضى وابن الرومي وبشار وغيرهم من الشعراء العباسيين وكان يكثر من الشكوى والضجر والتألم والوحدة والحرمان كما جاء في إحدى قصائده إذ يقول:

خيم الهم على صدري يا صديقي
وبدت في لحظة الليل الهموم

فبرع في هذه الجوانب من الشعر أكثر من براعته في أغراض الشعر الأخرى وصدرت له طائفة من الكتب في الأدب والرحلات والقصة والراوية وفي قصصه تصوير العواطف بأسلوب حساس ينبئ عن شعور عميق وعاطفة جياشة وتصوير لمظاهر الطبيعة وخلجات الوجدان والانفعال العاطفي ومؤلفه هذا عبارة عن خواطر أدبية لرحلته إلى بيت الله الحرام وتأدية فريضة الحج.

إن كتبه تمثل مرحلة من مراحل الحياة الأدبية وصفحة من صفحات الفكر الأدبي ولبعض الأحداث والذكريات الأدبية وما فيها من فلسفة ساخرة وخيال شعري وهي تمثل عصارة ذهنه وعطائه وبحثه في نقد الحياة والأدب والشعر.

ونختم القول بما قاله عنه صديقه العقاد في حفل التأبين الذي

أقيم له في مجمع اللغة العربية كان منذ صغره أخلص الأدباء للشعر والأدب والكتابة ورسم صورة قلمية تنبض بنبض حياته في مسراتها وأحزانها وقوتها وضعفها «وإن كتاب رحلة الحجاز يتجلى فيه أسلوبه الوصف المعبر يرسم بقلمه ويتفنن في صوره وكثيرًا ما يعمد إلى الأسلوب القصصي ويستخدم الحوار وفي رحلته هذه لم يقدم معلومات بل قصد إلى إمتاع القارئ يضاف إلى ذلك المقارنة بين الماضي العريق والحاضر المزدهر، وإن مؤلفه هذا عبارة عن خواطر أدبية ووصف لرحلته لأداء فريضة الحج والمشاركة في احتفالات مبايعة الملك عبدالعزيز حيث تحدث بالتفصيل منذ ركب الباخرة من السويس إلى ينبع ومنها إلى جدة ثم إلى مكة حيث وصف ينبع وسوقها وقدر عدد سكانها بعشرة آلاف نسمة وتحدث عن عدد الجند فيها ثم وصف رابغ وتحدث عن جدة حيث نزل هو ورفاقه من المدعوين عند بعض وجهاء المدينة مثل محمد نصيف والشيخ الفضل وحسين العويني تحدث عن جدة وسكانها، وبالجملة فقد اشتملت رحلته على وصف دقيق وتصوير بديع وأسلوب أدبي ساخر خلال رحلة الحج التي قام بها ومشاهدة قوافل الحجيج وتنقلهم بين المشاعر وخصائص تلك الأيام المباركة في هذه الرحاب الطاهرة. فكان الحج مؤثرا فعالاً فيما سطره وكتبه، وكان الفضل فيه لذلك الركن الإسلامي العظم الحج.

رحلة السيد محي الدين رضا ١٣٥٣هـ

"رحلتي إلى الحجاز"

هذه الرحلة عنوان كتاب يعد في أدب الرحلات ويقع في ١٥٥ صفحة، من القطع المتوسط.

أما مؤلف الكتاب فهو السيد محي الدين رضا، يعمل محررًا في جريدة المقطم المصرية، وطبع هذا الكتاب بمطبعة المنار عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م.

أما الكتاب فهو عبارة عن تدوين لوقائع رحلة قام بها إلى الحجاز ولتأدية فريضة الحج عام ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م، وهو يندرج ضمن كتب الرحلات التي دونها كثير ممن زاروا الأرضي المقدسة لتأدية شعيرة الحج.

وقام خلالها بتسجيل رحلته وملاحظاته الشخصية ووصفه لمكة المكرمة والمدينة المنورة والمواطن المقدسة وتاريخ البلد الحرام.

وقبل أن يطبع رحلته في كتاب نشرها في مقالات في جريدتي المقطم والجهاد يقول في المقدمة عن كتابه:

«أما بعد فهذه فصول كتبت بعضها في الصحف قبل الرحلة والحج والزيارة وتمنيت على الله أن يسهل لي وسائل الحج، فكان كرمه عظيمًا بأن سهل لي الحج والزيارة، وكتبت بعضها في أثناء

الرحلة، وبعضها بعد العودة، وكلها كتبت على الطريقة الصحفية من غير تعمق في البحث والدرس».

لم بين المؤلف كتابه على أبواب وفصول كالكتب المنهجية، وإنما رتب معلوماته وفق عناوين، وكل عنوان يمثل مقالة صحفية، وأشار في نهاية كل مقالة إلى تاريخ نشرها، والصحيفة التي نشرت فيها.

ويمكن تقسيم الكتاب إلى أربعة أقسام:

تناول المؤلف في القسم الأول: رحلته إلى الحج من مصر، والاستعدادات التي سبقت الرحلة، ثم قضاء مناسك الحج، واستغرق ذلك من الكتاب (٤٢ صفحة).

وتناول في القسم الثاني: لقاء بالملك عبدالعزيز، وأدرج ذلك تحت عنوان كبير «في حضرة الملك السعودي» وقد التقى به المؤلف في مكة، وتحدث عن شجاعة الملك وموقفه في عرفات، وتحدث عن الحجاج عامة وعن المصريين خاصة.

وتحدث في القسم الثالث عن الأمير سعود «الملك سعود» والأمير فيصل النائب العام في الحجاز «الملك فيصل» ثم لقائه مع الأمير عبدالله الفيصل.

وتناول في القسم الأخير: الذي وضعه تحت عنوان (في طريق الوطن) مشاهداته في الحجاز، وعن بعض الشخصيات التي قابلها كفؤاد حمزة، وعبدالله السليمان، وبزيارته المدينة المنورة، وبعض الملحوظات التي يعلقها على ما يشاهده في أثناء إقامته وترحاله

وهكذا اجتذب الحج والمشاعر المقدسة عددًا لا يحصى من الأدباء، والكتاب وخلَّفوا وراءهم أدباً وفكرًا وتاريخاً ومجموعة من الكتب الجيدة.

وقد كان أسلوب صاحب هذه الرحلة يغلب عليه طابع الأسلوب الصحفي، ويندرج ضمن كتب أدب الرحلات وما كتبه يعتبر من الكتابات الشاملة التي تتمحور في مجملها حول الحج والعمرة والزيارة وما يتعلق بذلك من طرق ومواصلات ومشاهدات وغير ذلك من شؤون الحج والأمور التاريخية والاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر مما يعطي فكرة واضحة عن تطور الأحوال والأوضاع في ذلك الوقت.

رحلة محمد حسين هيكل ١٩٣٦م

لقد خرج من السويس عام ١٠٣٦م حيث وصل إلى جدة. وهو أحد أعلام الأدب العربي ولد في مصر سنة ١٨٨٨م، وتوفي سنة ١٩٥٦، وله عدة مؤلفات منها محمد رسول الله ﷺ، وفي كتابه منزل الوحي وهي رحلته القيمة إلى الحج أطلق فيها لقلمه العنان وهو فيها يسجل رؤاه ويستهل حديثه قائلاً:

ثلاثمائة مليون من المسلمين أو يزيدون تهفو قلوبهم جميعًا إلى منزل الوحي ويهزهم الحنين إليه، يولون وجوههم شطره خمس مرات كل يوم أينما أقاموا الصلاة، وإلى البيت العتيق تهوى أفئدتهم رغبة في أداء فريضة الحج، وإلى مسجد الرسول النبي العربي يحثهم الشوق ابتغاء زيارته. ومنهم من يود لو يقف عند كل مكان وقف فيه الرسول ليتمتع ما وسعه المتاع بما توحيه هذه المواقف من جلال روحي وخُلقي وإنساني يأخذ بمجامع النفس.

ومنهم من يدعوه تطلُّعه العلمي إلى البحث عن أسرار هذه البيئة العربية التي اختارها الله فجعل منها منزل الوحي بالتوحيد إلى محمد عبدالله ورسوله في أكثر صور التوحيد سموًا وصفاء: ماذا كانت قبل الرسالة؟ وكيف كانت حياة الرسول؟ وإلام صارت على توالي العصور؟

بلاد ذلك مبلغها من عناية العالم بها جديرة بأن تتعلق بها أفئدة الكتاب والشعراء والمؤرخين والعلماء، تتلمس أسرارها وتستلهم من روحها. وهي لا ريب وقد استوقفت منهم كثيرين من أهل الأمم المختلفة، بل لقد استوقفت كثيرين من غير المسلمين في مختلف العصور وفي عصرنا الحاضر. على أن ما تحتفظ به من تراث دائم الجدّة، بالغ غاية الدقة في تشعبه خلال التاريخ واتصاله بأرجاء العالم المختلفة. قد حال بين طائفة من الأدباء والشعراء والباحثين وبين التنقيب في كنوز هذا التراث؛ وذلك لما لها في نفس الباحثين المسلمين من قداسة روحية تصدهم عن الغوص فيها إلى غاية أعماقها. ويأخذ يقص رحلته قائلاً لقد تحركت الباخرة فتركها المودّعون بعد أن ألقوا على المسافرين كلمات الأمل الطيب وحسن الرجاء في حج مقبول وعود حميد، انتقل المسافرون إلى ناحية الشاطئ يحيّون مودعيهم التحية الأخيرة قبل السفر، فإذا جمع منه ألوف الناس على رصيف المرسى لم يلبثوا حين سمعوا الموسيقي تصدح أن تعالى في الجو هتفهم للإسلام وللحج وللوطن هتافًا حارًا صادرًا من حبات القلوب ومن أعماق الأفئدة، ما أبلغ أثر هذا المنظر في النفس! فهذي الألوف الذين جاءوا لتحية المسافرين إلى بيت الله لا يعرف أكثرهم أحدًا من هؤلاء المسافرين، وإنما جاءوا يودعون إخوانهم في الدين بقلوب عامرة بالله. وهكذا فكم آثار الحج من مشاعر الأدباء ففاضوا وجدانا . . . فصوروا في رحلاته الحج ومشاهده وأماكنه وطريق الرحلة فها هو يصف تحرك الباخرة قائلا :

وتحركت الباخرة، وابتعدت إلى ناحيتها الأخرى، اشهد أمواج خليج السويس، وأعود بتفكيري إلى الحجاز وإلى الحج وإلى ألوف المسلمين، وشُغلت بخليج السويس ومياهه وأمواجه حتى انحدرت الشمس إلى مغيبها.

وأستيقظُ مع الصبح واستنشقت هواء البحر، ما أرقّه وأعذبه وأصحّه!. وشكرت لله أنعمه وأنا في خلوتي المكبرة فوق سطح الباخرة أشهد شواطئ خليج السويس التي لم تزل قريبة منها. وجعلت من ذكر الله وتلبية دعائه أنيسي، وتذكرت أن من أوتوا مثل حظي فداولوا في أسابيع بين النهل من ورد باريس وعلمها ومتاحفها ومجتمعاتها الحافلة بأسباب الأنس، وورد المنهل العذب للحياة الروحية بمكة عند بيت الله الحرام وبالمدينة المنورة.

وعندما لاحت له جدة تجول في رحابها أخذ في وصف معالمها ثم استرسل في وصف طريق الرحلة إلى مكة المكرمة قائلاً:

ثم تخطينا جمرك جدة إلى الميدان الفسيح أمامه، ووقفنا إلى جانب سياراتنا ننتظر مرور متاعنا بتفتيش الجمرك، ولم يطل انتظارنا، وأخذ سالكًا طريق الحج فوصف ذلك الطريق قائلاً:

ولم يطل مقامنا به حتى نزلنا إلى السيارة نركبها إلى مكة، وانطلقت السيارة متمهلة في طرق هذا البلد حتى وقفت عند مخفر الشرطة. ونزل السائق منها في ردائه البدوي الخشن يؤشر من

المخفر على (الكوشان)، والكوشان جواز السفر.

وتابعت السيارة طريقها إلى خارج جدة وإلى ما رواءها من فضاء. وكان الليل قد اشتمل هذه الأرجاء جميعًا في صمته ورقة نسيمه. وأجلت بصري فيما حولي وجعلت ألتمس صورة بلاد العرب المرتسمة في دخيلة نفسي، فإذا ضوء القمر يسعد الليل بلجته ويرسل تحيّة عذبة إلى صمت هذه الأودية التي قامت كثبان الرمل على جانبيها. وارتفعت جبال يحجب سقف السيارة عنّا قننها. لم يعصمني لباس الإحرام من البرد فاتقيته متلفعا بردائي ولم ألبس مخيطًا. وكأنما انتقلت إلينا عدوى الصمت المحيط بنا فأمعنا في الصمت، فلم تنفرج شفاهنا عن ألفاظ غير ألفاظ التلبية.

وبَعُدت السيارة عن جدة منطلقة في البيداء وحيدة لا يسعدها أنيس. على أن لم نلبث أن مررنا بقافلة من الجمال تسير على هون متجهة إلى حيث نتجه. وخلّفنا وراءنا، ثم أدركنا قافلة من الحُمُر أسرع منها سيرًا. وتخطينا قافلة الحمر، ثم إذا بنا نسمع صوتا يقترب منا ويردد الليل صداه في خشوع وإكبار؛ أولئك جماعة من الذين لم يجدوا دابة تحملهم فساروا على أقدامهم متوجهين إلى بيت الله بقلوبهم، وإلى رب البيت بدعائهم: لبيك اللهم لبيك. ومررنا بهؤلاء وصوتهم يدخل إلى قلوبنا بغير استئذان فيملؤها رهبة ومهابة. وكلما فتنا واحدة من هذه القوافل أدركنا أخرى، وكلهم في إحرامهم يشتملهم ضوء القمر في لجّته فيزيد بياضهم نصوعًا. والأودية تحيط بها كثبان الرمل وتحجبها الجبال عما وراءها تردد تلبية الملبين من أهل هذه القوافل وقد اتشحت من جلال هذا

النداء المنبعث من قلوب كلها الإيمان والإذعان بما ملأها خضوعًا وإذعانًا.

كم سمعت هذه الأرض المحيطة بي من أصوات هذا النداء خلال مئات سنين خلت منذ بعث الله محمدًا نبيا وهادياً ورسولاً. أصوات لا يحصيها العد ولا يتناولها الحصر. وما يحدث في الطبيعة لا ينمحي أثره. إذن فقد ارتسمت هذه الأصوات هاهنا ونقشت على سفوح هذه الجبال. تلبية الملايين وألوف مرتفعة إلى بارئها في إيمان يدك الجبال ويزعزع الرواسي ويخر له كل ما في الوجود ساجدًا، لأنه أسمى من كل ما في الوجود، كانت أم السلم أولَ محطة مررنا بها بعد جدة.

ثم أخذ يصور حالة الطريق قبل هذه النهضة المباركة التي فاقت كل التصورات وتخطت كل الإمكانات، حيث شهد الحرمان الشريفان توسعات وخدمات كبيرة على مر السنين وتزويدهما بمختلف أسباب الراحة ليؤدي ضيوف الرحمن مناسك حجهم في يسر وسهولة وراحة وأمن واطمئنان.

ويواصل حديثه قائلاً:

وعاودنا سيرنا نمرّ بمثل القوافل التي مررنا بها، فنجتازها مسرعين حيث كان الطريق صالحاً، مبطئين كلما أمسكت الرمال عجلات السيارة فحالت بينها وبين الإسراع. وبلغ من إمساك الرمال السيارة في بعض الأحايين أن كانت تقفها عن الحركة، وذلك حين تبتلع عجلاتها ويجعل دورانها عبثًا لا طائل وراءه.

ولطالما وجدنا في هذه الحالات عونًا من رجال القوافل إذ كانوا يسارعون إلى تلبية رجائنا فيرفعون السيارة ويدفعونها لتعاود سيرها.

وفي المسجد الحرام فكرت في هذا البيت ومواقف للرسول وطوافه بالبيت وطواف مائة ألف من المسلمين وراءه وهو ما جاوز الستين يسرع في أشواط الطواف الأولى والمسلمون يسرعون إسراعه، وهو يذكر وهم يذكرون يوم طاف في عُمْرة القضاء ومعه ألفان، وهو يسرع ويقول لأصحابه: «اللهم ارحم امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة». والمشركون من أهل مكة ينظرون من أعلى الجبال إلى أولئك الذين زعموهم ضعافًا أرهقتهم يثرب وأرهقتهم الحروب فإذا هم البأس والقوة والعزيمة الصادقة بإذن الله.

كان أهل مكة ينظرون إلى المسلمين في أثناء طوافهم وراء نبيهم في عمرة القضاء، أما في حِجّة الوداع فكان أهل مكة قد أسلموا وقد أصبحوا مع سائر العرب بنعمة الله إخوانا، وكانوا يطوفون بالبيت مع الطائفين، ويذكرون الله مع الذاكرين، وقد هداهم الله إلى الدين القيم، وأنجاهم من ضلال الشرك ومذلة الوثنية.

ألا إن هذا البيت العتيق ليطوي من أسرار التاريخ وعبره على قَدْر يعادل ما يستكن في جوفه هيكلا للتوحد من مهابة وجلال. وإن هذا الجو الذي يبدو صامتًا حوله لمليء من أصداء العبادة كلها مؤمنة منادية نداءً يسمعه أهلها وأهل السماء جميعًا: لا إله إلا الله والله أكبر.

وآن لي أن أهبط من الكعبة إلى المطاف وإلى المسجد، فودّعت السادن وودعني بكلمات كلها الرق والظرف. وقصدت مذ هبطت إلى حجر إسماعيل وإلى مقام إبراهيم فصليت فيهما. وغادرت المسجد الحرام بعد ذلك ممتلئ القلب روعةً وإكبارًا وتعظيمًا، وكل ما حولي يدوِّي في أذني بذكر الله والتسبيح بحمده: ربنا لك الحمد.

ثم أخذ يفيض في الحديث عن الجمعة في الحرم قائلاً:

المسجد الحرام مثابة المسلمين الذين يَفِدون إلى مكة من أقطار الأرض جميعًا في أشهر الحج وهو مثابتهم ما أقاموا بأم القرى: يفدون إليه لصلاة الفجر وعند الظهيرة، ويعودون إليه لصلواتهم الأخرى وللطواف بالبيت كلما هوت نفوسهم إلى التطوّف به. وهم يقضون فيه الساعات الطوال يتحدّثون أثناء النهار ويستمعون إلى جماعة من الفقهاء يحدّثون في الإسلام ويفقهونهم في الدين قِطعًا من الليل، وإنّ منهم لم يقضي فيه يومه يجاور البيت، ومنهم من ينصرف نهاره إلى شؤون الحياة، فإذا أقبل الظلام قضى بالمسجد ليله يقوم إلا قليلاً، يذكر الله كثيرًا، ولا ينال من النوم إلا القدر الذي يكفيه لسعي النهار وتهجد الليل.

لذلك قلّ أن يصلي بغير المسجد الحرام أحد من المقيمين بمكة على كثرة مساجدها. وما رأيت أحدًا قام بهذه المساجد مصليًا على كثرة مروري بها ووقوفي عندها؛ ولا تقام بها صلاة

الجمعة مطلقًا. ويسجل خواطره عن صلاة الجمعة في الحرم قائلاً:

وصلاة الجمعة بالحرم من أروع مظاهر الإيمان في الجماعة الإسلامية؛ هذا الإيمان القوي في بساطة، البالغ في قوته، الذي يجمع بين الحرية والنظام جمعًا لم أقف على ما يقرب من رفعته في أي من الملل والنحل الحديثة أو القديمة التي اطلعت عليها. ولقد رأيت في أسفاري الكثيرة ممن يدين أهلها بغير الإسلام من شعائر العبادة ومن نظم الجماعة ما فيه مهابة ورهبة ونظام، ولقد حضرت صلاة الجمعة في بلاد إسلامية شتّى، ولكني لم أر في شيء من ذلك ما قد يقرب في جلال مظهره وقوة روعته، وفي جمعه بين الحرية والنظام، وبين الاعتداد بالذات والإسلام لله، مما رأيت في صلاة الجمعة بالمسجد الحرام، ولم يطبع شيء من ذلك كله من الأثر العميق في نفسي ما طبعته صلاة الجمعة بالمسجد الحرام من أثر بالغ في عمقه؛ فما أفتأ كلما أذكره أشعر به متغلغلا في أطواء روحي، يسمو بها إلى ذروة الإيمان ويرقى بها ما فوق مستوى الإنسانية الذي نألفه.

قصدت إلى المسجد ومعي صاحبي ودخلنا وما يزال بيننا وبين أذان الظهر فسحة من الوقت تزيد على ربع الساعة؛ مع ذلك وجدنا الأماكن الظليلة حينما دخلنا صحن المسجد قد اكتظت كلها بالذي سبقونا إليها، وبقي صحن المسجد خاليًا إلا من حمام الحرم. وسرنا نتخطى الصفوف نلتمس لنا فرجةً للصلاة، فلا تقع العين بين الجالسين على موضع لواقف. ثم رأيت صاحبي وقف

على قوم وتحدث إليهم، ثم أشار إليّ فدنوت منه، فتفسح القوم حتى استطعت أن أقف بينهم، وانطلق هو بين الصفوف يلتمس لنفسه مكاناً آخر. وصليت ركعتين ثم جلست ما استطعت أن أجلس، وسرّحت الطرف فيما حولي. وأسرع إليّ جار عن يميني وجار عن يساري فمدّ كل منهما يده مسلِّما عليّ، بعد أن أتممت ركعتي، سلام تحية فيه مودة وفيه إخاء. وتفرّست أثناء السلام في وجه كل منهما فلم تهدني سيما هما إلى جنسيته، ولا دلتني على شيء إلا أنه ليس من أهل هذه البلاد. وعدت أسرح طرفي ناحية صحن المسجد فإذا الناس يفدون إليه في سيل دافق، يحاول السابقون منهم أن يكون مجلس أدنى إلى منبر الخطيب أو إلى أحد المكبريات حول الكعبة. وامتلأ الصحن في دقائق حتى لم يبق موضع لواقف؛ وجعل الوافدون إليه يتخطون صفوفه يلتمسون لهم مكاناً كما كنا نتخطى الصفوف في ظلال القباب نلتمس لنا مكاناً، ومنهم إذا تهيأ له المكان جلس فيه، ومنهم من يؤدي للمسجد تحيته بصلاة ركعتين. ولما لم يبق بالمسجد موضع أقام الناس خارجه يأتمون لصلاة الجمعة، فما أعظمه من مشهد عظيم.

ثم أخذ بعد ذلك يتحدث عن وقفة عرفات ووصف هذا الموقف العظيم قائلاً: أصبحت يوم الاثنين الثامن من ذي الحجة، يوم التروية، أفكر في عرفات ومنى والذهاب إليها محرمًا والمبيت بها، وقضاء ما يجب من شعائر الحج فيها والنزول عنها إلى المشعر الحرام بالمزدلفة، وإلى الصخرات بمنى لأتمم بعد ذلك طواف الحج حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة، فأكون قد

قضيت الفرض الخامس من فرائض الدين الحنيف، ولا يفكر الناس اليوم في التروية، وهي جلبُ الماء معهم إلى عرفة ليستقوا منه يوم وقوفهم بها. وهم لا يفكرون في التروية منذ يسرت زبيدة لهم من الماء ما يريدون.

وشتان بين ما اشتملني أثناء التفكير في الإحرام لعرفات من نعيم وغبطة، وما كنت أخافه قبل مغادرة مصر من أثر الإحرام وقضاء المناسك على صحتي. لقد اشتملني من فجر ذلك اليوم رضا عن الحياة وعن نفسي، وشعرت بروحي فرحة وبقلبي مطمئنًا. أقبلت منذ بكرة الصباح أعد لباس الإحرام وما يقتضيه المبيت تحت الخيام، منشرح الصدر لكل ما أنصع من ذلك، عميق الإحساس بجلال هذه الفريضة التي يسر الله لي أداءها، موقنا أني سأشهد أثناءها من آيات حكمته فيها ما يزيد كل مؤمن إيماناً وتثبيتا. وصورت أمام ذهني هذا الجبل المقدس وقمته الفسيحة واجتماع عشرات الألوف من المسلمين فوقه مهللين ملبين متوجهين إلى الله بقلوب طهرها صدق الإخلاص من ماضي حوباتها، وهداها الاجتماع المقدس بإخوانها المؤمنين سبيل الخير، وفتح أمامها أبواب حياة جديدة تسمو خلالها بفضل إيمانها وصدق توجهها إلى الدرجات العلا من مراتب الإنسانية السامية، مراتب البررة والمقربين والأتقياء الصالحين الذين يخشون الله ولا يخشون غيره، ولا يخافون في الحق والخير والبر لومة لائم.

ولقد طبع هذا المنظر أعمق الأثر في نفسه حيث تناوله قائلاً: فهذه القوافل من المشاة والركبان تقصد إلى غاية واحدة وترجو في

ربها الرجاء الأسمى. وهم جميعًا سواسية في اتجاههم، سواسية في إيمانهم، سواسية في تفكيرهم. وهم جميعًا قد نسوا كل شيء إلا هذه الغاية الروحية السامية التي تندفع نحوها جسومهم، وتطير إليها جوانحهم، وتزداد امتلاء بها أفئدتهم وقلوبهم. كلما ازدادوا قربا من مهبط الوحي ومن بيت الله، ليس يذكر أحدهم ما له من ثروة أو جاه أو ولد وإنما يذكر أنه وهؤلاء المسافرين معه إخوة في الله، وأنهم جميعًا قد أتوا قاصدين بيته، ملبين داعيه، وهؤلاء المسافرين معه إخوة في الله، وأنهم جميعًا قد أتوا قاصدين بيته، ملبين داعيه، ليشهدوا على أنفسهم، وليطهروا بين يديه ما قدمت أيديهم، وليبدأوا بذلك حياة جديدة يبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا، ويحسنون كما أحسن الله إليهم، ولا يبتغون الفساد في الأرض. لهذا جاءوا من كل فج عميق، ولهذا ركبوا البر والبحر واستهانوا بالمشقة ونسوا كل شيء إلا الله، ولهذا تتصل قلوبهم وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم ولهجاتهم. وهم يعبرون عن هذا الشعور بالتلبية تنفرج عنها شفاههم في حبور وغبطة مطمئنين إلى رحمة الله ومغفرته.

ثم يأخذ في وصف تأثره بما شاهده في رحلة الحج قائلاً:

وبلغ من عمق هذا الأثر في نفسي أن ازددت نسيانًا لنفسي وقد قصدنا جميعًا وجهه مخلصين له الدين حنفاء. نعم! نحن جميعًا إخوة، وأقربنا إلى الله أشدنا إخوة وشعورًا. فأنا المصري أخ لهذا العربي ولهذا الجاوي ولهذا الصيني وللمؤمنين جميعا رجالاً ونساء شبانا وشيبا وأطفالاً. وأنا الذي نلت حظًا من العلم

أخ في الإيمان لمن نال من العلم أضعاف ما نلت، أخ لمن لم ينل من العلم أي حظ، أخ للبائس والمحروم إخائي للغني وصاحب الجاه والسلطان. ذلك وحي هذه الساعة الفذة من ساعات حياتي، والتي اتصلت فيها لأول مرة بمكان خطت فيه قدما محمد النبي العربي، أكبر من دعا إلى المحبة والإخاء، وأكبر من دعا إلى السعي والجهاد.

ولقد فاض به هذا الشعور حيث يصفه قائلاً: فتندت عيني وخفق قلبي وانفرجت شفتاي عن آي الحمد والشكر: لبيك اللهم لبيك .. وسمعت أذناي الأودية والجبال والقوافل السارية بينها جميعًا يدوي فيها هذا النداء، فازداد شعوري فيضًا، وقلبي خفقانا، وازددت لله شكرًا وبه إيمانًا.

وهكذا يقص رحلته في بهجة روحية عميقة ورحلة إيمانية سامية الغايات حيث مشى بين بطاح مكة وشعابها وآكامها وآثارها .. وحسبنا من وصفه لهذه الرحلة الحس الصافي والتعبير الدقيق، فعشنا معه في رحلته على تنوع في المشاهد وشمول في النظرة تمده ثقافته الواسعة ويفعمه الرأي السديد والتزام الفكرة التي من أجلها كتب مشاهداته ورؤاه في رحلة الحج المباركة وما تحفل به من أهداف وغايات إسلامية عريقة خالدة. أجل إن الحج رحلة قدسية يفوح فيها الخير ويجني الحاج ثمار هذه الرحلة ويشهدها ويلمسها في نفسه وفي حياته وتصرفاته كما تجلى ذلك فيما سطره وكتبه الدكتور هيكل في رحلته إلى الحج حيث حل الصفا وعبير الهداية وأريج النور والحب والإيمان. في قلبه وصارت نفسه مفعمة

بالخير والسمو العطاء وصدق الله القائل: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحَجّ: ٢٨].

وهكذا فالحج ولا يزال مثابة الأمن تأنس فيه الروح إلى موطن الإلهام ويسكن الوجدان إلى منشأ العقيدة وينبوع الشعور بذلك الإشراق في هذه الأرض الطيبة المباركة. وبالجملة فقد كان أثر الحج في الرحلات والمؤلفات وحفظ التراث بارزا فقد صوروا الحج ومشاهده وأماكنه وكان للأدب من كل ذلك فائدة كبيرة مما جاءت به قرائح الأدباء والرحالة مما يعكس مدى تأثرهم برحلة الحج ومشاهده ووسائل الوصول إليه.

رحلة عباس محمود العقاد ١٩٤٦م

إن الحج إلى بيت الله أمل الكثيرين والحلم الذي يتطلعون إليه بشوق. ونلتقي مع أحد رواد الأدب العربي الأستاذ عباد محمود العقاد، ولد سنة ١٣٠٦هـ، وهو كاتب مكثر متعدد الجوانب واسع الآفاق لم يدع شيئًا مما يخطر على بال الأديب إلا خاض فيه وتناوله بالدرس والبحث ظل اسمه لامعًا مدة نصف قرن أخرج في خلالها من تصنيفه أكثر من ثمانين كتاباً في أنواع مختلفة وكلها مطبوعة متداولة توفي بالقاهرة سنة ١٣٨٣هـ، وقد صدر له كتاب مع عاهل الجزيرة العربية يصور العقاد رحلة يجوس خلالها ديارًا طالما هفت روحه إليها وتألقت إلى مقدساتها وأعمل قلمه في الكتابة عن عباقرتها الذين أناروا الدنيا بعد أن سادها الظلام ففي فترة من سنة ١٩٤٦م أتيح له القدوم إلى هذه البلاد لمرافقة جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله في زيارة قام بها إلى مصر وكانت تلك مناسبة لم يفت العقاد أن يغتنمها في زيارة هذه الرحاب الطاهرة والأماكن المقدسة فأكب في مقالات متتالية على وصف مشاهداته وإحياء ذكريات تاريخية وأدبية حفلت بها الأرض المقدسة وقد يسرت له تلك الرحلة زيارة مكة المكرمة والاعتمار ويقص رحلته قائلاً سافرنا يوم ٢ يناير سنة ١٩٤٦م من ميناء السويس على ظهر الباخرة المحروسة ووصلنا ميناء جدة.

في اليوم السابع من يناير وكان في استقبالها معالي الشيخ عبد الله السلمان وزير المالية والشيخ يوسف ياسين وكيل الخارجية وغيرهم من كبار رجال المملكة ثم قصدوا قصر "خزام" العامر وكان في استقبالهم هناك سمو الأمير منصور وكيل نائب جلالة الملك والأميران محمد وخالد ومعهم لفيف من الوزراء المفوضين ورجال السلك القنصلي من العرب والأجانب. وفي المساء وصلت البعثة إلى مكة المكرمة وهي في ثياب الإحرام للاعتمار والتشرف بعد المناسك بالسلام على جلالة الملك عبد العزيز لدعوته لزيارة مصر.

وقد ذكر العقاد رحمه الله لنا أن الكعبة الشريفة قد فتحت لهم يوم وصولهم فزاروا الحرم الشريف وأدوا الصلاة بعد أن طافوا بالكعبة الشريفة.

وقد صور العقاد شعوره في هذه الزيارة في مقال نشره بمجلة "الرسالة" عقب العودة بعنوان "في الحرم" قال فيه:

«ركبنا البحر ونحن لا نعلم على التحقيق أين نلقي صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود؛ لأن برنامج الرحلة لا يشير إلى المكان».

فمن الجائز أن يكون في جدة؛ لأنها الميناء الذي ينتقل منه جلالته إلى يخت المحروسة، ولجلالته قصر منيف في أرباضها هو القصر المعروف بقصر خزام.

ومن الجائز أن يكون في مكة المكرمة؛ لأن اليخت يصل إلى

جدة قبل سفر جلالته بيومين.

فإذا كان استقبال البعثة الملكية في جدة فلا عمرة ولا إحرام، وإذا كان الاستقبال في مكة المكرمة، فقد وجبت العمرة ووجب الإحرام.

ولكن كيف السبيل إلى الإحرام؟ وكيف السبيل إلى خلع المخيط في الشتاء، وإن كان الجو في مكة أدفأ من جو القاهرة بدرجات؟

إنني ألبس الصوف شتاء، وصيفًا منذ خمس وعشرين سنة، وإذا صح أن «الصوفي» منسوب إلى الصوف، فليس على ظهر الأرض رجل أحق مني بهذه الصفة، فكيف السبيل إلى الحلل من هذه الصفة لصقت بالموصوف، فلا فكاك منها ولا فرار؟

جاءنا النبأ في عرض البحر بأن صاحب الجلالة عاهل الجزيرة يستقبلنا في قصره العامر بمكة المكرمة، فنوينا الفدية، ونوى أصحابنا الإحرام، ولم يبق معنا بملابسه غير وزير مصر المفوض في المملكة العربية السعودية؛ لأن الإحرام لا يلزمه، وإنما يلزمه أن يطوف بالكعبة عند مغادرة مكة طواف الوداع.

وقد خصصت الحكومة السعودية قصر "الكندرة" بجدة لتبديل الملابس قبل المسير إلى الحرم الشريف. وتولي الإشراف على راحة البعثة ومن معها الشيخ يوسف ياسين وزير الدولة، وفؤاد شاكر مدير المطبوعات. فلما تهيأ أصحابنا للسفر تحرك الركب بالسيارات، فكان من نصيبي الركوب في سيارة الوزير المفوض،

وهو رجل فاضل عرف أهل البلاد كما عرفه أهلها، فانعقدت بينه وبينهم صلات المودة والزمالة، وارتفعت بينهم الكلفة كل الارتفاع فيما عدا المراسم التي تقضي بها المعاملات الدولية، وقد عبر الطريق مرات فعلمت منه كل ما احتجت إلى علمه من معالمها وأصولها، ووصلت إلى مكة بزاد غير قليل من المعرفة العملية بهذه الربوع.

هذه جبال مكة.

وهذا جبل حراء.

بلغنا بعد ساعة ونصف من السير المعتدل في السيارة ومررنا إليه بمناظر كثيرة نرى أمثالها في بلادنا، ولا سيما بلدي الذي نشأت فيه، وأعني به أسوان، أما الجديد كل الجدة على النظر وعلى النفس فهو غار حراء.

هو قمة مرتفع في جبل، كأنما بنيت بناء على شكل القبة المستطيلة إلى الأعلى، ولكنها عسيرة المرتقى لا يبلغها المصعد فيها إلا من شعاب وراء شعاب.

أخبرني من صعدوه أنهم كانوا يعانون شديد العناء من وعورة مرتقاه، وأن القليل من الناس يصمد في صعوده إلى نهايته العليا، حيث كان الرسول عليه السلام يتنسك ويبتهل إلى الله.

والحق أن الرؤية غير السماع.

والحق أن ما يلمحه الناظر في نظرة خاطفة قد يعي الكاتب

بوصفه في الصحف والأسفار.

والحق أننا قرأنا ما قرأنا عن الجبل وعن الغار، ثم نظرنا إليها، فعلمنا أن القراءة قد تركت الكثير من فراغ النفس لتملأه هذه النظرة العابرة في الطريق.

مررنا به عابرين كما كان سكان البلاد يمرون به غادين رائحين في غفلة عن ذلك الرجل المفرد الذي يأوي إليه ويسكن إلى غاره.

كانوا في غفلة عن ذلك الرجل المتوحد في سبيل التوحيد، كما كان العالم كله في مثل تلك الغفلة وفي مثل تلك الظلمات.

ولكنها كانت ساعات يرتبط بها تاريخ أحقاب ودهور، فلما انقضت مدتها لم يبق في الأرض المعمورة غافل عن ضيف ذلك الغار، أو جاهل بآثار تلك الساعات التي كان يقضيها فيه بالليل والنهار.

وحسبك نظرة واحدة إلى الجبل ومرتقاه لتحيط بعض الإحاطة بتلك النوازع المرهوبة التي كانت تنهض بالرسول في صباه إلى ذروة تلك القمة مرات بعد مرات وأيام بعد أيام.

كل مرة من تلك المرات تترجم لنا عن قوة تلك البواعث المحتدمة في نفسه الشريفة، وترينا كيف بلغت هذه البواعث المحتدمة أن تدفع بالعالم كله في طريق غير طريقه، وإلى غاية لم تكن له من قبل في حساب، فلولا لاعج من الشوق الإلهي ينهض بالروح والجسد نهضة لا تصبر عليها طبيعة البشر لما توالت تلك المصاعد ولا تعاقب ذلك العكوف.

إن اللواعج التي حملت الرسول إلى مرتقى الغار هي السر الروحاني الذي استجاش العالم كله بعد ذلك في حركة دافقة تقتحم السدود وتخترق الأسوار والحدود.

وكل ذلك السير الجارف إما تجمع قطرات عند هذه القمة العالية.

كل ذلك كان في هذا المكان.

عبرنا خاشعين مطرقين، وسكتنا لأن مهبط الوحي هناك قد ألهمنا السكوت.

مكان آخر عند الكعبة كان له في قلوبنا مثل هذا الخشوع ومثل هذا الرجوع مع الزمن إلى أيام الرسالة وأيام الجهاد.

ذلك هو موقف الدعاء الذي كان الرسول عليه السلام يختار الوقوف فيه كلما طاف بالكعبة ودعا إلى الله.

أنت هنا ولا ريب في مقام قام فيه ذلك الرسول الكريم، ذلك السر السرمدي الذي يتعلق به مقادير التاريخ ومصائر الأمم ومصائر بني الإنسان، ذلك الإنسان الذي يقترن اسمه في صلوات الألوف بعد الألوف باسم خالق الكون العظيم.

أنت هنا تقف حيث وقف وتدعو حيث دعا وتنظر حيث نظر وتحوم بنفسك حيث حام في اليقظة لا في المنام.

قيل لنا: هنا يستجاب الدعاء.

قلنا: نعم، هنا أخلق مكان أن يستجاب فيه دعاء، وألهم الله

كلا من الواقفين معنا أن يدعو دعاءه وأن يستجمع في الدنيا والآخرة رجاءه.

منظر ثالث أخذني بجماله في جوار البيت الحرام، وهو منظر الحمام الآمن الوادع في ذلك المقام.

لا يخشى ولا يفزع، بل يظل طوال نهاره في طواف على الأرض وطواف في الهواء.

وأعجب ما سمعت ورأيت أنه يطوف حول الكعبة ولا يعلو عليها فرادى ولا جماعات.

وقد سمعت بهذه الخاصة في حمام البيت قبل أن أراه، فلما رأيته في طواف العمرة وطواف الوداع، تحريت أن أتعقبه في كل مذهب من مذاهب مطاره، فإذا هو كما سمعت يطوف ولا يتعدى المطاف إلى العبور.

أدب الناس في هذا المقام المهيب نعرف سره ونعرف مصدر الوحي منه إلى القلوب الآدمية.

أما أدب الطير في هذا المقام فسره عند الله.

وقد عاود العقاد الكتابة عن «حمام الحرم) على صفحات «الرسالة» سنة ١٣٦٥هـ فكتب يقول:

«أشرت في مقالي السابق عن الرحلة الحجازية إلى حمام الحرم فقلت من أعجب ما سمعته ورأيته من شأنه .. أنه يطوف حول الكعبة ولا يعلو عليها فرادى ولا جماعات».

وهذه خاصة لا بد لها من سبب مفهوم، ولا بد من استقصائها في جميع أحوالها قبل التيقن منها وقبل تعليلها بالخوارق التي لا تقبل التعليل، فإن الذهن لا يقبل الخارقة إلا إذا ضاقت به علل الطبائع التي أودعها الله في خلقه وتواترت بها المشاهدة في جميع الأحوال، وبخاصة حين لا يكون هناك مقتض من حكم الدين ولا حكم العادة لامتناع الطيران في كل مكان أن تحلق فيه الطيور أو تعبر به الطائرات.

وقد شغلني أن أتيقن أو لا من تطابق الأقوال على أطراد هذه الظاهرة، وأن أجرب حمامًا غير حمام الحرم لأرى كيف يطير إذا أطلق في جوانب الكعبة وحده، وأن أجرب طيرًا غير الحمام من القماري أو العصافير أو فصائل اليمام، لأن الجوارح قد يصرفها النظر إلى فرائسها عن تحقيق التجربة بما يفيد الحرية في اختيار جو الطيران، وخطر لي قول الطائي:

يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

ولكن الطير يسقط حيث يلتقط الحب ولا يقصر طيرانه على مواضع التقاطه، فإذا كان حمام البيت قد تعود أن يلتقط غذاءه في المماشي التي حول الكعبة فليس ثمة ما يمنعه إذا صعد في الجو أن يتجاوز تلك المماشي إلى ما جاورها، وهو قريب من قرب.

وأوصيت بعض رفاقنا أن يراقبوا هذه الظاهرة في زياراتهم المتعددة وهم يزورون البيت. فلما عادوا جميعًا كفيت مؤنة التجربة أو التجارب الكثيرة التي كان لا بد لنا منها قبل التيقن من تلك

الظاهرة وتعليلها بما يكشفها على جليتها؛ لأن ثلاثة منهم اتفقوا على أنهم شاهدوا الحمام يطير أحيانًا فوق الكعبة وإن لم يكن ذلك مطردًا في جميع الأوقات.

ثم ختم العقاد مقاله هذا عن «حمام الحرم» بقوله:

«ولسنا نختم هذا المقال قبل أن نستوفي سيرة الحمام كما عرضت خلال الزيارة إما بمكة أو خلال الطريق».

وبعد أن أفاض في الحديث عن حمام الحرم.

ختم رحلته بالحديث عن الأصل في اسم مكة المكرمة وأورد ما قاله الأصمعي وفيلبي وما ورد في كتاب بطليموس الجغرافي ثم قال: ذلك مثل من الجو التاريخي واللغوي الذي كان يحيط بنا في رحلتنا إلى هذه الربوع الطاهرة بحرًا وبرًا في الذهاب والإياب كما تدور أحاديثنا عن الذكريات التاريخية والمواعظ الدينية والتعقيب على الحوادث الهامة والمسائل العالمية والاستشهاد بالآيات القرآنية في مواضعها والأحاديث النبوية في مناسباتها والأبيات من الشعر والعبر من النوادر والأمثال كما ألقى العقاد قصيدة بين يدي الملك عبدالعزيز قوبلت بالإعجاب والاستحسان مطلعها:

عش يا طويل العمر عيش معمر ... تحيا به أمم من الأحياء
ملك أناف على العقول بعزمة ... وأتم ذاك بما يراه الرائي
جمع المهابة في العيون وفي النهى ... وسما بمجد ابوة وإباء

وهي قصيدة طويلة، وتحدث في رحلته عن الأقضية التي

اشتهرت عن الملك عبدالعزيز وعن عدله وقوته، وقد أثرت شخصية الملك عبدالعزيز في العقاد فصور جوانب منها تصويرًا صادقًا في كتابه مع عاهل الجزيرة العربية كما التقى بعدد من أدباء مكة وشعرائها قائلاً إنني أشعر منذ هبطت بلدكم المقدس بالحفاوة والتكريم وقد وجدت في هذه البلاد السعودية شبابًا ناهضًا يصبو إلى العلم والأدب شبابا ناهضا دائب الدرس والتحصيل متابعًا الحركة الأدبية باهتمام وهذا شيء يجعلني مطمئنا إلى أن لهذه البلاد مستقبلاً أدبيا وإني لواثق أن وثبتكم الجديدة ستعيد إلى بلادكم سمعتها الأدبية الأولى وذكر حديث أحد الأدباء السعوديين له قائلاً نريد أن تلقى شباب المملكة العربية السعودية في حرمهم وها أنت ذا قد قدمت إلى بلدنا الحبيب إلى كل مسلم فالحمد لله الذي بلغنا منانا وبلغك مناك لنقوم بواجبنا نحوك وتقوم أنت بواجباتك نحو البلد الأمين الذي أنبت أبطال عبقرياتك الخوالد، ثم أخذ العقاد يذكر هذه البلاد بالخير والثناء وأن يكون حاضرها ومستقبلها كماضيها المجيد وبعد ذلك غادر مكة المكرمة إلى جدة استعدادًا للرحيل إلى مصر وهكذا أمضى رحلته إلى هذه البلاد الطاهرة حيث زار الأماكن المقدسة ومعالمها الأثرية والالتقاء بعلمائها وأدبائها والتعرف على أحوالها وثقافة أبنائها فتميزت رحلته بخصوصية دينية وثقافية وتاريخية لهذه الربوع الطاهرة ذات العبق الإيماني مهوى أفئدة المسلمين فهي سجل شامل احتوت على مادة عليمة ثرية ساعدته على التعرف على جوانب عديدة من تاريخ هذه الأماكن المقدسة حيث جمع قدرًا كبيرًا من المعلومات.

وهكذا فالرحلات من مصادر دراسة التاريخ وتتحول إلى وثائق علمية وذكريات لها خصائصها التاريخية وسماتها الثقافية وكان لأدب الرحلات من كل ذلك حصيلة كبيرة - ومجمع القول فالرحلات من أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية والاستمتاع بالتاريخ والآثار والعلم والمعرفة والأدب وسيظل أدب الرحلات رافدًا من روافد المعرفة والثقافة والتاريخ وعلى ما يترك أثرًا خالدًا يعود بالفائدة والقدوة الحسنة.

رحلة الشيخ حمد الجاسر

من صور الحج النجدي إلى بيت الله الحرام ١٣٤٨هـ

تعد الرحلات من مصادر التاريخ التي تضيف الكثير من المعلومات ولقد عني العلماء عناية بالغة بكل ما يتعلق بالحج إلى بيت الله الحرام ووصف الطريق المؤدية إلى مكة المكرمة من مختلف الأقطار الإسلامية.

ونستعرض صورة من صور الحج النجدي إلى مكة المكرمة وهي رحلة الحج التي قام بها الشيخ حمد الجاسر المولود في قرية البرود سنة ١٣٢٨ - ١٤٢١هـ وقد صور فيها رحلته إلى الحج مع مجموعة من رفاقه ورصد فيها مشاعره وانطباعاته وما كابدوه من مشاق وإلقاء الضوء على حقبة من تاريخ المملكة العربية السعودية حيث كانت الرحلة في عام ١٣٤٨هـ حيث صور لنا رحلة الحج النجدي وما كانت تجري عليه الحياة في نجد ومكة المكرمة والمشاعر المقدسة وذلك بطريقة الوصف الحي لمشاهدة عاشها خلال رحلته لتأدية فريضة الحج.

والشيخ حمد أحد أعلام الجزيرة العربية ومن قمم المشتغلين بالتراث العربي الإسلامي وقدم خدمة جليلة وأخلص للعلم والمعرفة وعرف بحبه للغة العربية ووقف نفسه على دراستها

والاهتمام بالتاريخ والتراث وكانت له جولات في مكتبات العالم للبحث عن نفائس التراث وتحقيقه وطباعته وبحثه ونشره من خزائن الكتب المتفرقة ألف وحقق ورحل وكتب في ميادين تاريخية وجغرافية ولغوية فاجتمع له العلم والأدب والرحلات المتعددة للبحث عن المعرفة والتراث وأصدر في الرياض سنة ١٣٧٢هـ مجلة اليمامة الشهرية كما أنشا مطابع الرياض سنة ١٣٧٤هـ وهي أول مطبعة أنشئت في الرياض وفي عام ١٣٨٥هـ رأس تحرير جريدة الرياض ثم أنشأ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر وأصدر مجلة العرب الشهرية سنة ١٣٨٦هـ، وهي تعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري وللشيخ حمد رحلات كثيرة وهي متنوعة الأهداف بقصد الاطلاع على المخطوطات وتحقيق مواضع جغرافية وتاريخية وقطع المفاوز والقفار في ذلك ونستعرض رحلته إلى الحج التي قام بها في سنة ١٣٤٨هـ، وقد أمضى سبعة عشر يوما من أخر شهر ذي القعدة وأول شهر ذي الحجة فيما بين قرية البرود مسقط رأسه باقليم السر في نجد ومكة المكرمة ويقص رحلته قائلاً:

وكان الاتجاه إلى مكة للحج ولطلب العلم ولقد اعتمد على المنهج الوصفي من خلال تأملات دقيقة ومعايشة حقيقية وواقعية ووصف حي في حقبة تاريخية للحج والمشاعر المقدسة وذلك بأسلوب أدبي شائق حيث يقول: سار الرفقة الأربعة وهم على خير ما يتصف به الرفاق في السفر من الوئام، واتفاق الأهداف، والتعاون في مختلف أوجه السعي، إلا أنه من بينهم من يفكّر في

أمر اتفقوا عليه، سيعود كل واحد منهم بعد أدائه فريضة حجه، متزودًا بما سيُتحف به أهله وأقاربه وأصدقاءه مما اعتاد العائد من الحج إحضاره معه، فيستقبل بالبشر والترحاب، ويقدم على أهل وموطئ سهل، أما صاحبنا فما الذي يذكر هنا؟

ما أرحم هذه الفيافي الرحبة، والفجاج المترامية. الأطراف في هذه الصحراء الفسيحة، حيث يتنسم المرء أرج الانطلاق والانعتاق مما كبل فؤاده، وأوهى قواه، فعجز عن النهوض به من أعباء الحياة وهمومها داخل تلك الجدران، أو في أسواقها الضيقة أو بين أهلها البؤساء.

إن للحياة أثناء السفر طعما ولذة قد لا يحس بهما إلا من حرمهما من المدن والقرى، ممن لم تتيسر له وسائل العيش الرخى، ناعم الحال، هادئ البال. وقد أمضى في رحلته إلى الحج سبعة عشر يومًا أمضاها من آخر شهر ذي القعدة وأول شهر ذي الحجة، فيما بين قرية (البرود) ومدينة (أم القرى) من عام ١٣٤٨هـ، وما كانت المسافة بين المكانين يتطلب قطعها ذلك الزمن كله، ولكن كان سير الرفقة وفق خطة (إن لراحلتك عليك حقًا).

وما منهم إلا من كان برِّه براحلته مقدما على اهتمامه بمتطلبات نفسه، ومن كان يرى في أيام سفره ذلك ما يراه المتنزه، المستمتع بمباهج ما يشاهده في أجمل ما يقصده من البقاع، وما أبهى ما مررنا به منها، وهي مكسوة بالخضرة النضرة، تزهو

بمختلف ألوان البقول المزهرة.

ولا أرى غضاضة في القول بأن السفر - وقد قُدر عليهم زاد سفرهم منحتهم تلك الأرض المخصبة المربعة وجادت لهم بما فتق الخواطر، ونتق البطون، منهم ومن مطاياهم، من طيب نبتها، وحلو جناها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

ولقد كان الجو لا حرٌ ولا قرٌ، ولهذا لم تدع الحاجة إلى نصب (الشراع) طيلة أيام الرحلة إلا في ليالي منى والأبطح.

وقد كان الشيخ في هذه الرحلة أصغر القوم سنًا، وأرقهم حالاً، ومن لازم هذين الأمرين - عادة - أنه من يتصف بهما أو بأحدهما يكون أوفر حظًا من غيره في القيام بمتطلبات الرفقة من أعمال السفر، كإحضار الحطب، وعمل القهوة، وطبخ الطعام، وملاحظة الرواحل في المرعى، وإحضارها وقت السفر، مع التعاون غالبًا في جميع ذلك ويتحدث الشيخ حمد عن رحلته قائلاً:

ومع إني ضعيف البنية، لم أعتد كثيرًا القيام بتلك الأعمال إلا أن مشاركتي بما أستطيع أداءه منها يحدث من النشاط والقوة ما يفعم نفسي ارتياحًا وسروراً، بالإضافة إلى أن رفقته لا يضنون عليه بما يستحقه من تقدير ورعاية، فقد يخصونه بشيء من أطايب الأكل، وقد يؤثروه بالفراش الوثير، وبالجلوس في الظل حين يتقلص فلا يتسع لهم جميعًا، وقد كان إمامهم في الصلوات، ومعلمهم لأحكام المناسك، ومرشدهم لمعرفة ما يحتاجون معرفته

من أمور دينهم، وكثيرًا ما كان يسمعهم من محفوظاته من الشعر مترنمًا به - على عادة قراءة ذلك العصر في نجد - فيطربون، ويستزيدون منه، وتأثرهم بالتغني به أقوى من إدراكهم لمعانيه، فهو لا يعدو قصائد الوعظ من شعر يحيى بن يوسف ومثاله:

أنا العبد الذي كسب الذنوبا ** وغرته الأماني أن يتوبا

أو نحو:

ليس الغريب غريب الشام واليمن
إن الغريب غريب اللحد والكفن

أو قصيدة ابن القيم:

فحي على جنات عدن فإنها
منازلك الأولى وفيها المخيم

ويقول الشيخ حمد:

ومن المعروف أن الأصل في قراءة الأشعار التغني بها لإطراب السامع بالصوت المنسجم مع وزن الشعر، على حد قول القائل:

تغنّ في كل شعر أنت قائله
إن الغناء لهذا الفن مضمار

ويمضي في وصف رحلته قائلاً:

ومع أنه لم يسبق لواحد من الإخوة سلوك طريق الحج ليكون ذا معرفة به للاستدلال على معالمه وورود مناهله، إلا أنهم لم

تعترضهم أية مشقة أثناء سيرهم، ولم ينحرفوا عن الوجهة التي كانوا يقصدون، فكانوا حين يصدرون عن أحد المناهل المعروفة يستوضحون عن الطريق، ممن يلتقون به من الناس، وقلّ أن يتجاوز وقت سيرهم بياض النهار وأطراف الليل، ثم ذكر بعد ذلك أشهر ما مروا به من المناهل المعروفة الدفينة وقبا ومران، وعشيرة والسيل الكبير (قرن المنازل) ومنه كان إحرامهم، وفيه التقوا بعدد كثير من الحجاج الذين لم ينقطع الاجتماع ببعضهم أثناء الطريق، حتى كان بلوغ مكة المكرمة في مساء اليوم السابق من شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٨هـ، وكان النزل في جانب ا الأبطح، المقابل لقصر السقاف - القصر الذي كان ينزله الملك وحاشيته - إذ الحجاج القادمون من نجد في ذلك العهد لم يعتادوا النزول في بيوت البلدة، وإنما كانوا ينصبون خيامهم ويقيمون أخبيتهم في بطحائها الممتدة من قرب (قصر الجعفرية) شرق ريع الحُجُون إلى مفترق طريق منى من طريق الشرائع، وفي الشعاب المتصلة بتلك البطحاء من الجهتين الشمالية والجنوبية، وخلف القصر الملكي، وأمامه، حيث لم ينتشر العمران في حارة (المعابدة) بعْدُ. ويقول في وصف أعمال الإحرام:

كان الواحد منا - منذ أن تجردنا من ملابسنا بارتداء ملابس الإحرام بعد الغسل وأداء ركعتي السنة وترديد تلبية التمتع بالعمرة إلى الحج - يتصور في كل شيء يُشاهده من الجمادات أثناء السير من الجبال أو الصخور أو الأشجار أطيافا ذات إحساس يمر بها، بحيث توشك أن تدنو منه فتلتزمه فيمتلئ قلبه من هذه الرؤى

الغريبة، وما ذاك إلا من تأثير ما شغلنا به أفكارنا من أننا بأداء فريضة الحج ينبغي أن نتأثر بذلك العمل، فنخرج من أوضارنا كيوم ولدتنا أمهاتنا، فعشنا من جراء هذا التفكير تحت طغيان عاطفة، ملكت علينا مشاعرنا، تستمد مما اشتغلنا به منذ الانتهاء من أعمال الإحرام من التلبية والدعاء، والتضرع والاستغفار، بصورة أثرت في أنفس بعضنا إلى درجة البكاء، ومع أننا اعتدنا تناول طعام العشاء حين يستقر بنا المنزل، ونهيئ لرواحلنا ما هي بحاجة إليه من علف ومناخ، إلا أننا وقد انتهينا من شؤون الإحرام لا نزال منصرفين عن التفكير في إعداد الطعام أو القهوة، بل لا نزال تحت تأثير ذلك الشعور الروحي، وكأنه لا يعنينا من أمور الدنيا شيء، لنذهب الآن لأداء مناسك العمرة، ولن نعدم من يرشدنا الطريق إلى الكعبة المطهرة، وإن لم تكن الشوارع في ذلك العهد منارة، ولنُرح نفوسنا بما يشغلها من أمر مناسكها.

ثم أخذ في تصوير كيفية ترك الأمتعة والرواحل قائلاً:

ولكن كيف نترك أمتعتنا ورواحلنا؟! ها هو خدر على مقربة منا، وأبناء البادية منتشرون في هذه الجهات - كحالتهم في مداخل المدن وأطرافها - وفي الخدر - على ما ذكر عُبَيد أحد الرفقة - عجوز معها ابنتها، وقد وعدت بملاحظة الرواحل وحفظ المتاع حتى نعود.

لم تثر رؤية هذه الأنوار الساطعة في جوانب قصر السقاف في نفوسنا كبير اهتمام، وإن كانت المرة الأولى التي أبصرنا فيها في

حياتنا أنوار الكهرباء، وهذه أنوار أخرى رأيناها حين انحدرنا فبلغنا الحرم، ولكنا دُهشْنا منها حين أبصرنا الكعبة المطهرة، وقد أحاط الطائفون بها مرتفعة أصواتهم بالدعاء والذكر والاستغفار، إننا بحاجة إلى من يرشدنا إلى ركن الحجر الأسود لنبتدئ منه الطواف، وبعض الطائفين ما كان يقتصر على تقبيله وحده، أو الإشارة بيده إليه بل قد يعم بذلك بعض الطائفين ما كان يقتصر على تقبيله وحده، أو الإشارة بيده إليه بل قد يعم بذلك بعض الأركان الأخرى، هؤلاء حجاج لم يشرعوا بعد في الطواف فلنسر خلفهم، لا حاجة إلى الاقتداء بمطوفهم بالأدعية والأذكار، فصاحبنا قد لقن إخوانه ما ينبغي ترديده منها. ثم يصف الحج والحجاج قائلاً:

ما كان الحجاج - في ذلك العام - كثيرين - ولهذا فلا ازدحام في الطواف ولا مضايقة عند بئر زمزم للشرب من مائها، فقد أعدت مشارب (بزابيز) بأقداح خارج البئر، ولكننا لم نكتف بالشرب منها حتى التضلع، بل تسللنا داخل زمزم كما يفعل غيرنا، فظفر كل واحد منا بدلو ماء دلقه الساقي الذي يخرج الماء بالدلو من البئر - فوق رأسه حتى غمر به جميع جسمه هو يكرر (بركة يا حاج! بركة يا حاج!) متطلعا إلى أثر كلمة الاستجداء هذه في نفوسنا، ولكن (لا حياة لمن تنادي) فلم ندرك الغاية منها، فاكتفينا بالدعاء:

(بارك الله فيك! بارك الله فيك!).

كان الدخول إلى المسجد من غير باب السلام، فقد قالت لنا العجوز حين استوضحنا منها عن الطريق: احدروا الوادي حتى يوقفكم جدار الحرم، فسلكنا الطريق الأيسر حتى أفضى بنا إلى أحد أبواب المسجد الغربية، ولم نمرُ بالجودرية فالمدعى، وبعد الانتهاء من الطواف سألنا عن (باب السلام) ظنا أنه هو المفضي إلى الصفاء فأرشدنا إليه وعند الخروج منه سرنا مع زمر الساعين، وكانوا متجهين نحو المروة، فتابعناهم ولم ندرك خطأنا من أننا لم نبدأ بالسعي من الصفا إلا بعد انتهاء سبعة أشواط غير كاملة. فكان أن أعدناها كلها يوم النحر.

ثم أخذ في تصوير عودته إلى مكان الأمتعة والرواحل قائلاً:

واستبطنا الوادي عائدين إلى منزلنا في أعلاه، ومعنا أرغفة من خبز (التميز) وما كنا نحس للجوع بأثر، بعد تضلعنا من شرب ماء زمزم، بل كنا نتصور أننا سنستغني به عن الطعام، كما كنت حدثت الرفقة بحديث ذلك العالم التقى ابن القيم، وبكتابه زاد المعاد، و"منسك شيخ الإسلام ابن تيمية" كنا نستنير ونسترشد في أمور حجنا بها.

خشينا أن لا نجد في ذهابنا إلى منى فعرفات فمزدلفة علفًا لمطايانا فاشترينا ساعة نزولنا في الأبطح ما توقعناه، كافيًا، ووضعناه بين (الشراع) وبين خباء العجوز، التي أحسسنا حين عدنا أنها قد نامت، وأبصرنا مكان العلف خاليًا، فلم نوقظها ظنًا أنها خبأته، ولكنها فاجأتنا في الصباح حتى سألناها عنه بجملة: (الله

يخلف عليكم .. كم غدا على الحجاج من جمل!!).

وبقرب (حوش) وصفت موقعه لنا العجوز البدوية نصبنا (شراعنا) واتجهنا بعد أن ارتفعت الشمس حيث اتجه الناس. وفي عرفات توخينا مكان موقف المصطفى عليه الصلاة والسلام منها فوق جبل عند الصخرات الكبار، ولم نبذل كبير جهد في الوصول إليه، إذ مكّننا بكورنا من ذلك، وفاتنا التريث إلى ما بعد أداء صلاتي الظهر والعصر بمسجد نمرة مع جمع الحجاج، حيث أبصرنا خيامًا كثرة منصوبة بقرب جبل الرحمة، ورأينا كثيرًا من الحجاج مطيفين بالجبل، غير أن شدة حرارة الشمس أذوت ما كنا نحس به من قوة، بحيث اضطر اثنان منا إلى الجلوس في ظل الناقة، ومحاولة الاستظلال بالمحامل أو الشقادف فوق الجمال، وملاهمة الماء الذي لا ينفع شربه لعدم برودته. وبالباقي من الرغفان وقليل من التمر كان الاكتفاء غداءً، وكان لتأثير (القهوة) التي اعتدنا شربها، مع اشتداد حرارة الشمس ما أحدث لكل واحد منا صداعًا شديدًا استمر بنا حتى صباح اليوم الثاني.

ولم يكن الانصراف من عرفات بعد غروب الشمس شاقًا لقلة الحجاج، وكان الوصول إلى مزدلفة مبكرًا بحيث كان النزول عندما يعرف بالمشعر الحرام، حيث البناء المقام هناك، بقرب الجبل المعروف قديمًا باسم (قُزح)، ولم نصح - وقد استقربنا المكان - لركب أناخوا علينا، وصرخ أحدهم في وجوهنا قائلاً: (تقلّعوا !! هذا مكاننا ما هو مكانكم)!! بل قابلناه بصوت واحد لن نتزحزح عن مكان سبقنا إليه فنحن أحق به، ورغم مضايقتهم

بالنزول علينا فقد أدركنا منهم أسفهم على ما بدر منهم، حيث قدموا لنا بقية من طعامهم، وغادرنا المكان بغلس لإحساسنا بفتور في أجسامنا من جراء حرارة الشمس، والإجهاد من أثر مامارسناه من عمل، وربما لعدم تنظيم الغذاء أيضًا، ولكننا كملنا نسكنا - حتى طواف الإفاضة، واشترينا هدي التمتع من جالب غنم مر بالقرب من نزلنا من منى، وظننا أنه لا يجزئ، حتى يُذبح في المكان المخصص لذلك، ومن هناك حمل كل واحد منا هديه مسلوخا إلى المنزل، ولشدة قرمنا عدنا إلى المذبح، فأحضر كل واحد منا ذبيحة منه، لقد شغلنا بقية يومنا بإخراج عظام الذبائح، بعد أن تناولنا من رقائق اللحم شواء وطبخنا وشرب مرق ما كفانا، ومع أن اليوم يوم عيد الأضحى إلا أن الإحساس بشيء من مظاهره - كما بدالنا - كان أقل مما كنا نتوقع، فالناس مشغولون بأداء المناسك من رمي الجمرة، والذهاب إلى مكة للطواف، وتردد فجاج منى أصداء ارتفاع الأصوات بالتلبية والتكبير والتحميد والتهليل.

كنا حريصين على أداء صلاة العيد في المسجد الحرام، ولكننا لم نصل إليه إلا بعد انتهائها. ولئن كانت مباهج الأعياد تتمثل بما يغمر القلوب من إحساس بالراحة، والاطمئنان، وبخلوها مما يشغلها من هموم متاعب الحياة أيًا كانت فليس من المبالغة القول بأن (حظنا من كل ذلك في هذا العيد كان موفورًا).

وها نحن - وقد استرخت منا الأجسام - قد أخذ كل واحد منا مكانه، واستغرق في نوم عميق - من جراء التعب ثم الشبع -

لم يوقظنا منه إلا انكفاء الظل نحو الشرق، وانكشافه عن واجهة الشراع التي نمنا فيها.

ويسترسل في حديثه قائلاً:

لا يأخذ منك الاستغراب والعجب مأخذه - لقوم اعتادوا أن لا يشبعوا من اللحم إلا أيام عيد الأضحى أو حين تصاب إحدى الإبل بداء أو كسر، فتنحر كحالة سكان القرى - لا تستغرب من هؤلاء وقد شاهد بعضهم آلاف الذبائح في ذلك المكان، يكتفي أكثر أصحابها بأخذ بضعة من لحمها بعد حضور ذبحها، ويتركها، لا تعجب لأولئك أن يصابوا بالنهم، وشدة القرم، عند رؤية لحوم تلك الذبائح، للاستحواذ على ما يستطيعون أخذه منها، فإطفاء أوار ذلك السعار، في مستقبل أيامهم.

وبعد زوال شمس اليوم الثالث كان الاتجاه إلى مكة، بعد رمي الجمار، وبجوار خباء صاحبتنا العجوز في الأبطح كان النزول، ولكننا كنا نحرص على أن يمكث أحدنا في المنزل، بينما يذهب ا لآخرون لأعمالهم، وما أكثرها في هذا اليوم، وما أكثر من يجب الاحتراس منهم فيه - على ما قيل لنا.

وبعد ذلك أخذ يتحدث عن الدروس العملية التي تلقى في رحاب الحرم المكي وعن علماء الحرم قائلاً:

اعتاد القادمون إلى مكة من أهل نجد في ذلك العهد ارتياد أمكنة في الحرم وبقربه، مما يجعل الالتقاء بمن يُبحث عنه منهم سهلاً، فهم يتجمعون غالبًا لأداء صلاة المغرب في (السرحة)

الواقعة أمام ركن الحجر الأسود، حيث يصلي (الأغوات) ويؤدي كثير منهم صلاتي الظهر والعصر في (الخلوة) المخصصة لموظفي هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. المتصلة بالمسجد، فيما بين بابي أجياد وأم هانئ، إذ أكثر موظفي الهيئة من طلبة العلم من أهل تلك البلاد.

أما بعد صلاة الفجر فقد كان إمام الحرم الشيخ محمد عبد الظاهر أبو السمح يلقي درسًا في (السرحة) الواقعة يسار الداخل من باب السلام، وهناك يلتئم عدد منهم للاستماع إليه، لبساطة أسلوبه في الوعظ رحمه الله وقد يكتفي بقراءة القرآن سردًا، بنغمة شجية، ذات تأثير قوي في النفوس، وأشبه القراء به الشيخ عبدالله الخياط، وكان من أخص تلاميذه، وأشبههم به سمتًا، وفي الحرم مدرسون كثيرون في تلك الأيام، منهم الشيخ محمد بن عبدالرزاق حمزة، وهو ذو عناية بالغة بالحديث النبوي، فيبين المعنى بأسلوب لا يستعصي فهمه على المستمعين، وجلهم من عامة الناس، ومن المدرسين الشيخ محمد العربي التباني - جزائري الأصل - يدرس الحديث أيضًا، والشيخ جمال مالكي، عالم جليل كبير السن، واختصاصه في النحو، وألف فيه «الثمرات الجنية» ومنهم الشيخ عمر حمدان الونيسي محدث أيضًا، ومنهم الشيخ أحمد الهرساني وله حلقة صغيرة من الطلبة بعد صلاة العصر، عند باب (الداوودية) يدرس السيرة النبوية من كتاب "عمود النسب" لأحمد البدوي الشنقيطي، ولعل من أبرز أولئك المدرسين - من حيث كثرة الإقبال من المستمعين إليه الشيخ

فيصل بن محمد بن مبارك، فقد كان يتعرض لبعض المسائل التي يكثر الخوض فيها في ذلك العهد، مما يتعلق بدعوة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فيعرضها بأسلوب واضح، ويتقبل ما يوجه إليه من انتقاد برحابة صدر، ويفنده بطريقة مقنعة لا أثر للعاطفة فيها.

وعلى مقربة من باب الزيارة رباط يعرف بمدرسة محمد علي، ويدعوه النجديون (رباط الحنابلة) لأن مفتيهم الشيخ محمد بن عبدالله بن حميد (١٢٣٦/ ١٢٩٠هـ) مؤلف كتاب "السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة" كان من سكانه، وكذا حفيده الشيخ عبدالله ابن علي بن محمد بن حميد المتوفى سنة ١٣٤٦هـ، ومن بعدها استقر فيه بعض طلبة العلم من أهل نجد، وكان ممن أدركت منهم الشيخ سليمان المحمد الشبل، كان نازلا في الحجرة التي سكنها المفتيان الحنبليان، وشاهدت فيها كثيرًا من الكتب، ومنها مخطوطات من بينها كتاب: "شرح المنتهى" بخط الشيخ عبدالله ابن أحمد بن عضيب المتوفى سنة ١١٦١هـ، وكان خطا واضحًا حسنًا، وفيها من الكتب المطبوعة نسخ كثيرة من كتابي "كشاف القناع" و"حادي الأرواح".

ثم انتقل للحديث بعد ذلك عن أحد الأسواق الشهيرة بمكة المكرمة قائلا:

وفي سوق (الجودرية) كان ملتقى المشتغلين في التجارة من حجاج ووافدين وغيرهم، إذ في ذلك السوق تقع متاجر مشاهير

التجار ومنازلهم، وكانت الكتب التي يُجهلُ أصحابها من أهل نجد تطرح في مدخل دكان تاجر في ذلك السوق يدعي الفُريح، حتى يبحث عنها أصحابها، ولكبارهم مجالس يرتادها الزوار ممن يُعنى بتلقف الأخبار العامة، أو يهتم بشؤون التجارة. أما طلبة العلم فإن أحفل مكان بهم بعد المسجد الحرام مجلس الشيخ عبدالله بن حسن بن حسين آل الشيخ رئس القضاء، بجوار الحرم في (رباط الداوودية) ففيه يستقبل زواره بعد صلاة العصر، وبين العشاءين، وفيه تؤدى الصلوات ائتماماً بإمام المسجد الحرام.

وتطرق للحديث عن أحوال التعليم في مكة المكرمة قائلاً:

وفي تلك الأيام كان قد أُسند إلى الشيخ عبدالله اختيار عدد من الشبان الراغبين في طلب العلم لإلحاقهم بـ(المعهد الإسلامي السعودي) الذي أنشئ بإشراف عالم الشام الشيخ محمد كامل القصاب، فولى إدارته العالم السلفي الأستاذ محمد بهجة البيطار، الذي كان قوي الصلة بعلماء نجد، ووضع لذلك المعهد منهج دراسي تتمثل الغاية منه في ترسيخ العقيدة الإسلامية السلفية، وبذل الوسع في نشرها بتخريج علماء فهموا أصولها، وتشربت نفوسهم بمبادئ الدعوة الإصلاحية التي قام بتجديدها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وإزالة ما ألصقه بها دعاة السوء لتنفير الناس من قبولها.

وتم إنشاء ذلك المعهد واختيار مكان ملائم له من حيث البناء وحسن الموقع في مقر (المدرسة الهاشمية) في أعلى (شعب

أجياد) غير بعيدة عن المسجد الحرام، وتخصيص إعانة شهرية لكل طالب من طلاب المعهد، من الحكومة.

وما كان صاحبنا مكلفًا بالقيام بأي أمر من متطلبات الالتحاق بالعمل سوى وجوده - كغيره - ليلاً في القلعة كبقية الجند، الذين تكاد تنحصر خدمتهم في الحراسة ليلا ونهاراً عند باب القلعة والتجوال حولها في مداخل الطرق الموصلة إليها أثناء الليل ومراقبة أحد عشر سجينًا كانوا آنذاك في حجرة داخلها.

بعد ذلك أخذ في الحديث عن التعليم ودراسته في مكة المكرمة وزيارة بعض الأماكن التي يتكرر ذكرها في المؤلفات القديمة من كتب التاريخ والأدب ومعجمات الأمكنة لمحاولة تحديدها بمشاهدتها وتطبيق بعض النصوص القديمة على ما اتضح من وصفها ولقد بسط القول في كثير من مؤلفاته فيما كتبه من ذكريات وزيارات لمراكز العلم والمتاحف والمكتبات ومحافل العلم وما اعتاد الاستفادة منه في كتب الرحلات حيث شغف بالرحلات فطاف بالكثير من البلدان في الشرق والغرب حيث زخرت كتبه بالعديد من البحث عن كتب التراث وعلى هذا الأساس فقد حقق العديد من الكتب وخاصة كتب التراث ونقدها مثل معجم البلدان لياقوت الحموي ومعجم ما استعجم للبكري وتاج العروس للزبيدي وأنساب الأشراف للبلاذري والأمكنة والجبال والمياه للزمخشري والمعجم الكبير الذي أصدره مجمع اللغة العربية.

وبعد فقد كانت رحلته وهي أول رحلة يقوم بها إلى مكة المكرمة حيث ذكر ما شاهده في طريقه إلى الحج فجاءت فصولاً ممتعة، حيث صور ما اشتملت عليه من معاناة ومشقة تدل على جرأته وقوة إرادته ومضاء عزيمته بل زادته عزما وتصميمًا على السير قدما حتى يبلغ هدفه المأمول حيث انصرف في مكة إلى العلم وترك رفاقه في الرحلة من أبناء قريته يعودون بعد ذلك واستمر في تحصيل العلم حيث التحق بالمعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة وتخرج فيه سنة ١٣٥٣هـ بقسم التخصص في القضاء الشرعي وواظب على حضور الدروس في الحرم المكي وقراءة الكتب والصحف في إحدى الغرف التي كانت ملحقة .. وعني بتعيين أمكنة حدود الحرمين الشريفين وتحديد مواقيت الحج والعمرة ... وأسماء المواضع التي وردت في القرآن الكريم والحديث النبوي، حيث يقول معرفة المواضع تعين على فهم القرآن والحديث النبوي، وما ورد في آثار الصحابة مما له صلة بهذا النوع. ووصف ذلك وصفًا دقيقًا وقص أحاديث طويلة ... ومخيلة الشيخ حمد من المخيلات اللاقطة التي تلتقط كل ما تشاهده وتسجله حيث التحقيق والتدقيق في الرؤية وما ينقله عن الأفواه والشفاه مما يدل أبلغ الدلالة على مدى استيعابه وجهده المتميز والذي تجلى في كثير من مؤلفاته وأعماله التاريخية والجغرافية وتصديه لكثير من الأخطاء الواردة في كتب الأقدمين والمحدثين في هذا المجال.

وبالجملة فتكمن أهمية هذه الرحلة في أنها كشفت حال الحج

النجدي إلى بيت الله الحرام في ذلك الوقت، وإبراز جهود الملك عبدالعزيز ورعايته واهتمامه بالحج، وإبراز صورة وصفية تاريخية لمعالم الأماكن ومظاهر الحياة في مكة المكرمة من خلال تأملات ومعايشة حقيقة.

مع الدبلوماسي الألماني المسلم

الدكتور مراد هوفمان في رحلته إلى مكة المكرمة ١٩٩٢م.

هذه الرحلة قام بها الدكتور مراد هوفمان إلى مكة المكرمة في سنة ١٩٩٢م وأدائه مناسك الحج حيث كتب رحلته في كتاب بعنوان: «رحلة إلى مكة المكرمة» صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٢١هـ، وهو دبلوماسي ألماني مسلم أنار الله بصيرته واعتنق الإسلام سنة ١٩٨٠م، فدخل الإسلام عن صدق ودرسه بعمق ويعد كتابه إضافة مهمة لأحد الدبلوماسيين الغربيين الذي دخلوا في الإسلام وتركوا آثاراً واضحة في الثقافة الغربية والأوربية وقد استهل رحلته قائلاً:

بعد أن سلّمنا أمتعتنا المتواضعة لكي تشحن إلى جدة، بعد انتظار طال بي الدور بمطار الدار البيضاء، وفي الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم ٢٨ مايو ١٩٩٢م تقلع طائرة الخطوط الجوية السعودية من طراز بوينج ٧٤٧ متجهة إلى جدة، مرورًا بداكار، عبر كل من صحاري ليبيا الشاسعة والسودان.

وبدلاً من الموسيقي «المخدرة»، التي اعتدنا أن نسمعها عند إقلاع الطائرات، تنبعث من أجهزة الاستماع بالطائرة السعودية آيات من القرآن الكريم.

وفي داكار، ينضم إلى رحلتنا عدد من الحجاج، وننظر إليهم، فنجدهم أمثلة مضيئة للحجاج، تشع وجوههم سعادة واطمئنانًا.

تقترب رحلة الطائرة من نهايتها، ويعلن قائدها قبل هبوطها بنصف ساعة أننا سنطير فوق منطقة الحرم حول مكة، وهي منطقة لا يدخلها الحاج، حتى وإن كان محلقًا في الفضاء، إلا بملابس الإحرام.

كان هذا الإعلان بمنزلة تنبيه لكل من عقد العزم والنية على أداء فريضة الحج وبدء مناسكه، لكي يرتدي ملابس الإحرام. ولم تلبث مقاعد الركاب أن أشرقت في الحال، وتلألأت ببياض مبهر!

فالنساء جميعًا يرتدين ملابس بيضاء، تغطي معاصمهن وأقدامهن، ويضعن على رؤوسهن أغطية رأس بيضاء، في حين يلف الرجال حول الكتف والخصر مناشف بيضاء، طولها ١٨٠ سنتيمتراً، وعرضها ١٠٠ سنتيمتر.

لم أبدل ثيابي؛ لأنني كنت قد عقدت العزم على التوجه أولاً إلى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، ثم أقوم بعد زيارته بالشروع في مناسك الحج قبل التوجه إلى مكة.

كان كل ما يحتاج إليه الحاج في حقيبتي، وقد حصلت عليه من سوق سالي، مدينة القراصنة القديمة، ذلك السوق الذي يرجع تاريخه إلى العصور الوسطى. وكل متاع الحاج قطعتا قماش، وحافظة غير مخيطة لحمل القرآن الكريم وبعض من الماء، ومظلة

بيضاء للوقاية من أشعة الشمس (شمسية)، وحزام عريض من الجلد، غير مخيط. وكنت قد أحضرت معي، عملاً بنصيحة الطبيبة الخبيرة بالحج، أدوية لعلاج آلام الرأس (الصداع) وآلام الأسنان، واضطرابات المعدة، والإسهال والقيء، وارتفاع درجة الحرارة، إلى جانب ضمادات للأقدام الملتهبة. وكان معي أيضًا، بالإضافة إلى ما تقدم، زوجان من «النَّعال» غير مخيطين، صنعهما بناءً على طلبي ولصقهما وضفرهما إسكافي شبه كفيف في سوق سالي.

ثم استرسل في وصف مشاعره حين قدومه إلى البقاع المقدسة قائلاً:

تمكن قائد الطائرة من الهبوط في المطار وتعهدني منذ وصولي - كما تعهد غيري - مطوف يضطلع بمسؤولية إقامتنا وانتقالاتنا، وطبعًا إرشادنا لمناسك الحج. وكان عِلْمُنا بهذا الأمر مبعث اطمئنان لنا، مع أن المرء منا كان قد حاول فيما يشبه دراسة دينية - أن يحفظ كل ما عليه أن يفعله طبقًا لما ورد في القرآن والسنة، حتى يتقبل الله منه إن شاء الله.

في الفندق الذي نزلت به، حيث كنت أقيم تحت رعاية إدارة المراسم الملكية، التقيت مسلمين من أنحاء العالم كافة، من جزر القمر إلى واشنطن العاصمة وكانت أحاديثنا تدور حول شيء واحد، هو الإسلام، وبفضل المناقشات الفكرية التي جرت بيننا، بدت لي رحلة الحج وكأنها جامعة متنقلة.

أقلتنا طائرة من طراز هرقل ١٣٠، تابعة للقوات الجوية

السعودية، في رحلة استغرقت ٥٠ دقيقة، إلى المدينة المنورة، التي كانت ملجأ وملاذ محمد ﷺ ممن اضطهدوه من المكيين، وفيها أصبح الإسلام دينًا ودولة.

توجهت على الفور، إلى مسجد الرسول ﷺ وجرى توسيع المسجد أكثر من مرة. وتبدو كل المحاولات السابقة لتوسيعه شديدة التواضع بالمقارنة بالتوسعات الأخيرة كما يرى الجميع. وفيما مضى كان المسجد يتسع لبضع مئات من المصلين، أما الآن فتبلغ مساحته نحو ٧٠٠ ألف متر، تتسع لنحو ٦٠٠ ألف مصلّ، أما أعمدته الكثيرة، فصورة مصغرة للمسجد الأموي بقرطبة. ولقد قامت إحدى الشركات الهندسية، التي يديرها مسلمون ألمان، بتزويد المساحات غير المسقوفة من المسجد بمظلات واقية من أشعة الشمس، يبلغ قطر كل منها نحو ١٨ متراً، تفتح وتغلق حسب سقوط أشعة الشمس، وتستدير في اتجاهها حينما حان موعد صلاة العشاء، ودرجة الحرارة ٤٤ درجة مئوية، اجتمع في المسجد مئات الألوف من المصلين، جاؤوا من شتى الاتجاهات.

وبعد زيارة لمعالم المدينة المنورة ومسجدها يواصل كاتب الرحلة قائلاً: عدنا إلى جدة على متن إحدى طائرات القوات الجوية السعودية.

وكنا قبل العودة قد زرنا أحد مطابع القرآن الكريم عند طرف المدينة المنورة، حيث يطبع سنويًا ٣٨ مليون نسخة من القرآن الكريم توزع مجاناً، من بينها ملايين من النسخ من الترجمات

الإنجليزية والفرنسية، وحتى الكورية، للقرآن الكريم. ويحصل كل حاج على نسخة خاصة له.

ثم أخذ في وصف مناسك العمرة والحج قائلاً:

عقدت النية على أداء فريضة الحج، وعلى نحو أقرب ما يكون للذي فعله الرسول ﷺ أي أداء مناسك العمرة أولاً ثم أداء مناسك الحج، فاغتسلت وتلوت الأدعية الواجبة، وارتديت ملابس الإحرام، وبذلك أتممت استعدادي لأداء فريضة الحج قبل أن نتوجه إلى المطار بمدة قصيرة.

على الرغم من أنني ارتديت ملابس الإحرام مدة نصف يوم فإنني لا أشعر بعد بالرحلة من ملابس الإحرام هذه المرة. ومع ذلك، يستطيع المرء أن يحمي نفسه من ضربة الشمس بوساطة الجزء العلوي الذي يتحرك دومًا من مكانه، كما أن نسيجها يمتص العرق، وإن كانت الأبدان تقشعر من البرد في الغرف المكيفة. ولكن أهم ما في الأمر هو أن الحجاج كافة يرتدون الثياب نفسها، يستوى ذلك أغنياؤهم وفقراؤهم، أقوياؤهم وضعفاؤهم، أذكياؤهم وبسطاؤهم، كبيرهم وصغيرهم، ولما كانت ملابس الإحرام خالية من النقوش أو الخياطات، فلا يمكن لأحد أن يتميز عن آخر، ولو بمجرد الخياطة الأنظف ولا ترمز ملابس الإحرام فقط إلى تساوي البشر أمام الله، وإنما ترمز أيضًا إلى يوم القيامة، فلقد كنا نبدو - ونحن نقطع صالة المطار جيئة وذهابًا - كمن قام من الموت وما يزال يرتدي كفّنه، بل إن كثيرًا من الحجاج يحتفظون بالفعل

بملابس إحرامهم لتكون أكفانًا لهم.

عند إقلاع الطائرة، كان بعض مسؤولي المراسم في المدينة المنورة يقفون هناك.

كل حركاتهم وخطواتهم وقوره ومحسوبة، وهم جميعًا يتمتعون بقامات فارعة، وهندام نبيل معبر وتوحي عباءاتهم الخفيفة السوداء ذات الحواشي الذهبية بجلال ملكي.

ثم أخذ في وصف مشاعره وهو يؤدي العمرة وانبهاره أمام الكعبة المشرفة حيث يقول:

في الرابع من شهر يونيو، قمت برفقة وزير الشؤون الإسلامية السريلانكي وأسرته بأداء العمرة، ولقد كان انتظارنا في جدة طول مدتي ما بعد الظهر والمساء، قبل أن نغادرها إلى مكة، أمرًا مفيدًا؛ لأننا حينما وصلنا إلى مكة عند منتصف الليل كانت درجة الحرارة قد انخفضت إلى ٣٨ درجة مئوية. وقبيل أن نصل إلى غايتنا، عبرنا أحد الأنفاق التي شُقت في صخور مكة المكرمة، ولكم كانت المفاجأة مذهلة، عندما خرجنا من النفق لنجد أمامنا المسجد الكبير الرائع!

ها نحن أولاء نقف أمام أقدم معابد التوحيد في العالم .. أمام الكعبة .. والكعبة مكعب مجوف خال تماماً، مبني بأحجار ضخمة. إنها صورة معمارية لكمال بيت الله في أبسط تصوير، بعيدًا عن التعقيد الذي يبدو في الفن القوطي، وهي تُكْسي بمخمل أسود مطرز بآيات من القرآن الكريم بخيوط من الذهب، ويتم تغيير

الكسوة سنويًا، وتقوم مجموعة من المطرزين طول العام على إعداد الكسوة في ثوب فني جميل.

عند دخولنا إلى الحرم المكي، خضعنا لعملية تفتيش سريعة، دلفنا بعدها إلى داخله برغبة تكاد تكون مقدسة للطواف سبعًا وتواعدنا على اللقاء بعد ساعتين، بدأنا بعد ذلك نطوف حول الكعبة التي يتجه إليها أكثر من مليار مسلم في صلاتهم اليومية وهي مركز حج عالمي، لم يكن من اليسير، والحجاج يتدافعون ويتزاحمون، أن نحتفظ في هذا الخضم الهائل بروحانية الفعل الذي لولاه لتحول الحج إلى مجهود بدني بحت.

ثم أخذ في وصف الحج والحجاج وروعة الموقف حول الكعبة حيث يقول:

وعلى الرغم من هذا الزحام الشديد، كانت هناك عجائب وآيات من التسامح والرحمة، فلقد مررت لتوي بحاج سعيد يطوف حول الكعبة على عكازين، يمنعه كبرياؤه - وربما يمنعه فقهره - من أن يحمله أحد الزنوج الأقوياء، أو يدفعه أحد على كرسي متحرك، ويحيطه الحجاج بالعناية والحذر حتى لا يقع، واسترعى انتباهي أيضًا مشهد مجموعة من الحجاج يخرون على الأرض سجدًا وسط فيض من الحجاج، ولقد كدت أقول لهم: أيُّها الحجاج، هل يتحتم فعل هذا الذي تفعلون؟! ولكني لم أقلها.

في وجود هذا العدد الغفير من الحجاج، يحتاج الطواف حول الكعبة سبعًا إلى نحو الساعة أو ما يزيد، ولحسن الحظ كانت

الليلة باردة بعض الشيء؛ لأنه إذا ما تعرض إنسان وسط أوربا لأشعة الشمس المباشرة - وهي في أوجها - لمدة ساعة واحدة، فلا بد من أن يفيق ليجد نفسه في إحدى وحدات العلاج المتخصصة في علاج المصابين بضربة الشمس.

بعد أن أتممت الطواف شربت ماء زمزم، فأحسست بالانتعاش بكل ما تحمله الكلمة من معان، وعقدت العزم على حمل ٢٠ لترًا منه إلى الرباط، ليرتشف الأصدقاء رشفات منه، وكان هذا الماء يماثل الذهب في قيمته، وهكذا يتحقق التواصل مع مكة ماديا.

حان الوقت لأداء ركعتين في مقام إبراهيم، وهذا الموقع القريب من باب الكعبة، والمذكور في القرآن الكريم، يذكرنا بأن الكعبة بناها أبو الساميين جميعًا، ومعه ابنه - من زوجته الثانية هاجر - إسماعيل أبو العرب، وكان إبراهيم يتردد على أسرته العربية، التي كان قد أسكنها في مكة قبل ذلك بسنوات عديدة.

في أثناء بحثي عن مكان لأداء الصلاة، التقيت كلاً من زميلي: سفير غينيا في الرباط، ومفتي لبنان، وكانت لهما الرغبة نفسها، والمشكلة ذاتها، وعثرت أخيرًا على مكان بجوار مجموعة من الحجاج التركمان أو المغول الذين يأخذون قسطًا من الراحة في الجزء المسقوف من المسجد، حيث يقرأ بعضهم القرآن، ويتناول بعضهم شيئًا من الطعام، في حين نام آخرون في انتظار أذان الفجر، ومع ذلك، تابعت السير مسرعًا لأسعى سبعًا بين

الصفا والمروة، كما هو منصوص عليه في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨].

أستطيع الآن أن أقصّ شعري، منهياً الجزء الأول من حجي، (أي العمرة).

قضيت الأيام المتبقية لي حتى بداية الجزء الثاني من الحج مع أصدقاء أمريكيين ومغاربة وسعوديين وألمان، وكنت أرتدي دائمًا الزي العربي: الجلباب المريح في الملبس، والجلباب المريح جدًا في النوم. ففي مثل هذا المناخ، يكون مجرد التفكير في ارتداء حُلَل وأربطة عنق خانقة نوعًا من العذاب.

أوصلني صديق بدوي في سيارته إلى المسجد لصلاة العشاء، وما إن انتهينا من الصلاة في رحاب المسجد الحرام، كنت متشوقًا إلى الحج، وإياك والمرض قبل يوم عرفة، والحج - كما يعلم الجميع - فرض على من استطاع إليه سبيلا: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فهو فريضة على من تسمح له حالته الصحية، ويفيض ماله عن حاجة أهله.

فالحج ليس فريضة فحسب، بل هوحلم لكل مسلم، والعودة منه هي مفخرته، فهو يستطيع عند العودة أن يجد منزله وقد طُلي بلون أخضر، ناهيك عن أنه سيحظى بمكانة رفيعة جدًا، فلا لقب دكتور، ولا لقب الحاصل على الماجستير، ولا لق «سعادة» ولا حتى لقب «أستاذ» تضاهي لقب حاج الذي يُخاطَبُ به.

تحتاج رحلة الحج المُكلّفة، والخطرة في بعض الأحيان - في عصر الطائرات - إلى ترتيبات روحية وأخرى مادية، وبصفة خاصة بالنظر إلى تأشيرات الدخول للحج تخضع لنظام حصص محددة، (ونظرًا لأنه من بين كل ١٠٠٠ مسلم يحصل مسلم واحد على تأشيرةحج.

ثم أخذ بعد ذلك يتحدث عن أدب الحج وأهمية الالتزام بذلك حيث يقول:

يدعو القرآن الكريم المقبل على الحج إلى أن يراعي آداب الحج، فعلى المحرم أن يتنزه عن مباشرة النساء، وعن المعاصي من السباب وغيره، وعن الجدل والمراء في الحج، وعليه أن يجتهد في فعل الخيرات: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٩٧].

ويتحدث الدكتور هوفمان عن قراءات له عن الحج قائلاً:

لقد قرات وصفًا تاريخيا للحج من القرن التاسع عشر، قرأت لريتشارد بيرتون Richard Burton في كتابه جزأين عام ١٨٥٣م وصفًا لرحلة حج إلى مكة، وقرأت "رحلة حج إلى مكة" لـ Hanrich Von Maltzan (١٨٦٩م)، وفي صباح اليوم التالي، تجمع القسم الأعظم منا - ونحن نرتدي ملابس الإحرام - في بهو الفندق من الساعة الخامسة صباحًا.

توقفنا بمكة لنؤدي طواف القدوم حول الكعبة مرة أخرى، وكان الطواف هذه المرة تحت الشمس الحارقة، فاندفع كثير من الحجاج إلى محاولة الاحتماء مثلي بالمظلات، وهو ما كان ينطوي في مثل ذلك الزحام على خطر إلحاق أذى.

كان لا بد أن أنتزع نفسي من هذا المشهد لأواصل سفري إلى منى بالسيارة في رحلة استغرقت ٤٥ دقيقة لقطع خمسة كيلو مترات، ومنى هي «نقطة الانطلاق» إلى يوم عرفة .. وما أدراك ما عرفة؟! يقول الرسول ﷺ : «الحج عرفة».

وفي التاسع من ذي الحجة تنقل حوالي ٥٠ ألف حافلة، ما يزيد على المليوني حاج إلى عرفة، عبر شوارع قليلة موازية لمنى أو لمكة، لمسافة تتراوح بين ١٠ أو ١٥ كيلاً.

يحاول بعضهم أن يقطع المسافة إلى عرفة سيرًا على الأقدام، إلا أن هذا لا يعدُّ بديلاً مناسبًا، وعند وصولنا إلى مدينة الخيام المقامة حول جبل عرفات، كان الهواء يلفح الوجوه من شدة الحرارة التي جاوزت الخمسين درجة مئوية في الظل.

وكان يومًا طويلاً رائعًا .. كان يوماً للتأمل وللسلام .. يومًا للصلاة، وللأحاديث القيمة.

لم أكن، منذ كنت أمارس التمارين الجيزويتية في سنوات الصبا، قد عايشت مثل هذا التوجه الكامل إلى الله بكل هذا الصفاء الداخلي الباهر، فلا شيء في يوم عرفة سوى مناجاته،

وهنا يتجسد نداؤنا الدائم: لبيك اللهم لبيك .. هذا إذن هو معنى الوقوف بين يدي الله بعرفات .. ملايين من الناس يتشحون بأكفان، ويتركون في هذا اليوم كل شيء وراء ظهورهم .. فوجودهم اليوم مكرس لله وحده ويصف رحلة السويسري المسلم من مدينة بازل العريقة Johann Ludwig Buckhie (١٤١٨م)، والذي عرف بالشيخ إبراهيم بن عبدالله بعد أن أعلن إسلامه، ودرست إلى جانب ذلك إرشادات حديثة مفيدة، مثل "دليل المرء للحج والعمرة" الصادر في السلسلة الألمانية "السفر اليوم".

ويسترسل في حديثه عن رحلة الحج قائلاً:

وكان أهم شيء فيما يتعلق بالإعداد الروحي هو دراسة آيات القرآن المتفرقات في الحج، وبصفة خاصة في السورتين ٢ (سورة البقرة) و٢٢ (سورة الحج)، وحفظ أحاديث الرسول ﷺ الكثيرة التي تتناول الحج. وساعدني كتاب فون دنفر - الجامع على نحو مكثف للقرآن والحديث - كثيرًا في ربط مناسك الحج ظاهريًا وباطنيًا، ماديًا وروحيًا، وهذا الأمر ليس بغريب على المسلمين الذين تؤلف عقيدتهم بين الروح والمادة معًا، إذ إن التوجه إلى الله في الإسلام لا ينحصر في الروح فقط، فالمسلم في صلاته، وفي يومه، وفي نحره للأضحية، وفي حجه ليس حاضرًا بروحه وعقله وقلبه فقط، إنما بلحمه ودمه أيضًا؛ فهو إما أن يكون هو كله حاضراً وإما ألا يكون حاضرًا، وهذا ناتج عن «التوحيد» بصفته مبدأ جامعًا من منظور إسلامي.

وترقبًا للأيام المشهودة، جلست في حجرتي بالفندق في جدة أطالع ما حملته معي من مطبوعات عن الحج وما يرمز إليه.

وحينما ينطلق صوت المؤذن عبر مكبرات الصوت مناديا إلى صلاة العصر، يجيء دوري لأرفع أذان الإقامة في مسجد الفندق الذي راح يمتلئ رويدًا رويدًا بالمصلين، ورحت أردد باللغة العربية ما ردده بلال أول المؤذنين قبل ١٤١٣هـ سنة قمرية، ولكن بصوت أضعف من صوته، وطلبنا من رجل من المالديف ذي بشرة داكنة جداً أن يؤمنا في الصلاة، فاستجاب لطلبنا على الفور.

لاحظت، ونحن مجتمعون حول مائدة العشاء، أن لا يبدو على أحد منا أن لديه شهية للطعام، والسبب في ذلك هو ترقبنا للانتقال في الغد، وهو ثامن أيام ذي الحجة من مكة إلى منى، حيث محل إقامتنا الأساسي في الأيام القادمة.

ففي هذا المكان ألقى محمد ﷺ قبل وفاته بأسابيع قليلة - في عام ٦٣٢ ميلادية - خطبة تقرأ كل عام في ذات اليوم، وذات المكان، لقد خاطب المسلمين في ذاك اليوم قائلاً: «إني تارك فيكم - ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدًا: كتاب الله وسنتي. وإني مسائلكم يوم القيامة فما أنتم فاعلون» ووفقًا للرواية، أجابه الحاضرون: «نشهد أنك أديت الأمانة، وبلغت الرسالة، ونصحت الأمة»، وهذا نفسه هو ما أشهده اليوم مع مليونين ومئتي ألف من النساء والرجال من أنحاء العالم كافة.

بلغنا المزدلفة نحو الساعة الحادية عشرة مساء، بسبب كثرة

التوقف في الطريق، ونحن نشعر بآلام في ركبنا، وفيها أمّنا إمام من الرباط لصلاتي المغرب والعشاء جمعًا على الصخور التي سنجمع منها ٤٩ حصاة، استعدادًا لرمي الجمرات في اليوم التالي.

وصلت حافلتنا في الساعة الثانية صباحًا إلى منى، قريبًا من موضع رمي الجمرات .. ذلك الرمي الذي يرمز لرفض الإنسان القاطع للشر بداخله هو نفسه، وفي العالم أيضًا. واقتربت من العمود، حتى أضمن إصابته باستخدام إصبعين فقط، مع احتفاظي بمسافة تحميني من التعرض لوابل من حصى الحجاج من الخلف. إنه موقف صعب حقًا؛ لأن بعضًا من البسطاء ينتابهم شعور بأن في مقدورهم أن ينالوا من إبليس مرة واحدة في حياته، فيرموا رمزه بأحجار كبيرة وبأحذية ومظلات.

الساعة الآن هي الرابعة والنصف صباحًا، ولقد حان موعد صلاة فجر يوم عيد الأضحى، عاشر أيام ذي الحجة، بالحرم المكي، وسوف أؤديها، بآخر ما تبقى لي من قواي، مع ٨٠٠ ألف مسلم، وبالنظر إلى فخامة الصوت وكمال القراءة، يعد مؤذنو الحرم المكي وأئمتهم صفوة الصفوة، فأذانهم نداء رائع .. وقراءاتهم للقرآن مناجاة مسموعة.

أخيرًا، عدنا بعد الساعة السادسة صباحًا إلى بيت ضيافتنا في منى، بعد أن قضينا ٢٦ ساعة على أقدامنا متأثرين عاطفيا وبدنياً، وتعانقنا أنا ورفاقي في الحج مرددين: حجًا مبرورًا، وحجًا مقبولاً إن شاء الله، وعدت إلى غرفتي حيث خلعت أخيرًا ملابس الإحرام

- لهذه المرة - واستلقيت في سريري ملتهب العروق، وحمدت الله أن منحني القدرة على أداء فريضة الحج، داعيًا أن يتقبلها مني، ثم رحت في نوم عميق، لم يزعجني فيه ضجيج صوت جهاز التكييف المرتفع.

كنت مدعوًا في ثاني أيام عيد الأضحى - ضمن ١٥٠ حاجاً من أنحاء العالم كافة، إلى قصر الملك فهد بن عبدالعزيز بمنى، وكان العاهل السعودي قد وجه في ذلك العام دعوة للحج، وليس للغداء فقط، إلى ١٣٠٠ مسلم من الاتحاد السوفيتي السابق، وجاء مجلسي بين عدد من المفكرين والعلماء المسلمين، وقد أتيح لنا وقت طويل للحديث، مراراً وتكراراً، عن الإسلام تأكيدًا على أن الحج هائل للمسلمين كافة.

وفي اليوم الثالث (١٣)، وهو آخر أيام عيد الأضحى، توجهت بمفردي بعد صلاة الفجر مباشرة لرمي الجمرات.

وفي اليوم التالي، وفي طريق عودتنا من منى إلى جدة، طفنا في مكة طواف الوداع حول الكعبة، وكان المسجد قد امتلأ حتى آخره، إذا كنا قد وصلنا إليه وقت صلاة العصر، وفي هذه المرة طفت حول الكعبة فوق السطح على الرغم من عدم قدرة القدمين على احتمال سخونة السطح الملتهبة إلا لثوان معدودات.

لاحظت يوم ١٦ من يونيو وأنا أسلم جواز سفر الحج، استعدادًا للعودة بالطائرة إلى الدار البيضاء، أن المسؤولين يبدون سعداء كلما غادر حاج البلد راضيًا، ولقد اتجهت الطائرة الجامبو

مباشرة، وفي خط مستقيم إلى تونس، وبذلك ظل اتجاه القبلة ثابتًا طول رحلة الطائرةو فمكنّ هذا من أداء الصلاة في مرها ووقع اختياري على مجلة تايم لكي أقرأها في رحلة الطائرة وكان يحتمل غلاف هذا العدد صورة لأحد المساجد.

وبالجملة فقد دون الدكتور مراد هوفمان رحلته هذه للحج في كتاب اشتملت على الكثير من المعلومات ضمنها كتاباً أصدره بعنوان: "رحلة إلى مكة المكرمة" تناول فيه الكثير من المعالم والحقائق وإبراز تلك الحقائق عن الإسلام ومدافعًا عنه ومفندًا آراء أعدائه وقد عاش نور الإسلام وتعاليمه السمحة وآدابه العظيمة من مكارم الأخلاق والفضائل والمعاني السامية والحق والعدل والإنصاف جمع في ثنايا تعاليمه الإلهية وأحكامه القدسية ما طهر العالم من خلالها ووجهها توجيهًا صحيحًا إلى مبدع الأرض والسماوات كما تحدث في هذه الرحلة وأدرك الحكم السامية والأسرار المجيدة للحج من هذا يتبين جليًا ما قصّه في رحلته إلى الحج حيث كان مبهوراً بما شاهده ورآه من أجناس البشر من مختلف القارات يغدون إلى هذه الديار لأداء هذا الركن العظيم ويتشاورون فيما بينهم في لقاءاتهم في هذا الموسم لتحسين مستوى المسلمين في جميع أقطارهم علميًا وأدبياً وأخلاقيا واجتماعيًا ومن ثم ينفرون إلى بلادهم وهم يحملون إلى إخوانهم وأوطانهم مشاعرهم وكلّ ما يعود عليهم بالخير العاجل والآجل، وبالجملة فقد تضمنت رحلته ضروبًا من الأحاسيس والسيرة الذاتية وما تضمنته هذه الرحلة من عناصر تبرز حرصه على التمسك بدينه

وجعله منهاج حياته اليومية وتلقي هذه الرحلة الضوء على جوانب متعددة من تاريخ الحج وحياة الحجاج حيث قام بوصف ما شاهده من أماكن وشخصيات قابلها أثناء الرحلة وما جرى في تلك المقابلات من أحاديث ومشاعر عظيمة ورصد الكثير من المواضع التاريخية والجغرافية والمعالم الأثرية والنقوش القديمة في المناطق التي مر بها والتعرف على الكثير من ذلك والإفادة منه حيث أنه يذكر ما داخله من مشاعر وأحاسيس إزاء بعض المواقف والأحداث ويصور ذلك تصويرًا دقيقًا، تلك بعض الصور والصفحات والتي يضيق الوقت عن استعراضها، لرحلة الحج التي دونها هذا الدبلوماسي الألماني المسلم في رحلة إلى مكة المكرمة وترجمه أجمل المعاني وأسماها عن الحج والأماكن المقدسة وشعوره بأن الإسلام له جاذبية خاصة تدفع الشخص إلى الإيمان بقيمه ومبادئه.

رحلة السيد غلام رسول مهر ١٣٤٨هـ

تعد هذه الرحلة من الرحلات المهمة التي تكشف عن جوانب كثيرة وتبرز علاقة المسلمين في الهند، وتتناول هذه الرحلة يوميات رحلة السيد غلام رسول مهر أحد علماء الهند في الأماكن المقدسة حيث قدم لأداء مناسك الحج في عام ١٣٤٨هـ ١٩٣٠م، والتي بدأت من لاهور إلى مكة المكرمة وتصف بكل دقة وتفصيل خطوات الرحلة كما اشتملت الرحلة على إعجاب كاتبها الملك عبدالعزيز وقدراته وعبقريته فقد وصف خطبته قائلاً بدأ في شرح كلمة التوحيد وتجلى في خطابه قوة البيان وحماسة ومحبته للإسلام وقد قامت دارة الملك عبدالعزيز في عام ١٤١٧هـ بإصدار هذه الرحلة وترجمتها إلى اللغة العربية.

ولقد اشتملت الرحلة على موضوعات متعددة من وقائع الرحلة حيث وصف رحلته من لاهور إلى كراتشي وتجواله في تلك المناطق والسؤال عن العلماء وزيارتهم ووصف رحلته في القطار حيث هبت عاصفة ترابية غطت رؤوس الركاب ووجوههم بالتراب في لحظات ويقول وانطلقت سفينتنا من كراتشي إلى جدة في ٢٧ إبريل ١٩٣٠م وأخذ يصف الرحلة البحرية ورفقاء السفر والطعام الشعبي في الباخرة ومصاعب السفر إلى الحج والمشاغل اليومية وقراءة الكتب حيث يقول في ذلك لم أحمل معي في سفري كتبًا

كثيرة لأن هذه الرحلة رحلة عبادة وكنت أتعرف من صميم قلبي إلى أن أقضي وقتي في قراءة القرآن الكريم ولهذا حملت معي المصحف بالإضافة إلى بعض كتب الفقه الإسلامي وكتاب أرض القرآن للعلامة الندوي وكتاب ابن سعود للريحاني وخريطة للجزيرة العربية ولا شيء غير هذا، وعن مكة المكرمة يقول بيت الله هو مركز الأمة المسلمة الذي ترتبط به الأمة وتتعلق به، لقد انطلقنا من جدة إلى مكة في منتصف الليل ووصلنا إلى الحرم الشريف لأداء أركان العمرة ودخلنا من باب السلام في الثاني عشر من يناير ١٩٢٦م وتقدمنا ناحية بيت الله وألسنتنا تلهج بالدعاء اللهم زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة، وكان آلاف الحجاج ينامون في صحن الحرم في حين انشغل الآلاف بالطواف حول البيت وبعد الانتهاء من الأشواط السبعة وقفنا عند الملتزم فدعونا الله ثم ذهبنا إلى مقام إبراهيم وشربنا من ماء زمزم وذهبنا إلى الصفا من باب الصفا وكان المسعى مملوءًا بالساعين الذين كانت ألسنتهم تلهج بالدعاء إلى الله ثم أخذ في وصف هذا المكان قائلاً: ما أطهر هذا المكان وما أصدق هذه الأدعية، وما أمتع هذه البقعة من أرض الله، وبعد ذلك تحدث عن دعوة الملك عبدالعزيز رحمه الله لأعيان الحجاج وإلقاء خطابه وشرح كلمة التوحيد وقضية اتحاد المسلمين ووصف الخطاب بأنه كان بليغًا ومؤثرًا ثم تحدث عن حفل بلدية مكة التي أقامته على شرف الملك عبدالعزيز ودعت إليه عددًا من أكابر الحجاج ومضى بعد ذلك في توضيح الأمور المتعلقة بجغرافية مكة المكرمة ومنى

ومزدلفة وعرفات بقصد تسهيل ذلك على قراءة رحلته لفهم ما سيكتبه فيما بعد وأفرد فصلاً عن مكة وما حولها كالحديبية والتنعيم وجبل ثور وجبل النور وغار حراء وسكان مكة المكرمة والحميدية ودار الكسوة والمستشفى والقصر السلطاني وبيوت مكة المكرمة، والأماكن التاريخية القديمة والصفا والمروة، والحرم الشريف والمطاف والمصلى وأركان بيت الله وعمارة الكعبة وكسوة الكعبة وزمزم وأصوات المؤذنين والمطوفين ومنى ومسجد الخيف ومزدلفة وعرفات، وعدد الحجاج والعودة من عرفات واهتمام الملك عبدالعزيز براحة الحجاج ثم العودة من منى وغير ذلك من الأمور المتفرقة التي تتعلق برحلته إلى الحج.

ويقول مترجم هذه الرحلة الدكتور سمير إبراهيم:

لقد ولد الشيخ غلام رسول مهر (١٣١٣ - ١٣٩١هـ/ ١٨٩٥ - ١٩٧١م)، وهو من علماء شبه القارة الهندية الباكستانية الكبار، وهبه الله علمًا وفضلاً، وزيّنه بحسن الخلق، فعاش حياته يعمل لإصلاح أحوال الأمة الإسلامية بكل ما يملك من موهبة أدبية وروح إسلامية أصيلة ويعد من أدباء اللغة الأردية الذين أبدعوا في كتابة النثر الأردو؛ فارتقوا به، وأوصلوه إلى مكانة عالية، ويمتاز أسلوبه النثري الفريد - الذي صقله من خلال كتاباته الأدبية المتواصلة في الصحافة - بالسلاسة، والجزالة، ودقة التعبير، هذا بالإضافة إلى أنه واحد من المؤرخين الذين أثروا المكتبة الأردية التاريخية بكتاباتهم.

وعاش الشيخ غلام رسول مهر في فترة العصر الذهبي للصحافة الإسلامية في شبه القارة الهندية، تلك الفترة التي شهدت ظهور شخصيات صحفية، وكان يحدوهم في الكتابة هدف وشعور بالمسؤولية، ورغبة في خدمة الأمة الإسلامية، إضافة إلى أن الصحافة الإسلامية في شبه القارة تناولت - إلى جانب مشكلات المسلمين في الهند - القضايا الإسلامية العالمية مثل قضية فلسطين، والاستعمار في البلاد الإسلامية.

وهكذا اتجه الشيخ غلام رسول مهر إلى ميدان التأليف والبحث، وكان الموضوع المفضل عنده هو التاريخ، وبخاصة تاريخ الإسلام العام وتاريخ المسلمين في الهند، والحركات العلمية والسياسية والثقافية لمسلمي شبه القارة الهندية الباكستانية، ومراحل الجهاد التي مكنت الهند من الحصول على استقلالها ودور المسلمين في ذلك، وكذلك الشخصيات الإسلامية التي أثرت على تاريخ شبه القارة الهندية الباكستانية، فألف ما يقرب من مائة وثمانين كتابًا في مجالات متعددة: في التاريخ، والسير، والدين، والسياسة، والحضارة، والعلوم، والفنون، والرحلات وغيرها، وحقق بعض الكتب، ترجم العديد منها بالإضافة إلى كتابة عدد كبير من المقالات في التاريخ والسير والأدب والنقد والدين والسياسة وغيرها من الموضوعات.

لقد ظل الشيخ غلام رسول مهر حتى آخر لحظات حياته مشغولاً بالتأليف والبحث، وكان آخر أعماله تجميع مقالات أبي الكلام آزاد عن السيرة النبوية وترتيبها التي صدرت بعنوان:

"رسول الرحمة" وأضاف إليها من تعليقاته، وطبعت هذه المقالات بعد وفاته.

ولقد سافر الشيخ غلام رسول مهر عدة مرات خارج شبه القارة الهندية الباكستانية، وأسفاره هذه تحمل أهمية تاريخية نظرًا لما كتبه عنها، وكان أول سفره رحلته إلى الحجاز مع وفد مجلس الخلافة سنة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م سكرتيراً لظفر علي خان، الذي كان من بين أعضاء الوفد، ثم كان سفره الثاني بدعوة من جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله في سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م، حيث دون المؤلف يومياته في هذه الرحلة.

ولا يتسع المجال للحديث عن بقية أسفاره إلا أن من الضروري القول بأن رحلاته تحمل أهمية علمية وأدبية معًا، فهو أديب يتناول في سفره تفصيلات مراحل السفر، ويتحدث عن الجوانب التاريخية للأماكن التي زارها وآداب السفر وأهدافه، ويقدم في يومياته هنا معلومات قيّمة عن الحج ومناسكه، ومشاعره، والأماكن التي يزورها الحجاج، وهي كلها موثقة بالأدلة وموضحة بالرسم والخرائط أيضًا، كما أن استطراداته في كتاباته تحمل مغزى مهمًا لدى القراء، بالإضافة إلى روح الدعابة التي نلاحظها بين السطور، ناهيك عن جمال الأسلوب وجاذبيته، وسلاسة اللغة مما يجعل أدب الرحلة عنده إضافة قيمة للأدب الأردو.

والرحلة هذه تترجم لأول مرة إلى اللغة العربية جاءت أصلاً

في شكل خطابات أرسلها الشيخ غلام رسول مهر إلى العلامة سالك للنشر تباعًا في صحيفته فكل خطاب يمثل فصلاً من فصول هذه الرحلة.

وتحمل هذه الرحلة أهمية لدارسي تاريخ الجزيرة العربة، وبخاصة في عهد المغفور له الملك عبدالعزيز؛ لأن كاتبها من كبار علماء شبه القارة الهندية وأدبائها، وممن يعتد برأيهم، ومن الباحثين الملتزمين بالدقة والأمانة، فقد سبق له أن زار الجزيرة العربية عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، وقبل سفره هذا، ولذا فهو يكتب عن خبرة، ويعبر عن تجربة هادئة، بأسلوب بسيط، ولا يجد حرجًا في ذكر العيوب - إن وجدت - مثلما يذكر المحاسن، فهو يتحرى قول الصدق فيما يكتب.

ولقد مضى على هذه الرحلة ما يقرب من ثمانين سنة، تغيرت خلالها المعالم حول الحرم، وفي مكة المكرمة وما حولها، وأنجزت الكثير من المشروعات العظيمة في الحرمين الشريفين لخدمة المسلمين خصوصًا في هذا العهد الزاهر عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز يحفظه الله.

ويمكن لمن يطالع هذه الرحلة أن يعرف قدر الإصلاحات التي تمت، ومدى التطور الذي حدث، حين يقرأ ما كتبه المؤلف عن مطاف الحرم، وحالة الرواق، وكذا أحوال المسعى .. إلخ.

ومن يشاهد هذه الأماكن اليوم لا يمكن أن يتخيل أو يتصور أنها كانت في ذلك الشكل والوضع اللذين جاء وصفهما في هذه

الرحلة.

وتعد هذه الرحلة أول رحلة تترجم من الأردية إلى العربية واشتملت على وصف دقيق لرحلة الحج وأمور تاريخية بجانب ما تحدث عنه كاتبها وأفاض فيه من مشاعر إسلامية متدفقة وما في الحج من دروس وعبر وعظات ومشاهد وآثار، وقد صاغها بأسلوب بديع على نحو ما يراه قارئها وهو في كل ذلك يتقن حسن العرض وتصوير المواقف ونراه يدون وصفًا مفصلا للبلدان والأماكن والشخصيات التي يقابلها متجشمًا وراضيًا لكل مشقة في سبيل أداء فريضة الحج وهكذا يصف كثير من الحاج الرحالة طريقهم إلى الأماكن المقدسة في كتب أو في رحلات مختلفة يسجلون فيها أسفارهم ورحلاتهم ومشاهداتهم يذر عون البحار والمحيطات والصحارى يسيرون في مناكبها وجوانبها وأن فيها لأنصع الصفحات والبيانات على حب هذه الأماكن المقدسة وأداء فريضة الحج رغم المتاعب في ذلك الزمان، ولقد قامت دارة الملك عبدالعزيز في عام ١٤١٧هـ بإصدار هذه الرحلة وترجمتها إلى اللغة العربية.

رحلة ياباني في مكة

لقد استمر الاهتمام بأدب الرحلات عبر مختلف العصور والحقب التاريخية بسبب طابعها الأدبي، وتعتبر الرحلات من أوسع أبواب المعرفة،وتعد هذه الرحلة "ياباني في مكة" أو الحج إلى مكة المكرمة نموذجًا للنمط الأدبي المعروف «بأدب الرحلات»، وهو رافد من روافد الثقافة والمعرفة من الأدب والتاريخ، يستفيد منه كتاب السير، وعلماء الجغرافيا، وعلماء الاجتماع، والتربية، وعلماء اللغة وغيرهم إفادة كبيرة.

وهذه الرحلة التي ترجمها أ. د. سمير عبدالحميد إبراهيم، وسارة تاكاهاشي سنة ١٤١٩هـ تضم بين ثناياها جميع أقسام الرحلات، المعروفة لدى الباحثين في أدب الرحلة، فهي قبل كل شيء رحلة أدبية، وفن من فنون القول الأدبي.

اعتمد فيها المؤلف، بالإضافة إلى المشاهدات العينية، على ما سمعه من أخبار، وعلى مطالعة الرحلات السابقة التي كتبها غيره.

ولقد بدأ المؤلف رحلته بمقدمة عن الإسلام ومبادئه، ثم بمقدمة أخرى عن الرحلة ذاتها، والظروف التي دفعته إلى القيام بها، وركز على الأمور الجغرافية والاجتماعية والثقافية

والاقتصادية والعمرانية، ووصف الطرق والعمران، والمرافق والظواهر المناخية، ووجه عناية خاصة للأمور الاجتماعية، فتحدث عن البشر، فئات المجتمع وطبقاته، ووضع الرجال والنساء في المجتمع، وغير ذلك، ولم تخل رحلته من ذكر رجال الدولة والعلماء وعلى رأسهم مؤسس المملكة لعربية السعودية الحديثة الملك عبدالعزيز - طيب الله ثراه - وقد أفرد فصلاً كاملاً عنه.

وتأتي هذه الأمور كلها داخل الإطار الأساسي وهو الحج ومناسك الحج.

وقد كان أول من قدم للحج من اليابانيين هو عمر ميتسو ياماوكا من مدينة هيروشيما، الذي وصل إلى مكة المكرمة في ديسمبر ١٩٠٩م، ومنها سافر إلى المدينة المنورة ثم سطر ذكرياته في كتاب بعنوان: "رحلة عبر الجزيرة العربية" طبعت عام ١٩١٢م، ثم جاء من بعده الأستاذ الحاج نور تناكا فسافر للحج في عام ١٩٢٤م، وسجل وقائع رحلته في كتاب بعنوان: "الحج في الإسلام" في حوالي ٣٢٠ صفحة، والرحلة تعبر عن وجهة نظره الإسلامية وتوضح كيف صار مسلمًا.

وقد أشار في رحلته إلى سبب تسمية الرحلة السحاب الأبيض الطافي على صفحة الأفق، فقال: إنه رأي في منامه أنه يقف على أعلى قمة مرتفعات "باميل" (جبال هندوكوش) في وسط آسيا، ولم يستطع أن يحقق هذا الحلم، ثم كان تفسير حلمه، قدومه إلى

عرفات، وشاهد الحجيج في ملابس إحرامهم البيضاء، وكأنهم سحاب أبيض يطفو على صفحة الأفق.

وقد عمل الحاج نور تناكا محاضرًا في معهد الثقافات الشرقية Daito Bunka Gakkuin، وكان يامل في تقوية العلاقات بين اليابان والعرب من ناحية، وبين العرب وآسيا من ناحية أخرى، وتشكيل وحدة واحدة من هذه الدول تحت مظلة "الفكر الإسلامي" وكان زعيمًا يعمل على تحقيق هذه الفكرة، كما كان زعيمًا لمسملي اليابان آنذاك، وقد رأى أن تحقيق هذه الفكرة، يبدأ بتقوية العلاقات بين اليابان وجزيرة العرب، التي وحد أجزاءها الملك عبدالعزيز - طيب الله ثراه - ومن هنا وضع الرجل أمله في الملك عبدالعزيز، ونصح الحاج نور تناكا مسلمي اليابان بضرورة بذل الجهود لدعم العلاقات بين اليابان والمملكة العربية السعودية.

ومؤلف هذه الرحلة (ياباني في مكة) أديب مسلم صاغ عباراته بأسلوب أدبي سهل واستعان بالصورة الأدبية لتسهم في نقل المشاهد والمواقف ورصد الحوادث بما يتخللها من إثارة وحوار.

ولما كان المؤلف يابانيًا مسلمًا، فلا عجب أن يدمج في سياق تعبيراته، آيات من الذكر الحكيم، أو تعبيرات جرت على ألسنة المسلمين، إذا ما استلزم الحال ذلك، وكم من مرة غلبت عليه المشاعر الفياضة، ففاضت على أسلوبه، فجاءت لغته رقيقة، عظيمة التأثير والإمتاع، والحقيقة أن الكاتب جعل لرحلته قيمة

أدبية، بما عرضه فيها من أساليب، ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني.

لقد رسم المؤلف في كتابه هذه صورة للملك عبدالعزيز الذي شاهده عن قرب، والتقى به، وقد خصه الملك دون غيره من الحجاج باللقاء أطول وقت ممكن، بل أوقفه بجانبه، طوال مدة مصافحته لوفود العالم الإسلامي التي قدمت للسلام على جلالته في الحج وقد رسم، المؤلف للملك عبدالعزيز صورة دقيقة الملامح، جميلة القسمات، خطها بأصدق الكلمات، وأوضح العبارات، دون رياء أو مجاملات.

فكاتبنا مسلم قطع آلاف الأميال، وصل من أقصى الأرض، يسعى لأداء فريضة الحج، حاملاً بداخله عاطفة إسلامية جياشة، يفكر في أحوال إخوانه المسلمين مهما اختلفت جنسياتهم، ويراقب تصرفات أعداء الدين، مهما تنوعت أساليبهم، فرأى أمامه ملكًا قوي البنيان، في قلبه حنان الأب، وفي عينيه بريق الأمل، وعلى وجهه ارتسمت صورة كفاح السنين، ذلك الكفاح الذي شكل شخصية الملك عبدالعزيز ليصير قائدًا للعرب وللمسلمين.

تأثر الحاج محمد صالح (سوزوكي تاكيشي) بعد أن شاهد الملك عبدالعزيز فوصفه في كتابه بأنه: «رجل لا يقهر»، وبأن «النصر يواكبه حيث مشى، وأن النصر حليفه على جميع أعدائه»، وغلبت المشاعر على الكاتب، وهو يصافح الملك عبدالعزيز،

فانهمرت الدموع من عينيه، رغمًا عنه، وتأثر الملك الإنسان وشعر بما يموج بداخل هذا المسلم الياباني من عواطف صادقة، فأمسك بيده، وأوقفه بجانبه، وهو يصافح بقية وفود العالم الإسلامي .. وكأن الملك عبدالعزيز أراد بهذا أن يزيد هذا الياباني المسلم شرفًا على شرف، وأدرك الياباني المسلم بفراسته ما قصد إليه الملك العظيم، فسطر ذلك على صفحات رحلته.

كتب عن حياة الملك عبدالعزيز الأولى، وعن كفاحه حتى استرد ملك آبائه، وتمكن من توحيد أجزاء البلاد، وتأسيس المملكة العربية السعودية الحديثة، وتحدث عن المؤتمر الديني وعن المنتجات اليابانية، وما سمعه من وفود البلدان الإسلامية نحو تطوير التجارة مع بلاده اليابان.

إن هذه الرحلة تعطي فكرة عن شخصية الياباني المسلم وعن عاطفته الدينية، ومحبته للأماكن المقدسة وتقديره للملك عبدالعزيز، وقد تجلت قدرة المؤلف على توظيف ثقافته وأسلوبه في صياغة المواقف والمشاهد صياغة لا تبتعد عن الواقع بقدرة ما تمنحه الصدق وقيمة الأسلوب الأدبي الجمالية، وهي جديرة بالاهتمام لأدبيتها من ناحية ووثائقيتها من ناحية أخرى. وتصويرها لرحلته إلى الحج حيث كانت تهفو نفسه وتتطلع لأداء هذه الفريضة، متجشمًا وراضيًا كل مشقة في سبيل أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، حيث تحدث عن ذلك في مشهد مؤثر وبذلك كانت رحلته مفعمة بالمواقف وبعينه الراصدة لكل ما

شاهده ورآه يحكي أحوال المسلمين متحدثًا عن الحج ومناسكه وهو في كل ذلك يبدع في الوصف والتصوير على نحو ما رأيناه وقرأناه في رحلته.

رحلة محمد بهجت البيطار ١٣٦٣هـ

قام بهذه الرحلة أحد العلماء الأعلام هو الشيخ محمد بهجة البيطار بحاثة وعلامة ولد سنة ١٣١١هـ، بدمشق عمل في المملكة العربية السعودية عدة سنوات مديرًا لدار التوحيد في الطائف، ومن قبل المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة، وله عدة مصنفات وتوفى سنة ١٣٩٦هـ، وقد كانت أول رحلة له إلى هذه الديار في سنة ١٣٣٨هـ، وتعرض لبعض المخاطر والمتاعب وأصدر الرحلة النجدية الحجازية سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، وفيها وصف لتلك الرحلة. وقام برحلة ثانية في هذه البلاد سنة ١٣٦٣هـ حيث زار الرياض والمدينة المنورة ومكة المكرمة بدعوة من الملك عبدالعزيز رحمه الله وأشار إلى حجه ووقوفه بعرفات يوم الجمعة ٩-١٢-١٣٦٣هـ، وهكذا يتبين أن أدب الرحلات استأثر بالاهتمام وعني به أعلام بارزون عبر مراحل التاريخ ماضيا وحاضرًا فهو فن متميز ومعلم بارز وأثر حيوي من معالم الثقافة والتاريخ والمعرفة. وإن أدب الرحلات حينما يتصدى له العلماء والمفكرون فإنه يظل مخصبًا وذا عطاء عظيم وغزير بحيث يبرز فيه الجانب التصويري والسياق الأدبي والتحقيق العلمي والبحث التاريخي والاجتماعي ونستعرض ما دونه الشيخ بهجت البيطار حيث يبدأ حديثه بعد أن وصف رحلته قائلاً:

المسجد الحرام هو مهد الإسلام ومطاف المسلمين فما يظهر فيه من ألفة ومحبة يفوح شذى عرفه في سائر الأقطار الإسلامية فيكون له أجمل وقع في نفس كل مسلم غيور على دينه وأمته، فلا عجب إذا لبى المسلمون هذا النداء واستجابوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم، ويبث روح المودة والإخاء فيهم، ويقيهم خزي التقاطع وفشل التنازع، ولئن تناءت بلادهم وتعددت أجناسهم فقد جمعتهم راية القرآن ووحدتهم كلمة الإسلام.

ويبرز صورة هذه الرحلة الإسلامية المختلفة المظهر المؤتلفة الجوهر حيث يقول:

الله أكبر ما أجل رؤية الحجاج محرمين وملبين، وما أجمل لبس الإحرام الأبيض الذي يشف عن بياض القلب ويكشف عن سلامة الطوية والصدر، ولله درهم طائفين وعاكفين، وراكعين ساجدين، ساعين بين الصفا والمروة من شعائر الله، ومتعارفين متعاطفين في بيت الله، ومجتمعين في دروس العلم والإرشاد، ومحسنين إلى ذوي الفاقة والقصاد ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١٥].

ويهفو قلب صاحب الرحلة إلى هذه الأماكن المقدسة وما تحفل به من العبق الإيماني قائلاً:

لقد شهدتم هذه الأماكن المقدسة، التي هي على تقوى من الله ورضوان مؤسسة، وهي التي لا يسفك فيها دم، ولا يروع فيها مسلم، ولا يُنفّر له صيد، وقد جعل الحج المبرور ماحياً للذنوب

والخطايا، موجباً لدخول الجنة بسلام، قال تعلى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عِمرَان: ٩٦-٩٧] وقال النبي ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن النبي ﷺ: «من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

ويواصل الحديث في وصف الحج ومقاصده وأن هذه المناسك التي يؤديها الحاج لتكشف عن نواحي العظمة في هذا الدين حيث يقول:

الحج هو مؤتمر المسلمين العام الذي يعقد كل عام في منزل الوحي، وفي ذلك البلد الأمين، وفي مكة والمدينة في حرم الله وحرم رسوله يتلاقى المسلمون على بعد الديار واختلاف الأجناس، وتباين الألسنة والألوان، وتفاوت الأخلاق والعادات، والكل قاصد إلى ربه، تائب من ذنبه، راج لثوابه، خائف من عقابه، يسعى لمرضاة الله، تاركًا زخرف الحياة، يلي طائعًا، ويكبر خاشعًا، ويدعو ضارعًا، يجتمعون هنالك وكلمة التوحيد تجمعهم، وراية الإسلام تظللهم، ولغة القرآن تربط بعضهم ببعض، تجمعهم أواصر المودة والرحمة ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحُجرَات: ٨].

ويفيض في الحديث عن أعمال الحج والاستجابة لنداء الله وكلما أمعن الإنسان فيه النظر تكاثرت أمامه الحكم والعبر فيقول:

فلا عجب إذا لبى المسلمون هذا النداء، واستجابوا لله

وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم، ويبث روح المودة والوئام فيه، ويقيهم ضرر التقاطع، وفشل التنازع، وقد افتتح تعالى الآية الأولى بذكر محاسن البيت وعظم شأنه، فوصفه بأفضل الصفات، منها أنه أسبق بيوت العالم إلى عبادة الله تعالى وأنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبركُ منه ولا أكثر خيرًا، ولا أدوم ولا أنفع للخلائق، وإن شطت بالزائرين الديار، وتناءت بهم الأقطار.

وقد جعل الله الكعبة قبلة للمسلمين، واختار لها البلد الأمين.

فالحمد لله الذي جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمنًا، وجعل الحج من بين أركان الإسلام فريضة العمر وأكمل تعالى به الدين، وأتم به النعمة، وأنزل على نبيه صلوات الله عليه وسلامه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣].

وإنما نزلت هذه الآية يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر، والنبي ﷺ بعرفات على ناقته العضباء.

ويواصل الحديث عن هذه الرحلة الإيمانية وما تنطوي عليه وتهدف إليه هذه العبادة الحج فيقول:

وحكم الحج كثيرة، وفي كل واحد من أعمال المناسك تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر، وقد شرف الله البيت الحرام بالإضافة إلى نفسه، ونصبه مقصدًا لعباده، وجعل ما حوله حرمًا لبيته لأمره، وأكد حرمة الموضوع بتحريم صيده وشجره، وفي الطواف بالبيت

تشبه بالملائكة المقربين، الحافين حول العرش، الطائفين حوله، وما القصد طواف الجسم فحسب، بل طواف القلب بذكر الرب، وفي السعي بين الصفا والمروة إظهار للخلوص في الخدمة، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، وفي الوقوف بعرفة وازدحام الخلق وارتفاع الأصوات، باختلاف اللغات تذكر لاجتماع الأمم بين يدي الله تعالى يوم القيامة، وفي رمي الجمرات طاعة للرحمن وانقياد لأمره، وإرغام للشيطان وقصم لظهره.

هذا قليل من كثير من مقاصد الحج وحكمه وفوائده.

الله أكبر!

ما أفضل الحج وشد الرحال إلى المسجد الحرام في البلد الحرام، موطن الرسول ومهبط الوحي ومطلع النور، وعاصمة الإسلام ومهوى أفئدة بنيه، ومجتمع المسلمين كل عام من جميع أقطار الأرض، على تعدد أجناسهم، وتنوع لغاتهم وتنائي بلدانهم، يجتمعون هناك وكلمة التوحيد تجمعهم، وراية الإسلام تظللهم، ولغة القرآن تربط بعضهم ببعض، يجتمعون ليشهدوا منافع لهم روحية وجسدية، دينية ودنيوية، وليُحكموا بينهم أواصر المودة والرحمة.

ويسترسل في الحديث وهو يرى الحجاج محرمين قائلاً:

ما أجمل رؤية الحجاج محرمين وملبين، ولله درهم طائفين وعاكفين، وراكعين وساجدين، وساعين بين الصفا والمروة من شعائر الله، متراحمين في بيت الله.

الله أكبر!

ما اعتزموا شد الرحال إلى مسجد الرسول وأداء الصلاة فيه، وزيارة مسجد صفوة العالم، وسيد ولد آدم، سيدنا محمد ﷺ.

جعل الله البيت العتيق مثابة للناس وأمنا، وإنك لتجد من الأمن في الديار السعودية ما يذكرك بعهد الخلفاء الراشدين، والملوك العادلين، وحسبك أن زوار مسجد رسول الله ﷺ يفدون إليه الآن زرافات ووحدانًا ولو ذهبت امرأة وحدها لكانت آمنة على نفسها ومالها وعرضها.

وهذه الطائرات توصل قاصد البلاد المقدسة في ساعات، وهذه السيارات تطوي البيد طيًا، وتحمل وفود الحج من ساحل جدة إلى مكة كل يوم بكرة وعشياً، وقد قرّبت البعيد، وخففت المشقة - لا سيما على العاجز والضعيف - وصار الركب من جدة إلى مكة يصل في أقل من ساعتين، من بعد ما كان يطوي في الطريق مرحلتين، ويركب من جدة إلى المدينة في بضع عشرة ساعة، من بعد ما كان يسير في الطريق بضعة عشر يومًا، ويبلغها جوًا في أقل من ساعتين، فبشرى لحجيج بيت الله الحرام بشراهم اليوم.

وهكذا جاءت هذه الرحلة مفعمة بالعبق الإيماني الجميل حيث نجد الشيخ البيطار قد استحضر الصور المطلوبة في هذا الموقف متخذًا من الإرشاد والتوجيه سبيلاً إلى الإصلاح وهكذا نجد أثر الرحلات في أحاديث وكتب الكثيرين من العلماء والأدباء وذكر ما

شاهدوه من وصف للحج والأماكن المقدسة حيث تتجلى رحلة الحج من خلال رؤية الرحالة، ولقد أمد الكثير من الرحالة الثقافة العربية بثروة فكرية وعلمية وتاريخية وجمعوا قدرًا كبيرًا من المعلومات وكتبوا الرحلات التي قاموا بها والرحلات كما يقال شيء ثابت ينشرون العلم والدين والمعارف والآداب والفضائل خلال رحلاتهم وما زالت آثارهم باقية خالدة في تاريخ الأدب والحضارة الإسلامية فأسهموا بذلك في خدمة العلم والفكر والوعي وتنوير الأذهان عن الحج ومناسكه وشعائره وما يتصل به من مشاهد ومواقف نجد كل ذلك مبثوثا في تلك الرحلات.

رحلة عبدالقادر الجزيري ٩٤٠هـ

وصف رحلته في كتاب (الدرر الفرائد المنظمة في أخبار وطريق مكة المعظمة) والذي نشرته دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر سنة ١٤٠٣هـ

ومؤلفه «عبدالقادر بن عبدالقادر الأنصاري الجزيري الحنبلي» من أهل القرن العاشر الهجري.

لقد اهتم بأمور الحاج وأخباره خلال عشرة قرون ووصف طريق الحج إلى مكة المكرمة وحرص على تدوين وتحقيق كل ما يتعلق بالحج إلى بيت الله الحرام، ومن ذلك الطريق المؤدية إلى مكة المكرمة من مختلف الأقطار الإسلامية، ولعل أوفى ما كتب من وصف الطرق هو ما يتعلق بطريق الحج من القاهرة إلى مكة المكرمة عن طريق سيناء، فالعقبة، فساحل البحر الأحمر إلى ينبع، فالمدينة المنورة، فمكة المكرمة.

وهذا الكتاب كما يقول محققه الشيخ حمد الجاسر، شامل كاسمه في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، وقد تضمّن وصفًا لرحلات مؤلفه من القاهرة إلى الحج بطريق الساحل، فهو من هذه الناحية يدخل في نطاق رحلات الحج وقد قدم للكتاب بمقدمة طويلة تحدث فيها عن الكتاب ومخطوطات الكتاب وطريقة النشر.

ويُعدُّ هذا الكتاب أوفى كتاب عن أخبار الحاج والحجاج خلال عشرة قرون، أوفى الكلام فيه على ما يتعلق بإمارة الحج في آخر عهد ملوك الجراكسة (المماليك) وأول عهد العثمانيين إلى ما بعد منتصف القرن العاشر الهجري، ووصف طرق الحج إلى مكة المكرمة وفصل الكلام بصفة خاصة على طريق حاج مصر، ومن يأتي مع ذلك الطريق البري من القاهرة إلى مكة المكرمة مجتازًا بصحراء سيناء إلى العقبة في الأردن، فساحل البحر الأحمر إلى ينبع في السعودية فضبط أسماء المواضع وحدّدها، ووصف المناهل (المياه)، وقدّر المسافات بينها، وسمي العرب بتفصيل بطونهم وأفخاذهم، وذكر بعض مشاهيرهم، ودوّن بعض الحوادث المتعلقة بأولئك في ذلك العهد، وكان في كل أولئك يعتمد على مشاهداته وما عرفه عن ذلك الطريق الذي أكثر الترداد في السير فيه. وعلى هذا فتكون هذه الرحلة قد زخرت بمعلومات تاريخية واجتماعية واشتملت صنوفًا وفنونًا من القول في هذا المجال ومعلومات مفيدة.

ويعد الكتاب أيضًا سجلاً لحوادث حقبة من الزمن، حيث سجّل فيه جوانب مهمة وافية تتعلّق بتاريخ مكة المكرمة وحوادث الحج، وصوّر كثيرًا من المآسي التي كانت تقع من عمال الخلافة العثمانية مما شاهده المؤلف بنفسه أو عَلِمه لقوة صلته بهم مما قلّ أن يوجد في غير هذا الكتاب كما يقول محقق الكتاب.

وقد أُلِّف هذا الكتاب في عصر اتسم بالجمود الفكري وانتشار البدع والخرافات في العالم الإسلامي، وقد نبّه عليها الجاسر في

الحواشي.

ويعد الكتاب وثيقة تاريخية لدارسي التاريخ حيث تحدث عن أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة ويعد فريدًا في موضوعه كما يقول ناشره الشيخ حمد الجاسر، وضم الكتاب سبعة أبواب وواحدًا وثلاثين فصلاً ومقدمة في ثماني صفحات، وقد حوى الباب الأول سبعة فصول، وفيها ابتدءاً بيت الله الحرام وفضله وشرفه، وما ورد في فضائل الحج والعمرة، وشرائط وجوبها، وفي أخبار مكة وما كان بها من قبائل العرب، وفضل العرب وأقسامهم، وولاية قريش للكعبة، وأسواق مكة.

وحوى الباب الثاني أربعة فصول وفيها: كيف حجّ رسول الله ﷺ وذكر إمرة الحاج وبيان ما يجب أن يتصف به الأمير، وذكر المناصب التابعة لإمرة الحاج.

واحتوى الباب الثالث فصلين طويلين وهما في فتح مكة المشرفة، وفي ذكر من ولي إمرة الحاج منذ عهد رسول الله ﷺ إلى عام ٩٧٢هـ، وأهم حوادث مكة المكرمة مرتبة على السنين، وذكر أحوال الحج والحجيج متتابعة على السنين من عام ٩٠١هـ حتى نهاية ٩٧٢هـ مع ذكر الحوادث بالديار المصرية والقاهرة.

ثم الباب الرابع وفيه ثلاثة فصول: في تجهيز الحمول وما جرت العادة بحمله من ذلك بطريق الحج الساحلي: الطور - السويس - عقبة إيله (العقبة) - ينبع - جدة.

الباب الخامس وفيه ثمانية فصول وهي في ذكر المنازل

والمناهل على وجه التفصيل، وقياس المسافة بين مكة وغيرها من البلدان بالبرد والفراسخ، وذكر طوائف العربان منزلاً بمنزل ومنهلاً بمنهل، وبدر ومن بها من الشهداء، والإحرام من رابغ، وما يجب شرعًا من المناسك وما يستحب، وذكر محظورات الإحرام، وفيها ذكر مكة المشرّفة وحدود الحرم، وذكر أمراء مكة وذكر ولاتها منذ الفتح الإسلامي وبعض الوقائع التي حدثت فيها، وذكر بقية المراحل من المدينة إلى غزة أو مصر.

الباب السادس وضم ثلاثة فصول، وهي في ذكر المدينة المنورة وأسمائها ومشاهدها ومعاهدها، وذكر الهجرة النبوية، وذكر بقيع الفرقد، وفضل أُحد والشهداء به، وذكر سور المدينة، وفي فضل زيارة مسجد النبي وما ورد في ذلك.

الباب السابع وهو خاتمة الأبواب، وفيه أربعة فصول تبحث في ذكر بعض من حجّ من الأعيان ومن الصحابة، والخلفاء والملوك والوزراء وأكابر الأمراء وأماثل العلماء والصلحاء، وأجلاء الفقهاء والكتّاب، ومشايخ العربان ممن له شهرة في ذلك الزمان، وألحق الناشر بالكتاب فهارس حاوية لموضوعات الكتاب.

وقد ترجم للمؤلف قائلاً: هو عبدالقادر بن محمد الأنصاري الجزيري (نسبة إلى الجزيرة الفراتية بالعراق): مؤرخ مصري مغمور، ولد سنة ٩١١هـ، وكان في أول أمره يتعاطى التجارة مع اشتغاله بطلب العلم، وكان يحج مع أبيه مساعدًا له، وفي سنة

٩٤٠هـ، عمل مع أبيه في وظيفة كاتب (ديوان إمرة الحاج) حتى توفي أبوه، فاستقلّ بعده في العمل حتى قارب الخمسين عاما ووضع القواعد التي يعتمد عليها في أمور الحاج ومهماته، وصحب الحاج كثيرًا، وكان حنبلي المذهب، وكانت له صلة قوية بعلماء مكة، وتوفي نحو عام ٩٧٧هـ من مؤلفاته (خلاصة الذهب في فضل العرب) و(عمدة الصفوة في حل القهوة).

ولقد حرص الناشر أن يخرج الكتاب على خير صورة يستطيع إبرازه بها تتفق مع عمل مؤلفه، فحاول التثبت من صحة ما فيه من نصوص.

وبالجملة فإن جهد محقق الكتاب وناشره كان كبيرًا وموفقًا فالكتاب حافل بما سجله في ثناياه من الشواهد والانطباعات، وحوى وصف طريق الحج وأخبار الحاج وذكر العلماء والأمراء وذكر أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم وذكر من حج من الصحابة والخلفاء والملوك وبناء البيت العتيق وشرفه ومعنى الحج والعمرة وما يتعلق بالشروع فيها وذكر من حج من الملائكة والأنبياء وأخبار مكة ومن كان بها من قبائل العرب كما تحدث عن مِنى، وعرفات والمشاعر وإمرة الحاج ورواحل الحجاج وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالحج والحجاج وأهم الحوادث في مكة المكرمة مرتبة على السنين، وغير ذلك من المعلومات المفيدة التي لا يستغني فيها أي باحث في هذا المجال.

رحلة الدكتور عبدالوهاب عزام ١٣٥٧هـ

هذه رحلة قام بها الدكتور عبدالوهاب عزام رحمه الله وهو يتحدث فيها عن مقامه في منى حيث يقول بأسلوب جزل أدبي متين ولغة صافية سليمة:

هذا ثاني أيام التشريق، ومنى غاصة بمضاربها، قد اجتمع إليها الحجيج من أرجاء الأرض، واختلط فيها وفود المسلمين من كل الأقطار، تجاورت القباب، واشتجرت الأطناب، وتمعجت السبل بينها تجور بالسائر، وتعدل بالسالك، إن لم يكن خيرها وعرف بالعلامات مسالكها، إلا مهيعًا بتوسط البقعة تُفضي إليه المسالك فيقصد فيه السابل على بيّنة.

زخزتْ منى بالحجيج، وازدحم الموسم بأهله، وقد أدَّينا بحمد الله المناسك، ولم يبق إلا رمي الجمار، وهي أمر لا يشغل نزّال منى إلا قليلاً، فهناك سعة للتزاور والتعارف، وهناك فسحة لتبادل الآراء والتشاور في خطوب المسلمين.

خرجت في رفاقة بعض الإخوان أبتغي زيارة بعض الأجلاء من العلماء ورغبت أن أرى من وجوه المسلمين وجهًا معروفًا في مجامع الحج منذ سنين لا يخلو منه موسم، ولا يجهله محفل. وقد رايته في عرفات ضاربًا مخيمه على الجادة، فنزلت إليه في نفر من

رفقائي حجاج الجامعة، وأنسنا به حينًا، وبينا أنا بالمشعر الحرام من مزدلفة، رأيت خطيبًا واعظًا يتكلم على جماعة باللغة الأردية، فدلفت إليه فإذا هو ذلك الوجه المعروف غير المنكر، وأنا أرجو ألا يفوتني في منى لقاؤه، ومضربه في منى أرفع المضارب، يلوح للسائر عاليًا متميزًا تخفق عليه رايته. فليس على من يبغي المسير إليه إلا أن يذهب إلى مسجد الخيف، ثم ينظر إلى سفح الجبل ليرى فسطاطًا كبيرًا قد احتلّ من السفح مستوى لا يتسع لغيره، فليس هناك فسطاط سواه. فإذا تأمّله أبصره، فعرف أنه منزل أحد العلماء.

أخذت سمت المكان حتى قاربت المسجد فلقيني جماعة من حجاج الجامعة والأزهر، فصعدنا إلى الفسطاط في شرف يطلّ على الموسم كله، وينظر إلى مسجد الخيف من كتب لبثنا قليلاً ثم هبطنا إلى فجوة بين الصخور تسمى غار المرسلات، فوقفنا وقفه قضينا بها حق الذكرى العظيمة، ثم سرنا مصعدين في الجبل وهو جبل شاهق أدكن عظيم الصخور، كثير القَلَع. فما زلنا نصعّد حتى لاح رائعًا! فهذا مسجد الخيف وهو مسجد بري معطّل من الزينة وفراشه الحصباء: بناء كبير تحيطه جدران مديدة بيضاء، يتوسط صحنه الفسيح مصلى عليه قبة ومنارة، وفي جانبه القبلي سقيفة على الثلاثة عقود وقد راقني منظره من سفح الجبل تتجلى فيه فطرة الإسلام وطبيعة البداوة، ثم يفيض في الحديث والوصف للمشاعر المقدسة قائلاً:

وهذا المحصَّب عن شمالنا حيث العقبات الثلاث التي ترمي

فيها الجمرات وإلى اليمين يمتدّ وادي منى بين سطرين سطرين من الجبال الشاهقة يساير فيه الطرف أسراب الخيام إلى أن يكلّ. وهناك تبدو دار الملك عبد العزيز التي ينزلها أيام الموسم. وهنالك بناء أبيض يلوح بين الأشجار هو (السبيل): مورد عذب يستقي منه الحجاج، يزدحمون عليه النهار كله وطرفًا من الليل، وإنها لمبرة عظيمة، ويواصل حديثه قائلاً:

وأما الجبل الشامخ الذي يمتد على جانب الوادي الأيسر فهو ثبير. وكم ردد التاريخ والشعر ذلك كثيرًا.

ترافدت الذكرى وتوالت العبر في هذه البقعة المقفرة التي تخصب بالجماعات كل عام من عهد الجاهلية، فكأني بالقبائل تلتقي تناشد الأشعار، وتتفاخر بالأحساب، ويضعون عنهم العداوة والحرب إلى حيث، وقد تغلبهم الضغائن فيفاجأ بعضهم بعضًا غير مراعين حرمة الشهر والمكان، كما أغارت هوازن على خزاعة بالمحصّب من منى؛ فقال أحد بني عدوان:

غداة التقينا بالمحصب من منى فلاقى بنو العنقاء إحدى العظائم

وكأني بهم ينحرون ويذبحون ويضيفون ويطعمون، ويشرِّقون بقايا اللحم على سفح الجبل.

وكأني بفتيان وشعراء مكة في الجاهلية والإسلام يقضون حق المكارم والفتوة، يضيفون ويطعمون، ويشيدون بالمفاخر ويتناشدون الشعر ويتناقلون الأخبار، وينزع بهم الشباب فيتغزلون ويرون في الموسم على جلالته وحرمته شملاً من الأحباء يجتمع،

وشملاً يفترق، فيشيد الشعر بفرحة اللقاء ولوعة الفراق؛ فهذا عمر بن أبي ربيعة يقول:

نظرت إليها بالمحصب من منى ولي نظر لولا التحرج عارم
فقلت: أشمس أم مصابيح بيعة بدت لك خلف الستر أم أنت حالم
بعيدة مهوى القُرط إما لنوافل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

ومن قبل تذكّر المجنون في هذا لمكان ليلاه:

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى
فهيج إطراب الفؤاد ومن يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما
أطار بليلى طائرًا كان في صدري

ورحمه الله جريرًا! كان أرشد من هؤلاء لقيه الفرزدق فأنشده:

فإنك لاقٍ بالمنازل من منى
فخارًا فخبرني بمن أنت فاخر؟

فقال جرير: «لبيك اللهم لبيك».

نبهتني تلبية جرير فقلت: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إلخ. كم في هذه الخيام من قلوب وردت هذه المشاهد ورود القطا الظمأى! وكم من نفوس هجرت خفض العيش إلى مشقة الأسفار، وغربة الديار، لتنعم بالذكر والتوبة في هذه البقاع المقدسة، لو نفض كل قلب هنا آماله وآلامه لسامت هذه الجبال جبال من أحزان البشر وأمانيهم حملها أصحابها إلى سدّة الخالق

العظيم يستغفرون ويتضرعون، ويسترجمون ويتذللون. سرائر لو اجتمعت في هذه الساعة لتمثل فيها تاريخ البشر. لو اجتمعت! لو تشاكي أصحابها وتناجي أربابها! لو تشاكي المسلمون في هذه البقعة وبث بعضهم لبعض خبايا قلبه، وتشاوروا فيما يخزبهم! أجل، هذه خيام مجتمعة، وجماعة مختلطة، وبينها تعارف وتزاور، ولكن أين هذا مما يريد الإسلام نريد؟

طالت بي الوقفة وأصحابي على مقربة مني! قلت: هذا أمر له غير هذه الوقفة. ثم التفت فإذا أعرابي بجانبي تفتر شفتاه عن أسنان ناصعة وفي فمه عود. قلت: ما هذا؟ قال: بشام. قلت، الذي يقول فيه جرير:

أتذكر إذا تودّعنا سليمي بفرع بشامة؟ سُقى البشام

قلت: وما هذا؟ مشيرًا إلى شجرة صغيرة من الشجر الذي يسمى السنط في مصر. فقال: سَلَم. فتذكرت قول القائل:

ويومًا توافينا بوجه مقسم كأن ظبية تعطو إلى وارق السلم

وقول الحجاج: والله لأعصبنك عصب السلمة إلخ ..

قلت: أتستطيع أن تأتينا بأعواد من البشام؟ قال: إنه على الربع الآخر، وأشار إلى الجبل يعني سفحه الآخر. فتذكرت الآية الكريمة: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٢٨]، والريع المكان المرتفع. قلت لأصحابي: لو اتسع الوقت لأخذنا كثيرًا من اللغة عن هذا الأعرابي. فمن كان يظن أن هذه ألفاظ ميتة في المعاجم فليعلم أنها لا تزال حية في أفواه كثير من العرب.

وحان الرجوع فرجعنا إلى الخيام في منى.

وبعد: فهذه صورة أدبية ذات خصائص أسلوبية غنية بالمشاعر والصور يرسمها لنا في رحلته ومشاهداته ينتظمها نسق فكري واحد ووحدة موضوعية يوحي بها جلال المكان والساحات المقدسة والبقاع المطهرة، ويهتف بهم داعي الشوق والحب والحنين إلى مهوى أفئدة المؤمنين والصالحين، وكلما سعى الناس بين الصفا والمروة وكلما شربوا من ماء زمزم.

وهكذا يدخل المسلمم في نسك الحج فيجد السلام والأمن زمانًا ومكانًا وإحرامًا ولا ينتهي من شعائره ومناسكه حتى يتذوق نعمة الإسلام والأمان فقهًا وأدبًا وممارسة وصدقًا. والمتأمل في فريضة الحج في أعماق الزمن يرى عجبًا ويزداد إيمانًا؛ فهي نموذج للترابط والصلاة والتآخي بين المسلمين على الرغم من اختلاف الأقوام والأوطان.

رحلة عبدالله كنون ١٣٧٦هـ

باستعراض كتب أدب الرحلات يتبين أن الأندلسيين والمغاربة لهم علاقة من نوع خاص بالديار المقدسة كونت تراثًا أدبيا ضخمًا حواه أدب الرحلات لهذه الديار لعدد من الرحالة الكبار حيث جعلوا من القيام بفريضة الحج حافزا للطواف حول العالم ضمنوها انطباعاتهم التي تعد من أدق المعلومات الجغرافية والتاريخية والأدبية وإن الحج بالنسبة للحجاج رحلة دينية سامية الغايات وهي أمنية العمر ومناط الأمل. ونلتقي مع الأستاذ عبدالله كنون رحمه الله حيث قام بتسجيل رحلة إلى هذه الديار وهو أحد العلماء الأفذاذ والمحافظين على اللغة العربية وآدابها ورائد الأدب المغربي المعاصر، وهو شخصية معروفة في العالم الإسلامي والعربي، له ما يزيد عن مائة بحث مطبوع في شتى الفنون، ولد بفاس عام ١٩٠٨م وتتلمذ على والده العلامة محمد كنون وعلى أعلام مدينة طنجة حفظ القرآن الكريم وعمره اثنتا عشرة سنة، ونظم الشعر وعمره إحدى عشرة سنة، تولى أعمالاً علمية وترأس تحرير مجلة "لسان الدين" بتطوان بتعاون مع د. تقي الدين الهلالي وصحيفة الميثاق لسان رابطة علماء المغرب، وعضوا عاملاً في عدة مجالس علمية عربية وإسلامية، ورئاسة تحرير مجلة لسان العرب، توفى رحمه الله يوم ٣١ ذي الحجة ١٤٠٤هـ الموافق

٩ يوليو ١٩٨٩م. من أهم مؤلفاته "النبوغ المغربي في الأدب العربي - ومشاهير رجال المغرب - وأحاديث عن الأدب المغربي - وأدب الفقهاء".

وقد نشر رحلته الحجازية ضمن كتابه (تحركات إسلامية) وفي مقدمة كتابه تكلم عن أنواع أدب الرحلة وقال: «الكتاب الذي بين يدي القارئ هو ما يتصل بغالب هذه الأغراض، ففيه من السفارة نصيب، والحج أهم مقاصده، ولقاء برجالات الإسلام والعمل معهم يدا بيد على ما فيه خير الملة والدين، مما هو ثمرة العلم، وهو المحور الذي تدور حوله هذه الرحلات ولذلك أطلقت عليه اسم (تحركات إسلامية)، وهو كتاب في أدب الرحلات، وقد دون فيه مؤلفه رحلته الحجازية على رأس البعثة الرسمية التي أوفدها جلالة الملك الراحل محمد الخامس إلى الملك سعود سنة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

كان سفره إلى الحج بحرًا على متن باخرة انطلاقًا من ميناء طنجة إلى مرسليا وبور سعيد، ووصولاً إلى جدة التي أقام فيها ثلاثة ايام كانت مليئة بالنشاطات والاتصالات، وعن أبرز الشخصيات التي التقى معها في مدينة جدة قال: «هذا وقد اجتمعنا في ججة بعالمين جليلين، طالما سمعنا بهما وتمتعنا بآثارهما، وهما الشيخ عبدالعزيز الميمني والأستاذ خير الدين الزركلي، أما الشيخ الميمني فقد هبط الحجاز حاجًا مثلنا، وأما الأستاذ الزركلي فقد قدم من مصر للاتصال بالملك سعود، ومن المعلوم أنه كان مندوبًا لجلالته لدى الجامعة العربية، وعين أخيرًا سفيرًا

للمملكة العربية السعودية في المغرب، وكنا علمنا بهذا ورحبنا به، فوجدناه مبتهجا مسرورًا، وتجاذبنا وإياه أطراف الحديث، وكذلك تحدثنا إلى الشيخ الميمني، أحاديث علمية مفيدة، ووصف المشاهدات الجغرافية والعمرانية.

وعلمنا أيضًا بوصول صديقنا الأستاذ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، فابتهجنا بلقائه، وكنا إليه بالأشواق إذ كانت صلتنا به أيام مقامه في المغرب، قوية جدًا، وترك في أنفسنا فراغًا لا يسده غيره.

وكنا نتوق إلى التعرف برجل جدة وفاضلها الشيخ محمد نصيف، فقد طالما حدثنا الصادرون والواردون عنه ورأينا كثيرًا من الكتب التي قام بنشرها انتصاراً للدعوة السلفية وتمكينا لها في البلاد الإسلامية ولكنه مع الأسف لم يكن في جدة آنذاك، بل سافر إلى الشام للاصطياف هناك، وقد قابلناه في مصر عند سماحة مفتي فلسطين، وبعد زيارة صاحب الرحلة لمكة المكرمة والمسجد الحرام والمشاعر المقدسة ووصف ما في الحج من مواقف ومشاهد والالتقاء بالعلماء انتقل إلى المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام حيث يقول:

امتطينا الطائرة المتجهة صوب المدينة المنورة، وكان ركوبنا لها قبل الفجر بقليل وإن كانت هي لم تنهض إلا بعد الأذان الذي سمعناه من مسجد المطار (وفي المطار مسجد)، وهكذا سرعان ما امتلأت جميع المقاعد التي كانت فارغة وطلعت الطائرة في الجو،

وكنا نحن على وضوء فمنّا من صلى في مقعده ومنا من انتظر النزول في مطار المدينة حتى يصلي على الأرض ولو في آخر الوقت لا سيما ومدة السفر أقل من ساعة، فما كان أسرع من انتشار نور النهار في أنحاء الأفق، وإذا بنا لا ننزل إلا وقد أقبل النهار من هاهنا وهاهنا، وفهمت كيف وقعت قضية الوادي التي وردت في الحديث إذ كان النبي ﷺ وصحبه الأكرمون على أهبة لصلاة الصبح . . .، وهم ينتظرون طلوع الفجر وقد ضربتهم الشمس .. إن ما بين الفجر هنا والشروق متقارب جدًا، أليس هو الشرق؟.

وهبطنا الأرض واي أرض هي؟ إنها الأرض التي آوت رسول الله ﷺ فلم يبغ بها بديلاً بعد، وكان يدعو الله أن يحببها إليه وإلى أصحابه من المهاجرين كحبهم مكة مسقط رؤوسهم أو أشد، إنها الأرض التي عرفت دعوة الحق فأيدتها وناصرتها وأصبحت دار الإيمان الأولى كما قال الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحشر: ٩]، هي المدينة بل الحقيقة فلا مدينة غيرها، كما أنه لا مدنية (بفتح الدال) غير المدنية التي نشأت بين لابتيها، هي مدينة الرسول ﷺ مهبط الوحي وموطن الجهاد، وقرارة العلم الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، هي المدينة التي تثبت في كل لحظة صلة الأرض بالسماء، وصلة ساكنها عليه السلام بالرفيق الأعلى، فأين منها مدن الناطحين «للسحاب»؟

ويواصل حديثه عن طيبة الطيبة قائلاً:

الله أكبر، هذا أحد، الجبل الذي يحب الرسول ويحبه الرسول، وهذه قباء، حيث المسجد الذي أسس على التقوى، من أول يوم، وهذه هي القبة الخضراء يغمرها النور يتغمدها الرحمان، وتحف بها ملائكة السماء.

هذه دارهم وأنت محب مانعا للدموع في الأماق؟

ويفيض في الحديث بعد ذلك عن زيارة مسجد رسول الله وفي ذلك قال: «وقمنا نتجهز للزيارة الكريمة بتجديد الطهارة، لبسنا أحسن الثياب وأوقرها وطيبنا.

هذا هو المسجد الذي وضعت فيه أسس العلم الإسلامي كله والعلم الإسلامي يعني هذه الحضارة الزاهية التي عاش العالم ولا يزال يعيش في ظلالها موفقا بين مطالب الروح والجسد. وجامعا بين سعادة الدين والدنيا، هذا أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال لغيرها، ونحمد الله أننا لم نخالف عن هذا الأمر قط، طاعة لله ورسوله، هذا هو المسجد الذي الصلاة الواحدة فيه خير من ألف صلاة فيما سواه، فتعال بنا نغتنم هذا الفضل ونصلي تحية المسجد بهذه النية راجين القبول من المولى الكريم.

وانصرفنا إلى المواجهة الشريفة لا أستطيع أن أعبر عما خامرنا من شعور الهيبة والإجلال لذلك المشهد العظيم ووقفنا كأنما على رؤوسنا الطير، وخشعت أبصارنا، ووجفت قلوبنا، وكانت لحظة بمثابة العمر، انطلقت فيها ألسنتنا بالسلام عليه صلى الله عليه وسلم ودعاء الله عز وجل أن يجزيه عنا أفضل ما جزى

نبينا عن أمته، ثم السلام على صاحبيه وخليفتيه، الصديق والفاروق رضي الله عنهما ورجعنا بعده إلى المكان الذي قال فيه الرسول ﷺ «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» نرتع بما يناسبه من دعاء وتفكر، وقراءة وتدبر، وصلاة وزيارة لمعالم المدينة المنورة ومساجدها وآثارها ومشاهدها فجاءت رحلته هذه مكتوبة بلغة سهلة ملائمة لموضوعها وهو يصف ما يشاهده وصفًا حياً دقيقًا ويترك نفسه على سجيتها فلم يتكلف في عبارة ولا في فكرة ونراه يذكر ما داخله من مشاعر وأحاسيس إزاء بعض المواقف. فكانت رحلته عامرة بالعلم ومفعمة بالأمور الثقافية ومليئة بصنوف الآداب وجسد عبر هذه الرحلة المعاني العظيمة لرحلة الحج والذي فرضه الله على عباده لتبادل المنافع وللذكر والشكر ولأخذ العبرة والمثل فاللقاء في هذه الرحاب الطاهرة مجال عظيم وميدان كبير يتبارى فيه العلماء والخطباء والرحالة فيما يعود بالنفع والفائدة حيث يكتظ الحرمان الشريفان من كل عام بألوف الحجاج في غبطة وبهجة روحية عميقة ليؤدوا فريضة محتومة عليهم ويقوموا بركن من أركان دينهم الحنيف وأن يتطهروا من أدران الذنوب ويشهدوا منافع لهم من اجتماعية وأدبية ومادية.

وبالجملة فقد أفاض رحالتنا في وصف الإحساس والشعور الذي امتلكه وحرص على تسجيل كل ما يشاهده في مهبط النور ومهد الإسلام وبذلك تتجلى رحلة الحج من خلال رؤية الرحالة مع التحقيق والتدقيق في الرؤية ووصف دقيق وتصوير بديع بهذه البقاع الطاهرة التي دون المغاربة عنها الكثير في رحلاتهم وتطلعوا

إليها بشوق ولهفة.

ولقد ذكر ابن خلدون في مقدمته «أن رحلة المغاربة كانت غالباً للحجاز وهي منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم»، ولقد قرأنا العديد من أفواج الرحالين المغاربة الذين شدوا الرحاب إلى هذه الأماكن المقدسة وكل منهم كون صورة معينة عن هذه الرحاب الطاهرة والتي ترتفع دعوات المسلمين وتتجه إليها أنظارهم خمس مرات في اليوم؛ حيث دونوا انطباعاتهم التي تعد من أدق المعلومات التاريخية والجغرافية والاجتماعية والأدبية في كل ما وصفوه وذكروه خلال رحلات الحج حيث تعلقت قلوبهم بالمكان وشدهم العبق الإيماني الجميل، وكان الحج من أهم العوامل التي دفعت بهؤلاء وغيرهم من المسلمين لشد الرحال إلى مكة المكرمة وأداء الركن الخامس من أركان الإسلام.

رحلة محمد الأمين الشنقيطي ١٣٦٧هـ

رحلة الحج إلى بيت الله الحرام

استأثر أدب الرحلات باهتمام الكثيرين ولذا كان محل عناية العلماء وموضع اهتمام الأدباء والمؤرخين ونستعرض رحلة الحج إلى بيت الله الحرام للعلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله.

لقد ولد الشيخ رحمه الله في عام ١٣٠٥هـ في شنقيط وقام بهذه الرحلة من مسقط رأسه "فرو" من موريتانيا، ولقد اشتملت هذه الرحلة على مسائل علمية ومباحث فقهية فقد بسط فيها مباحث علمية وأدبية ولغوية وشرعية ولغوية وقد أشار رحمه الله إلى أنه قد فرغ من كتابتها في ٢٥ من رجب ١٣٩٩هـ وطبعت في عام ١٤٠٣هـ، وقد وهبه الله قدرة على التعبير ودقة في التصوير حيث بعض المواقع والمواقف وما يمر له مما يستحق الذكر والتسجيل بوضوح العبارة حتى يجعله كالمحسوس المدرك بالإشارة كما يقول كاتب مقدمة الرحلة الشيخ عطية محمد سالم رحمه الله وهو أحد تلاميذه لقد سجل معالم الطريق وأبرز ما شاهد من مرئيات بأدق وأصدق العبارات فقد جاءت هذه الرحلة مفعمة بالمعاني البالغة عذبة الألفاظ شيقة الأسلوب جمعت معارف كثيرة وطرائف عديدة وأشعار بليغة تمتع، ويقابل كل ظرف وحال بما يناسبه من صبر وتحمل واستئناس وتجمل، فهي بحق كحديقة غناء بها ثمار يانعة،

تمتع النظر وتثير الفكر وتورث العبر، ويجد كل ذي طبع ما يلائمه وكل ذي رغبة ما يوافقه.

فهي بحق ممتعة لكل قارئ: من أدب ونحو وفقه وأصول وتفسير وعقائد وبلاغة وشعر ومنطق وتاريخ.

ويقول الشيخ عطية محمد سالم إن هذه الرحلة التي أتشرف بالتقديم لها قد تميزت عن جميع الرحلات بما زخرت به من مباحث غاية في الدقة وآية في الروعة واشتملت صنوفًا وفنونًا كما أسلفنا كالروض أزاهير وأفانين، وسنوجز المقدمة بالقدر الذي يفيد قارئها ويشير إلى مباحثها ومحتوياتها كالعناوين المجملة ليكون على بينة منها.

بدأها ﷺ بمقدمة رائعة الخيال في براعة الاستهلال، وبيَّن الدوافع على السفر واقتحام العقبات وركوب الخطر، ومفارقة الأوطان وفراق الأخوان، وهو امتثال أمر الله حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عِمرَان: ٩٧].

ثم أخذ يسجل ما ألقي عليه من الأسئلة وما قدم عليها من الأجوبة بأحسن ما يقال في دروس تشد الرحال.

أول سؤال فيها: كان أول سؤال ألقى عليه من إحدى بنات عمومته عن اسم الجنس وعلم الجنس، والفرق بينهما وبين النكرة.

وهذا المبحث معروف عند النحويين والبلاغيين والأصوليين من أدق المباحث وأصعبها فهمًا، وكذلك سألته عن الفرق بين

الصفات النفسية وعن الموصوف وهذا المبحث من غوامض المباح عند المتكلمين.

والسؤال الثاني وفي منزل آخر عن القياس الاستثنائي، ثم توالت الأسئلة والأجوبة كالآتي:

وكذلك الرد بقوة على المتكلمين في قولهم بصفات نفسية لله تعالى.

ومن العقائد إلى الأدب في مجلس عن أيام العرب، ومحلهم وعن بيان ما جاء في أشعارهم عن قصار النساء وما ظنه البعض أنه في القصر ضد الطول، وإنما هو في مقصورات الخيام.

ومن الفقه إلى التفسير ورفع إيهام التعارض بين قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨].

ومنه إلى الأصول في القول بالموجب عند الأصوليين والبيانيين.

ولقد أوسع القول في مبحث المجاز بأقسامه كلها وما يتفرع عنه من استعارت بأقسامها ومناقشة البيانيين، مما لا يوجد في غير هذه الرحلة تقريبًا حتى في كتاباته رحمه الله الأخرى وقد استطرد فيه إلى متعلق معنى الحرف.

وقد أقام رحمه الله خلال رحلته في السودان ليالي جرت له فيها مساجلات أدبية ومباحثات علمية في الفقه والمنطق تخللتها ملحمة

أدبية ثم انتهى به المطاف إلى جدة فمكة فالمناسك وجرى له فيها مباحث علمية مع فضلاء جدة ومكة وعلمائها ومنها أنواع الأنساك وتدليله ﷺ وبقوة على أفضلية الإفراد بالحج وفي عرفات ومن قبيل الصدفة جرى التعارف مع الأميرين خالد السديري وأخيه تركي السديري، بسبب مناقشة أدبية كانت تدور في خيمة الأميرين واختلفا في عزو بعض الأبيات لقائلها ووجدا الجواب عند الشيخ. ولقد قام الشيخ بعد الحج بالتوجه إلى المدينة فالمسجد النبوي فرأي خاص للشيخ ﷺ في كيفية وحكم السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرب أو بعد.

ثم ألقى عصا التسيار وكان جلوسه مؤقتًا إذ كان يعتزم العودة إلى بلاده إلى أن جرت له زيارة ومحادثة مع بعض المسؤولين عن الدعوة إلى الله في المدينة، وعن شؤون المسجد النبوي واستقر عزمه على الإقامة والاستيطان بالمدينة المنورة وفي الرياض.

ولقد بدأ تدريس التفسير في المسجد النبوي، ثم انتقل إلى المعاهد والكليات في الرياض وقد كنت أحد تلاميذه في عام ٧٣ - ١٣٧٤هـ، ثم إلى الجامعة الإسلامية وهو بين هذا وذاك مشتغل بالتدريس والتأليف.

لقد كانت رحلته طويلة حافلة بالأعمال الجليلة وبكل فن وعلم فكلها أسئلة علمية وأجوبة عليها.

ويقول ﷺ إن فائدة تقييد رحلة الحج إلى بيت الله الحرام ليستفاد بما تضمنته من المذاكرة والأحكام وأخبار البلاد والرجال

وما تجول الأدباء من المجال والغرض الأكبر من ذلك تقييد ما أجبنا به عن كل سؤال علمي سئلنا عنه في جميع رحلتنا أعلم أننا خرجنا من عند أهلنا بجانب الوادي ذي البطاح والمياه والنخيل وودعنا كل قريب وبعيد.

حسبما قال الشاعر:

ومما شجاني أنها ودعت يوم ودعت
تولت وماء العين في الجفن حائر
فلما أعادت من بعيد بنظرة
إليَّ التفاتًا أسلمته المحاجر

وكان يوم الخروج لهذه القاعدة الكبيرة لسبع وعشرين من جمادى الأخرى من سنة سبع وستين وثلاثمائة وألف آمننا الله مما نخشاه من الأمام والخلف فخرجنا من بيوتنا يصحبنا بعض تلامذتنا إلى قرية اسمها «كيفة» فوصلناها في مدة خفيفة ونحن تحدى بنا الجمال في الأودية والرمال في مدة إقامتنا في كيفية «سألتنا كريمة من بنات العم وهي أم الخيرات بنت أحمد بن المختار عن مسألتين وطلبت فيهما منا التحرير وأحضرت فهم العالم النحرير.

أولاهما: ما يحيك في النفس من عدم الفرق بين علم الجنس واسم الجنس والثانية قول المتكلمين أن الصفة النفسية لا يدرك بدونها الموصوف وأن الإنسان مثلاً بدون النطق غير معروف لم لا يعرف الإنسان بخواصه كالمشي على الاثنين مع الانتصاب وكالضحك وكتابة الكتاب.

فكان جوابنا على المسألة الأولى ما حاصله أن الفرق بين علم الجنس واسمه اصطدمت فيه عقول العقلاء واختلفت فيه آراء العلماء حتى قال بعضهم لا يعقل الفرق بينهما في المعنى واختيار بعض المحررين من المتأخرين من ذلك الاختلاف ما حققه ابن خاتمة من أن الفرق بينهما أمر اعتباري وهو أن علم الجنس موضوع للحقيقة الذهنية ليميزها عن غيرها من الحقائق الذهنية واسم الجنس موضوع للحقيقة باعتبار وجودها في أفرادها الخارجية ولذا كان الأول جزئيًا والآخر كليًا والجزئي الحقيقي يكون علمًا بالإجماع والعلم قسمان علم شخص وعلم جنس - وهكذا يستمر الحوار العلمي والنقاش الفكري والحقائق العلمية والمطارحات الشعرية شأن لكل رحالة عالم وعظيم الشأن ويقابل كل سؤال بما يناسبه من جواب: فكان رحالة ينشر العلم في طريق ذهابه إلى الحج.

ولله أسال له المغفرة والرحمة وأن يجزيه أحسن الجزاء عما بذله من علم وجهد، ورحم الله أسلافنا من الرحالة الذين كانوا ينشرون العلم والدين والمعارف والآداب والفضائل خلال رحلاتهم وما زالت آثارهم باقية خالدة في تاريخ الحضارة الإسلامية.

رحلة فتحي لمراغي ١٤١٨هـ

لقد وصف فتحي عبدالحميد المراغي رحلته للحج قائلاً:

لم تكن رحلتي إلى أرض الحجاز بغرض المشاهدة والمتعة والتعرف على أهلها، وعاداتهم، تقاليدهم، ثقافتهم، أو التطلع إلى ما وقفوا عنده من رقى وتقدم، لكنها سمت فوق ذلك في معناها ومغزاها، ولكنها اشتياق لزيارة الأماكن المقدسة بيت الله الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة ومشاهدة مشروع التوسعة الحديثة للحرمين الشريفين وما جرى في المدينتين المقدستين من تطوير وتحديث إبان العهد السعودي الرشيد لخدمة حجاج بيت الله الحرام وزواره ومعتمريه.

اخترت أن تكون سفرتي لقضاء العمرة بالطريق البري حتى يكون اشتياقي أكثر ومتعتي أشمل، وحتى أعوّد نفسي على الصبر والامتثال للأعمال والأسفار في هذه الرحلة المباركة. ورغم طول الطريق ومتاعبه ومشاقه كنت أشعر بالراحة والطمأنينة التي يسرتها لنا السبل الحديثة للطرق الجيدة ووسائل المواصلات المريحة بعد أن تلاشت الدروب الضيقة ومتاعبها واختفى بمرور الزمن ركوب الجمل واحتياجاته من مراع ومعالف واستحدث بدلاً منها السيارة الوقود واستعيضت المراكب الشراعية بالعبّارات والبواخر والسفن

العملاقة وجاءت الطائرات النفاثة التي تسبق سرعتها الصوت. ثم أخذ صاحب الرحلة في تصوير مشاعره حين خرج من منزله متوجها إلى الرحاب الطاهرة حيث يقول:

خرجت من بيتي مودعًا أسرتي الصغيرة، وقطعت الطائرة الإيرباص مسافة ألف كيلومتر من أسوان إلى القاهرة في ساعة وربع الساعة حيث تبدأ الرحلة من ميدان العباسية بالحافلة المجهزة في الساعة العاشرة من مساء يوم الجمعة الموافق التاسع عشر من شعبان ١٤١٨هـ. وصلت الحافلة إلى السويس بعد أن قطعت مسافة ١٤٠ كيلومتر في أقل من ساعتين وعبرت قناة السويس.

ولم تكن رحلتي إلى مكة وليدة اللحظة التي عزمت فيها على السفر، فهي في قلبي موصولة منذ باكورة صباي تعتمل في صدري، تترقرق في نفسي، كان عمري لا يتجاوز السادسة عندما صحوت على صوت أمي يجلجل أركان الغرفة المضاءة.

أخرجني من التفكير في الماضي وذكرياته وبطولاته العظيمة شاشة التلفاز التي أنارت داخل الحافلة تعرض فيلما مسجلاً عن الحج ومناسكه فاهتز جسدي وارتجف فؤادي مع نداء تلبية الحجاج، والحافلة ما زالت تشق طريقها بين تضاريس سيناء الصعبة في هضبة التيه ذات الأرض المقفرة الوعرة والتربة الجامدة حتى توقف محركها ووقفت أمام «كافتريا» كشفت أضواءها عن صحراء جرداء قليلة العمران في مدينة «نخل» ثم عادت الحافلة تشق الظلام إلى ساحل خليج العقبة ذلك الطريق الذي سلكته

الملكة شجرة الدر مع قافلة الحج في عام ٦٤٥هـ، ومنها اتجهت إلى مكة المكرمة واستغرقت رحلتها خمسين يومًا ليصبح هذا الطريق مسلكًا ومقصدًا لحجاج بيت الله الحرام.

ما زال الطريق طويلاً والحافلة تشق طريقها بين جبال سيناء الجنوبية تتسربل بالظلام تتلوى مع انحناءات ذلك الطريق، تتفادى جنباه المرتفعة حتى بلغنا نهايته بسلام، كنا ثلاثة وثلاثين معتمرًا بين شباب وشيوخ، رجالاً ونساء، أنست معهم برفقة طيبة نحافظ على شعور بعضنا ملتزمين بكل تعليمات السفر من أمن وصحة ومرور وغيرها. ويسترسل صاحب الرحلة في وصف الطريق وصفًا دقيقًا قائلاً:

وما أن اقترب الفجر حتى بدأت خيوطه تتسلل بين قمم الجبال تجلو الظلام، يكشف عن الطريق الساحلي المؤدي إلى ميناه نويبع الذي بلغناه في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، تركنا حافلتنا واتجهنا إلى المسجد الصغير تحت سفح الجبل نصلي الصبح ونجلس على الكافتريا القريبة نتناول طعام الإفطار كانت لنا جولة سريعة في المدينة قبل دخولنا أرض الميناء في الساعة الثانية عشر ظهرًا، لفت انتباهي خروج ودخول سيارات كثيرة ولوريات كبيرة محملة بالبضائع تحمل لوحاتها المعدنية أسماء دول عربية كالأردن وسوريا ولبنان والسعودية ومصر في حركة تجارية نشيطة تمتد إلى النشاط التجاري القديم الذي حرص على نهضته عمرو بن العاص بعد فتحه المبارك لمصر عام ٦٤١م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذي أمر بحفر قناة أمير المؤمنين لربط النيل

بالبحر الأحمر كما ترجع إليه أيضًا فكرة ربط البحر الأحمر بالمتوسط وذلك لتسهيل حركة التجارة ونقل الغلال من مصر إلى الحرمين الشريفين وتأمين عملية نقل الحجاج من مدينة السويس البوابة الشرقية التي تربط مصر بالسعودية والشرق الأقصى وكان ركب الحجاج يخرج من القاهرة إلى السويس ومنها إلى العقبة حتى الأراضي السعودية، وتوقف هذا الطريق قليلاً أثناء فترة الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر الميلادي.

ثم يفيض في الحديث عن الرحلة من تبوك إلى المدينة قائلاً:

وقطعت الرحلة من تبوك إلى المدينة المنورة في عشر ساعات قضينا أربع ساعات منها بين الاستراحة والصلاة في المساجد المنتشرة على طول الطريق وسرح ذهني مع الخضرة التي تشربت بها عيني والصحراء التي لبست حلة جديدة خضراء أشبه بالعلم القومي للمملكة الذي يتوسطه سيف بتار ناصع البياض كقناة الماء التي تسقي الزرع ويشرب منها الضرع تزينه كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» مطبوعة عليه بالخط العربي الجميل كما أجدها منقوشة على لوحات معدنية تقابلنا على طول الطريق كما هي محفوظة في صدور المؤمنين.

وبهذه الصورة الجميلة يتحدث عن جهود الملك عبدالعزيز واهتمامه بالنهضة والمواصلات وحفر الآبار وعمارة الأرض قائلاً:

لقد تحققت أهداف الملك عبدالعزيز في تحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء لبلاده فمن لا يملك قوته لا يملك حريته

فاستعان جلالته منذ توليه الحكم بالخبراء للبحث عن الماء بحفر الآبار فمهد الطريق للتوسع الزراعي في قلب الصحراء التي استصلحت فأصبحت جنانا خضراء وتنوعت زراعة المحاصيل من خضر وفواكه وأشجار نخيل ومن الشعير والقمح الذي ازداد إنتاجه في الآونة الأخيرة حتى احتلت السعودية المركز السادس في العالم.

جهود عظيمة تنفذ من أولى الأمر في العهد السعودي الزاهر فأدخلت التكنولوجيا والميكنة الزراعية والري الحديث المحوري والتنقيط والأبحاث العلمية المتتابعة من الكليات المتخصصة، ويواصل حديثه عن رحلته إلى بيت الله الحرام قائلاً:

كان شاغلي أثناء هذه الرحلة المباركة هو الوصول إلى بيت الله الحرام والمسجد النبوي الشريف، والطرق المؤدية إلى المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة وارتباط هذه الطرق بطريق مباشر أو غير مباشر بالنهضة الزراعية والطرق الممهدة والمسفلتة والمزودة بوسائل تصريف المياه والأمطار والسيول والتي ارتبطت بالطرق السريعة المفردة والمزدوجة والدائرية ومحاورها المزودة بمحطات الوقود والإرشادات المرورية والمزروعة على جنبيها بأشجار الكازيرونا لصد الرياح لتسهيل نقل الحجاج والمنتجات الزراعية والصناعية إلى المدينتين المقدستين والمزدحمتين بالزار دوماً أثناء مواسم الحج والعمرة ولسرعة الوصول إلى الوحدات الصحية المنتشرة في جميع أنحاء المملكة.

وعلى طول الطريق إلى المدينة المنورة الذي يبلغ نحو ٦٨٦كم مررنا بقرى ومدن عامرة بسكانها ومبانيها القديمة والحديثة كتيماء وخيبر، وما أن دخلنا المدينة المنورة بعد غروب الشمس حتى لاح لناظري عمرانها الشامخ وتعلقت أفئدتنا بذلك النور الساطع الذي يشع من المسجد النبوي الشريف فارتفعت عيناي من انسياب منارته السامقة في عنان السماء بقبابها الجميلة تزينها القبة الخضراء الشريفة يشق منها النور طبقات الهواء إلى السماء ترتفع أصواتنا بذكر الله ونصلي على صاحب المقام الرفيع سيدنا محمد ﷺ حتى وصلنا إلى الفندق أو القصر كما يطلق عليه في المملكة إذ يطلقون على الفنادق اسم قصور، وضعت حقائبي وخرجت مع جموع الزوار نشق شارع السوق الذي أغلقت دكاكينة وحوانيته مستجيبة لنداء المؤذن لصلاة العشاء.

أقمت بالمدينة المنورة أربع ليال قضيت معظمها داخل الحرم النبوي الشريف بين الصلاة وتلاوة القرآن الكريم والاستمتاع إلى الدروس الدينية بين أروقة المسجد المتعددة باتساع المسجد.

تجولت كثيرًا في مدينة رسول الله ﷺ وشاهدت عمرانها واتساع أحيائها وشوارعها الطويلة والعرضية وميادينها وحدائقها الجميلة وبنيانها الفخم الحديث وأسواقها القديمة والجديدة، وتمليت كثيرًا في الحرم النبوي الشريف فقد اطلعت على عمارته الحديثة التي اتسعت في العهد السعودي الزاهر والتي اكتملت في عهد خادم الحرمين الشريفين.

وعلى بعد تسعة كيلومترات جنوب المدينة توقفت الحافلة عند آبار علي (ذو الحليفة» لنحرم من الميقات الذي أحرم منه رسول الله ﷺ فخرجنا من المسجد متوشحين بملابس الإحرام وتركنا الدنيا وهمومها نتمتع بالعمرة نلبي الله تعالى لبيك اللهم لبيك .. راحت الحافلة تطوى الطريق وسط الصحراء وأشم رائحة جميلة من عبق التاريخ للسيرة النبوية العظيمة وأشواقنا تسبق سرعة عجلات الحافلة للوصول إلى البيت العتيق مهوى الأفئدة ومطاف العباد.

انطلقت الحافلة السعودية ذات الطابقين بعد صلاة المغرب تحملنا ومتاعنا وأخذت مسارها على الطريق الدائري بين عقبات وجسور وأنفاق شقت بين الجبال ومنها إلى الوديان حتى مررنا بمسجد التنعيم على بعض ثماني كيلومترات من مكة المكرمة. ومشينا الهويني في شارع أجياد حتى بلغنا الساحة الخارجية للحرم المكي الشريف فوقفنا على أرضيتها الرخامية، ولكن شعرت باكتحال مرآة عيني بالستائر السوداء التي تلف الكعبة الشريفة فلا مجال للسيطرة على الخيال، فهذا المقام العظيم رمز وعدة وتاريخ تتوالد منه الصور الحية لمولد نور الإسلام وعظمته إلى يوم الدين .. أتممت بحمد الله مناسك العمرة وقصرت الشعر بعد الطواف سبع مرات حول الكعبة والسعي سبعًا بين الصفا والمروة، وكنت قد صليت ركعتين عند مقام سيدنا إبراهيم وفي حجر سيدنا إسماعيل عليهما السلام ودعوت الله عند باب الملتزم وشربت من سلسبيل ماء زمزم وأنا لا أكف عن الدعاء، وعدت إلى الفندق

ليس للراحة أو النوم فكيف يهدأ الجسد أو ينام، ورحت في تلاوة القرآن الكريم معجزة كل عصر وأوان حتى حان موعد أذان الفجر، وعرفت طريقي إلى الحرم المكي الشريف أقضى معظم الوقت فيه أصلي وأقرأ القرآن واستمع إلى الدروس الدينية متوجهًا نحو الكعبة المشرفة أتطلع على عمارة الحرم الشامخة بعد التوسعة الكبرى التي تمت في عهد خادم الحرمين الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله ولقد فاقت كل التوسعات على مر العصور فقد شملته من الداخل والخارج وفوقه ومن تحته ومن حوله حيث يتسع الآن لأكثر من مليون مصل في وقت واحد فكانت إضافة مطلوبة بعد التوسعتين السابقتين اللتين حدثنا إبان العهد السعودي الرشيد والتي وضع أسسها الملك عبدالعزيز ونفذها أبناؤه من بعده لاستيعاب الزيادة السنوية لحجاج بيت الله الحرام من مسلمي العالم البالغ تعدادهم أكثر من مليار نسمة، ولهذا اتسعت مكة المكرمة شمالها وجنوبها، شرقها وغربها حول الحرم المكي الشريف الذي اتسع أخيرًا من ناحية المسعى وأجياد وطريق القشاشية وامتدت الأحياء الحديثة في الوديان والأبطح وفوق أعلى الجبال واتصلت بالأحياء القديمة بطرق عالية المستوى طولية وعرضية مزدوجة ومفردة وبالكباري والأنفاق التي شقت في بطن الجبال شهدت كل ذلك وصعدت الكباري وعبرت الأنفاق أثناء جولتي التي رافقني فيها صديق مصري مقيم في مكة المكرمة، ذهبنا بسيارته إلى عرفة وشاهدت اتساع المشاعر وقد زرعت فيها أشجار كثيفة ظليلة وكذا المرافق العامة لخدمة الحجيج على طول الطريق إلى المزدلفة حتى

منى، وشاهدت مسجد نمرة والكباري الخرسانية التي أنشئت لتسهيل إقامة الشعائر، وفي طريق العودة إلى الحرم المكي الشريف شاهدت جبل النور يعلوه غار حراء حيث منزل الوحي ومبعث النور، تجولنا في الأسواق القديمة والحديثة قبل صلاة الظهر، وكانت درجة الحرارة عالية في منتصف النهار فموقع مكة المكرمة مداري مرتفع عن سطح البحر بنحو ٣٠٠ متر فقط. ثم أخذ صاحب هذه الرحلة يصف مشاعره وهو يشاهد توسعة الحرمين الشريفين قائلاً:

وقفت على الساحة الخارجية للحرم المكي فوق رخامها الأبيض بلغني شعور بالزهو والفخار ومن حولي بنيان شامخ وعمران حديث أحمد الله على أن حبانا هذا الفضل العظيم وحكاما أتقياء فيهم أخلاق القيادة والقدرة على توحيد الكلمة وتحكيم الشريعة والشورى والتنمية الشاملة، ينفقون بسخاء منقطع النظير في أعمال البر والخير وتحديث البلاء وتطوير وتحديث الحرمين الشريفين .. في هذا المكان الطيب الطاهر تذكرت الماضي إلى عهد صباي عندما كنت أسبح مع أقراني من الصبية بين أمواج الخلائق الكثيرة نغني ونرقص على ذق الطبول وزغاريد النسوة نشق طرق البلدة إلى محطة القطار القديمة نودع الحجاج يزدحم بنا الرصيف وتهتز القضبان بوصول قطار الحج بمقدمته السوداء يتصاعد منها دخان احتراق الفحم مزدانة بورود وسعف النخيل وينطلق القطار يشق طريقه وتصطك عجلاته بالقضبان، اسمع النداء الجميل لبيك اللهم لبيك مختلطا بالدعوات الصادقة

والمشاعر الروحية الفياضة نلوح بأيدينا والقطار ينطلق إلى القاهرة لتبدأ رحلتهم من السويس إلى الأرضي المقدسة، والماضي البعيد مدون ومكتوب نعرفه رغم مرور السنين فقد كانت قوافل الحج تسير من قلب القاهرة إلى ميدان العباسية يتقدمهم المحمل وأمير الحج وأمير الصرة من عسكر وجند يقفون في استراحات يتزودون بالزاد والماء ترشدهم نواطير منصوبة كل ثلاث ساعات يقطعون فيها الطريق إلى سيناء حتى خليج العقبة تحميهم قواعد عسكرية من جند المسلمين حتى يصلوا إلى بلدة رابغ القريبة من البحر الأحمر، تستغرق رحلة حجهم مائة وعشرين يوما في الذهاب والعودة يتحملون خلالها متاعب الطريق يكسرون عقباته بإيمانهم وقلوبهم الخاشعة، وروحهم الفياضة، نفس الرحلة التي استغرقت مني عشرة أيام فنحن في عصر يتسم بالسرعة والسهولة واليسر بفضل وسائل المواصلات الحديثة والطرق الجيدة .. كانت الشمس قد ملأت الدنيا ضياء وبهجة وما زلت واقفًا أمام باب الملك عبدالعزيز بعد صلاة الفجر يتسع بصري ويمتد طولا وعرضا إلى الطرق الصاعدة والهابطة والمتصلة بالأحياء والميادين والنفق العظيم أسفل الحرم والممتد أمام مستشفى أجياد أقدم المستشفيات السعودية على الإطلاق أراها الآن في ثوبها الجديد متسعة المعمار وأنظمتها الصحية التي تطورت لتقدم العلاج بالمجان لجموع الزوار وأهل البلاد لتقف إلى جانب المستشفيات والمراكز الصحية التي لم تترك قرية أو مدينة إلا وشملتها. ثم أخذ صاحب الرحلة يتحدث عن عودته من مكة إلى جدة قائلاً:

كانت نيتي عازمة على زيارة مدينة جدة فأخذت طريقي بين ممرات أبراج مكة على حافة الحرم المكي الشريف قاصدًا محطة الأوتوبيس، وفي تمام الساعة الثامنة صباحًا - حرك الأوتوبيس المكيف المريح بعد أن أخذت مقعدي إلى جانب النافذة لأتشبع بمنظر الحرم المكي الذي أراه بوضوح من فوق الكوبري الخرساني الذي صعد الأوتوبيس عليه ليأخذ طريقه السريع الذي يبلغ طوله ٧٣كم تمليت كثيرًا على طول الطريق فوجدته يختلف تمامًا عما كان مسجلاً وموصوفًا في كتب الرحالة القدماء فقد كان - كما وصفوه - غير ممهد يمتد في قلب الصحراء.

ويواصل حديثه مقارنا ما شاهده اليوم وما سبق أن قرأه في بعض الكتب ورحلات الحج قائلاً:

رأيت الطريق يختلف تماما كما في وصف الدكتور محمد حسين هيكل أثناء رحلته إلى الحجاز بالباخرة من السويس إلى جدة عام ١٩٣٦م وأخرج كتابه القيم: "في منزل الوحي" شاهدت الطريق ولمست اتساعه وازدياد عمرانه، فالطريق أمامي متسع مستقيم جيد الرصف مزود بالخدمات ومحطات الوقود التي تساعد الحافلات التي تنقل الحجاج والزوار وكذلك القافلات التجارية التي تنقل الحجاج والزوار وكذلك القافلات التجارية العملاقة القادمة والذاهبة إلى ميناء جدة أكبر الموانئ السعودية على الإطلاق، والطريق إلى جدة موقع استراتيجي هام لامتداده في منطقة تعتبر من أكبر التجمعات السكانية على أرض المملكة والتي تصل إلى أكثر من ١٣٪ من عدد سكان المملكة البالغ عددهم نحو

١٨ مليون نسمة يعيشون في مساحة ٤٢٠٠٠ر ٢٢كم المساحة الكلية للمملكة العربية السعودية، رأيت على طول الطريق من مكة إلى جدة كل شيء حديث وعلى جانبيه قرى عامرة بمبانيها وسكانها تنتشر في السهول التي تتسع كلما اقتربنا من مدينة جدة التي قضيت بها أربع ساعات حاولت فيها بقدر الإمكان التعرف على أهم معالمها ومشاهدة عمرانها وشوارعها الراقية وحدائقها وميادينها المتسعة ومتاجرها الكبيرة والصغيرة في أحيائها القديمة والحديثة ومنشآتها الصناعية ومراكزها التعليمية من مدارس ومعاهد وكليات التي تتبع جامعة الملك عبدالعزيز وكذلك موانيها الجوية والبرية والبحرية.

ثم أخذ صاحب الرحلة بعد زيارته لهذه الأماكن المقدسة ووصفها وتشوقه إليها ووصف طريق العودة قائلاً:

وبعد هذه الجولة السريعة التي استغرقت عشرة أيام وتمتعت خلالها بزيارة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، أثرنا أن تكون عودتنا بالطريق الساحلي واتجهت الحافلة من مكة شمالاً مرورًا ببدر لنسلك الطريق الدائري إلى ميناء ينبع البحر الذي يقع غرب المدينة المنورة، ومنه إلى ميناء الوجه الذي بلغناه وقت الغروب، وصلينا المغرب في أحد المساجد على الطريق واتجهنا إلى ضبا وبتنا ليلتنا في مينائها على أمل أن نغادر منه إلى الغردقة لو لا ظروف حجز العبارة التي حالت دون تحقيق رغبتنا فاتجهنا إلى تبوك ومنها إلى حالة عمار فالمدورة إلى العقبة ولم تفارقني صورة الملك عبدالعزيز وكل ما أراده لبلاده من خير يلج به مختلف

الميادين ويتحقق كل ما أراده على يد أبنائه من بعد الملوك والأمراء، وجاء الخير على يد أبنائه الأبرار الذين أكملوا المسيرة وبذلوا كل غال ونفيس في نهضة هذه الديار المباركة فكانت الثمرة التي نجنيها الآن من سهولة ويسر بفضل الإنجازات العظيمة والمشروعات الضخمة العملاقة التي تحققت على أرض المملكة العربية السعودية من طرق وأنفاق وجسور وموانئ واتصالات لتأمين سلامة الحجاج والمعتمرين والزوار والمواطنين والمقيمين على أرض بلاده المباركة التي خصها الله بفضله حتى غدت فيافيها منارة ساطعة وقبلة لكل من يريد العمل لخدمة الإسلام والمسلمين.

ويواصل صاحب الرحلة حديثة الذي يفيض وجدانا واغتباطا بماء زمزم والكعبة والحرم المكي والمسجد النبوي الشريف وتعلق قلبه بالمكان وشده العبق الإيماني الجميل قائلاً:

على سطح العبارة رحت مع نفسي أسبح في ماء زمزم أرتوي من معينها الذي لا ينضب، تصل أعماقي إلى البيت العتيق والحرم النبوي الشريف وأمامي صور عظيمة حية نابضة من التاريخ وهجرة المصطفى صلوات الله عليه من مكة إلى المدينة وأنا غارق في سبات عميق متعلقًا بالبيت العتيق، لا يتسع بصري أمام هذه المشاهد العظيمة وأذني تسمع ذلك النداء الجميل لتلبية الجميل تردده الجبال والأطيار وكل المخلوقات وأسمع صهيل الخيول وصليل السيوف وقعقعة الدروع في بدر وأحد، اسمع خواء الإبل وهديل الحمام الحجازي حول الحرم المكي الشريف والمسجد النبوي الشريف وفوق أرض البقيع رأيتها تطير خفاقة تحلق

بأجنحتها في وداعة رافعة راية الإسلام تحمل غصن السلام، أسمع صياح الأطفال وهم يلعبون داخل أروقة الحرم الشريف لا يفزعهم خوف في حرمهم الأمن الذي لا يفزع فيه أحد ولا يروع في حماه طير ولا تهتك فيه حرمات فهو مبارك ومصدر هداية للناس أجمعين وغاص بصري في الأعماق وأنا ساجد أصلي الجمعة حول الكعبة الشريفة فوق الأرض الرخامية البيضاء فرأيت في الأعماق كلمة التوحيد رايتها وأنا قائم منقوشة في السماء كلمة التوحيد رأيتها وأنا قائم منقوشة في السماء كما هي محفوظة في الصدور (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

وهكذا دون صاحب هذه الرحلة مشاعره وانطباعاته عن مكة والمشاعر المقدسة والمدينة المنورة وخصص صفحات للحديث عن مكة المكرمة والمسجد الحرام والمشاعر ووصف ذلك وصفا حيا دقيقًا مع مقارنته بين الماضي والحاضر إلى جانب جملة خصائص تتمتع بها رحلته وهي موضوعات حميمة الأثر في النفس وغنية بالمشاعر والصور والانطباعات وما دونه من معلومات جغرافية واجتماعية وتاريخية وصور أدبية جميلة صور فيها المشاهد والأماكن المقدسة وكان من ذلك حصيلة أدبية عكستها هذه الرحلة وكانت زيارته لهذه الأماكن المقدسة عنصرًا مؤثرًا واضح التأثير في رحلته.

رحلة محمد رشيد رضا ١٣٣٤هـ

هذه رحلة دونها الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله عن رحلة إلى الحج المولود في طرابلس سنة ١٢٨٢هـ ونشأ بها وتعلم ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ، ثم أصدر مجلة المنار، وله مصنفات كثيرة توفى بمصر ١٣٥٤هـ، ومن المعروف أن رحلات الحج يراعى فيها الوضوح وعدم التكلف ثم هي بما تحويه من تنويع تمتع الفكر، وحيث وصف المشاعر المقدسة المتعلقة بالحج وما يتعلق بذلك من النواحي التاريخية والثقافية والاجتماعية، فالحج وصل بين علماء الأقطار الإسلامية في مختلف العصور يتحدث محمد رشيد رضا عن رحلته للحج وأداء المناسك ثم تحدث بعد ذلك عن الوقوف بعرفات قائلاً:

بلغنا عرفات في وقت السحر فألفينا الخيام قد ضربت لنا وفُرشت فنزلنا فيها، ولما طلع النهار وجدنا أنفسنا بالقرب من مسجد الصخرات حيث كان موقف النبي ﷺ ورأينا الحجاج في هذا الجانب من بسيط عرفات وسائر الجوانب والأجواز خالية وفي بعضها قليل من الحجاج ولبعض حجاج الأقطار مواضع خاصة يقفون فيها كل عام، ويقف كثير من عرب الجزيرة في جبل الرحمة ويصعده كثير من حجاج الأقطار الأخرى.

وكانت خيام الشريف في موضعها المعتاد من وسط ذلك البسيط وكان السبب في بعدها عن مسجد الصخرات وموقف الإمام أن يسهل على الحجاج الوصول إليه للزيارة.

ولقد شاهدنا رؤية منظر من أعظم المناظر المؤثرة في النفس، المحركة لشعور الخشوع والعبودية في القلب، وهو رؤية تلك البقعة الشريفة غاصة بالشعوب الوافدة من جميع أقطار الأرض، ملبين داعين، باكين خاشعين، يجأرون إلى الله عز وجل على اختلاف لهجاتهم، الناشئة على اختلاف لغاتهم، يرددون الأذكار المأثورة بالعربية، ويدعون الله ما شاؤوا بلغاتهم المختلفة.

ثم يأخذ في تصوير الحالة الروحية في الوقوف والنفر حيث يقول:

عن الحالة الروحية لا تبلغ الكمال في عرفات ظاهرًا وباطنًا إلا في أصيل ذلك اليوم العظيم، ففي أول النهار يعرض لأكثر الناس شواغل تشغل حواسهم وجوارحهم وأفكارهم، منها ضروريات الأكل والشرب، ومنها رؤية المناظر الجديدة من تلك البقعة الجامعة لشعوب كثيرة وما يحيط بها من الجبال، فهذه المناظر تشغل كثيرًا من الناس بصورتها وشكلها - في أول العهد برؤيتها - عن معناها وحكمة كون السير غليها والوقوف فيها عبادة الله تعالى، وفي أثناء النهار يأكل الناس طعامهم ويستريح أكثرهم في خيامهم ومضاربهم أو في ظلال الجبال ولا سيما إذا كان الحر شديدًا، فإذا جاء وقت العصر جمعوا متاعهم وشدوا رحالهم

وفرّغوا قلوبهم للذكر والدعاء، وازدحموا عند موقف الخطيب من جبل الرحمة حرصًا على سماع الخطبة، أو الاشتراك مع الألوف من إخوانهم في التكبير والتلبية.

ويفيض في الحديث عن يوم عرفة:

قضينا جل نهار عرفة بذكر الله والدعاء، وتيسر لي - والحمد لله - الاغتسال فيه. وصلينا الظهر والعصر جمعًا في مسجد الصخرات، ورأينا هنالك خطيب عرفة وهو نائب الشرع بمكة وقد صعد بناقته فاستوى على ذلك من جبل الرحمة ذات التاريخ الإسلامي العظيم، وقد أحاط به الناس وازدحموا من حوله يسمعون من أحكام المناسك، ومن دونه ومن فوقه في الجبل ألوف من الناس يشاهد بعضهم بعضًا ويراهم من في السفح ومن في بسيط عرفات كله؛ لأن الجبل مدرّج يشبه ما يتخذ في بعض المدارس الكبرى من المقاعد ذات الدر المقوسة، وكلما لبى وكبر الخطيب لبى من حوله وكبروا وأشاروا بأطراف أرديتهم البيضاء أو مناديلهم، ويتبعهم في التلبية والإشارة كل من هنالك من قمة الجبل إلى سفحه، فيلبي سائر الناس ويكبرون، فيتموج بأصواتهم الهواء، وترتج الجواء، حتى تصل إلى عنان السماء، بل تخترقها حاملة ذلك الذكر والضراعة والدعاء إلى من استوى إلى عرشه المجيد، وهو أقرب إلى عبده من حبل الوريد. فيا له من موقف ما أعظمه، وما أصدق من شبهه بيوم القيامة، وقد يكون التشبيه على أكمله في ذلك المساء، في أي وقت يكون فيه لكل مؤمن من الشغل بنفسه والتوجه إلى ربه ما لا يعهد مثله في وقت من أوقات

حياته، يشعر - والناس محيطون به من كل جانب - بأنه في خلوة لا يشغله فيها عن ربه شاغل ولا يشوب خشوعه له وبكاءه من خشيته وسروره بمناجاته رياءً ولا سمعة.

ويختم القول ما أعجب هذا الاجتماع العظيم الذي يجمع كل من شهد بإيمان وعرفان، كما تحدث عن منى ولياليها وأقوال الشعراء فيها وهكذا يصور أحاسيسه بأسلوب جزل متين وبلغة صافية سليمة وحس مرهف وهو في رحاب الأماكن المقدسة وفي أجواء مفعمة بالروحانية والطمأنينة، وهي تكتسب مكانة خاصة في قلوب المسلمين حيث تسمو فيه النفس وتتسابق فيه الجوارح لفعل الخيرات ورحالتنا حين وقف في هذه المشاعر المقدسة يستزيد من أعمال الخير وتعزيز المعاني النبيلة والقيم الفاضلة في حياة المسلمين، فالحج مدرسة شاملة في العبادة والصبر والأخلاق والتربية على المنهج القرآني والعقيدة السمحة.

رحلة الدكتور مقداد يالجن

هذا هو عنوان كتاب قام بتأليفه بمناسبة حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية، حيث جاءت فكرة هذا الكتاب، وتم على إثرها لقاءات ومحاورات صحفية واشمل القسم الثالث من الكتاب على الرحلة إلى المملكة العربية السعودية، وأداء فريضة الحج في هذه الرحاب الطاهرة وتحقيق الحكمة من الحج العظيم، واشتملت على ثلاثة فصول الفصل الأول خاص بعرض دواعي الرحلة والفصل الثاني يستعرض رحلته الخاصة إلى مؤسسة الملك فيصل الخيرية والثالث خاص بتعريف الجائزة وصداها في الإعلام والصحافة، ولقد ولد الدكتور مقداد في إنطاكية بتركيا سنة ١٩٣٨م.

ونستعرض الجانب الخاص بالموضوع - والحج وزيارة الأماكن المقدسة حيث يقول كانت رؤية هذه البلاد أمنية وأحلامًا منذ كنت صغيرًا دفعتني إلى رؤية هذه البلاد قراءة الوالد سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، كيف كان يصعد إلى جبل النور وإلى غار حراء ليتعبد أيامًا، وليالي وحده وكيف اختفى في الغار في جبل ثور حين أراد الكفار قتله وكيف ذهب إلى مكة والمدينة، وكنت أقول لا يكفي الذهاب إلى الحج أو العمرة بل ينبغي أن أبقى في ربوع تلك البلاد سنة أو سنتين لأزور تلك الأماكن، وأبدًا أسير في الطرق التي سار فيها الرسول عليه الصلاة والسلام،

وأن أصلي حيث صلى في غار حراء، وأن أنام حيث نام في غار ثور، وأن أرى مكان موقعة بدر، وأُحد وأن اعتمر، وأن أحج، والحمد لله تحققت تلك الأمنيات. وبعد أن حقق الله أمنيته في الحج وزيارة البقاع الطاهرة المقدسة حيث كان مجالاً خصبًا تغذي الأرواح ويشبع العواطف والوجدان. وما كانت تحفل به هذه الروح من المطارحات العلمية واللغوية والأدبية والشرعية.

ثم تحدث بعد ذلك عن أهم انطباعاته وذكرياته في مكة والمدينة من خلال المشاهد والرحلة التي قام بها إلى مكة والمدينة ومختلف ربوع البلاد.

ومن تلك الانطباعات يقول، وجدت كثرة المشروعات الإنشائية، ولا يكاد الإنسان يسير مسافة من الشرق إلى الغرب إلا ويجد مشروعات عمرانية أو إصلاحات في داخل المدن وخارجها.

ومنها أيضًا: سرعة التغير في المظاهر العمرانية، ففي خلال عشر سنوات لاحظت تطورات عمرانية، من فتح الطرق وتجميل جوانبها بالأشجار والأزهار، وبناء الجسور والعمارات ذات الهندسة المختلفة الأشكال والأنماط فما وجدت في أي بلد أقمت فيه هذه السرعة العمرانية كما وجدتها في المملكة.

ومنها أيضًا: أنني اقتنعت تماماً بأن المشاهدة غير السماع، فليس الذي يشاهد كالذي يسمع، لاحظت ذلك عندما صعدت إلى جبل النور لرؤية غار حراء، وإلى جبل ثور لأي غار ثور، فكنت أظن أن الجبلين قريبان إلى مكة، وأن ارتفاعهما قليل، ولكن لما

استغرق الصعود والنزول إلى كل جبل ما يقرب من ثلاث ساعات، مع خطورة الصعود والنزول لوجود الصخور العالية ووعورة الطرق والشعور بالتعب الشديد، وبخاصة عند الصعود، عندئذ أدركت حقيقة هذين الجبلين وموقعهما من مكة. وعجبت كيف كان يصعد النبي ﷺ إلى غار حراء ويقيم فيه أيامًا وحده، ويتعبد في الليالي المظلمة، وقد يظن الإنسان أن هذا الغار كبير يرتاح فيه الداخل إليه، ولكن عندما يراه ويدخله لا يستطيع أن يقوم فيه بدون انحناء وطوله وعرضه يشبه القبر أو بقدر القبر، وإذا تعثر عند الدخول إليه أو الخروج منه، فإنه يقع من أعلى ارتفاعه، ويبلغ حوالي مائة متر فوق الصخور، حيث يتمزق عليها جسمه، وإذا دخل إليه نهارا فإنه لا يستطيع الخروج منه ليلاً.

وكذلك غار ثور، فكم تعبنا عند الصعود إليه ونحن في وسط النهار، فكيف صعد إليه الرسول ﷺ ليلاً، وكم كان الصعود والنزول والإقامة فيه صعبه، إلى جانب خطر الموت لأن الأعداء يعقبونه، وكم يتصور الإنسان عداوة قريش حيث صعدوا فوق الجبل العالي بحثًا عن الرسول ﷺ، ظنًا بوجوده هناك، لقد قلت عندما صعدت - وقد استغرق مني الصعود ساعتين، وعانيت من الإرهاق الشديد - لو أنني أعلم أن عدوي هناك لما تحملت مشقات هذا الصعود والنزول في أشد أيام الحرارة وفي وقت الظهر بالذات.

وكذلك في سفري في أحد أيام رمضان من مكة إلى المدينة ورأيت المسافة بين بدر والمدينة، فقلت: لا يمكن أن أسير في

رمضان هذه السيرة سيرًا على الأقدام، فتصورت عندئذ مدى ما عاناه أصحاب الرسول ﷺ وهم يسيرون من المدينة إلى بدر في رمضان، ثم إنهم كانوا يتحملون مشقة السفر مع القلق من المصير النهائي للمعركة، ثم فكرت كذلك في مسافة السفر في غزوة العسرة، والمشقة التي يلاقيها المسافر، إننا نحن نجد صعوبات جمة في قطع تلك المسافة الشاسعة بالسيارات.

ويتحدث صاحب الرحلة قائلاً:

وهكذا عشت في المملكة بعض سيرة الرسول ﷺ، لا بالسماع والقراءة، وإنما بشيء من المعايشة.

ثم ذكر أهم الفوائد التي جناها من هذه الرحلة:

أولى هذه الفوائد، أداء فريضة الحج، ومشاهدة الأماكن المقدسة كما كنت أحلم بها من أيام الصبا.

وثانيتهما: التقائي بمجموعة كبيرة من الأساتذة من البلاد المختلفة ووقوفي على آرائهم وأعمالهم وإنتاجهم؛ لأن هذا الجمع الغفير من الأساتذة، من البلاد المختلفة لا يتوافر وجوده في كثير من البلاد، ولهذا كنت أقول للطلاب أحيانًا - أثناء إلقاء المحاضرات - إنكم تجنون ثمار البلاد الأخرى من الناحية المادية والمعنوية والعلمية. وكنت أفهم قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: ٥٧]، فكلمة ثمرات كل شيء لا تقتصر هنا على ثمرات الأشجار فقط، وإنما تشمل ثمرات العلوم والعقول

من الأجهزة والآلات؛ لأن كل شيء ذكرة والنكرة تفيد العموم.

ولهذا فإننا نرى في هذه البلاد من أنواع الثمار وأشكالها وهي تجبي من البلاد الكثيرة ما لا يوجد مثل هذا التنوع من الثمار في الصيف والشتاء في أي بلد آخر من البلاد التي عشت فيها وسألت عنها.

كذلك إنتاج العلماء من البلاد المختلفة وهي نعمة تجبي إلى هذه البلاد ويتمكن أهلها من الاستفادة منها، فلولا هذه المكيفات والثلاجات والسيارات والطائرات وغيرها، لم يكن بالإمكان العيش فيها كما نعيش الآن.

وكذلك كل أستاذ ثمرة بلده، وتنوع الأساتذة يفيد تنوع الآراء والأفكار والحلول للمسائل العلمية والمشكلات الاجتماعية، ويصبح طلاب العلم كالدخول، يأخذون من كل شجرة ومن كل ثمرة رحيقًا مفيدًا يمكن أن يعملوا منها عسلاً شهيًا في المستقبل إذا استغلوا هذه الفرصة.

ومن تلك الفوائد التي جنيتها، التمكن من طباعة أعمالي العلمية على نفقتي الخاصة أو على نفقة بعض المؤسسات، وإخراجها بالصورة التي أريد، وأن أوزع منها مجموعات كبيرة هدايا.

وأشعر الآن وكأنني أملك بستانًا وفيه من ثمرات الأشجار، وأقدم منها إلى كل زائر وطالب، كما كنت أحلم بهذا وأنا صغير.

ومنها أيضًا حصولي هنا على التكريم والتقدير حيث يعلن عن إنتاجي في الإذاعة والصحف، وألقي محاضرات يعلن عنها في الإذاعة أحيانًا، ثم يطلب مني إلقاء محاضرات عامة في المناسبات.

ثم نيل جائزة الملك فيصل العالمية، التي اعتبرها أكبر تكريم وتقدير وتشجيع من قبل المسؤولين الكبار في المملكة. ولهذا فقد عبرت عن تقديري وامتناني أثناء إلقاء كلمتي بمناسبة توزيع الجائزة.

وهكذا تحدث عن رحلته للحج والأماكن المقدسة التي يحمل لها في نفسه ذكريات لا تمحي وهذا ما أراد تصويره في هذه الرحلة حيث خصص إجازاته وهو يعمل حاليًا مدرسًا للتربية الإسلامية في إحدى الجامعات السعودية بزيارة معالم المملكة وجامعاتها ومكتباتها ومدارسها ومؤسساتها التعليمية بصفة عامة وشخصياتها العلمية البارزة، وفي نهاية المطاف فإن هذه الرحلة احتوت على تصوير وشوق العلماء لهذه الأرض الطيبة والأماكن المقدسة زادها الله شرفًا وتعظيمًا.

وهكذا صور بكامل أحاسيسه وانفعالاته رحلته للحج وجسد عير هذه الرحلة المعاني العظيمة لرحلة الحج والذي فرضه الله تعالى على عباده لتبادل المنافع وللذكر والشكر ولأخذ العبرة والمثل ولعقد المؤتمرات الإسلامية التي تنهض بالإسلام وترفع شان المسلمين في شتى بقاع الأرض، فاللقاء في هذه الرحاب الطاهرة مجال عظيم وميدان كبير يتبارى فيه العلماء والأدباء والخطباء والرحالة فيما يعود بالنفع والفائدة ولقد عظّم الإسلام شأن الحج وثبت أركانه وبين الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك وأداء الركن الخامس من أركان الإسلام.

رحلة محمد أسد ١٩٧٢م

مؤلف هذه الرحلة هو محمد أسد الذي يستعرض في رحلته الحافلة بالكثير من المعلومات ويقول عنه الدكتور عبدالوهاب عزام: «صحبته في رحلاته سائرًا من فلسطين إلى سورية ومصر وفي أسفاره في إيران وأفغانستان وباكستان وفيها المعجب وفيها المخيف من الحادثات واستمعت إليه وهو يتحدث عن الملك عبدالعزيز رحمه الله وثنائه عليه وما زلت مع أسد في بادية الحجاز وهو يحل ويرحل ويقص من سيرته عن سفره، ومخاطراته في بلاد الإسلام، ويبين كيف آثر الإسلام فرضيه دينا ودخل في أخوة المسلمين، ويصف العرب في باديتهم حتى وافيته في صعيد عرفات فأستمع إليه يقول بعد الإفاضة من الموقف العظيم وهو يدعو المسلمين إلى التمسك بسنتهم والاقتداء بنبيهم ويحذرهم عاقبة التفريط والتقليد انتهى كلامه.

لقد استهل حديثه عن رحلته إلى الحج في سنة ١٩٧٢م، وقد بدأ رحلته من مصر إلى جدة عبر البحر الذي يدعى بالأحمر دون أن يعرف أحد السبب في هذه التسمية كما يقول واصفًا الطريق ورحلته بالباخرة حيث كانت مياه البحر الأحمر.

تكتنفها من الجانب الأيمن جبال القارة الإفريقية، ومن

الجانب الأيسر جبال شبه جزيرة سيناء، وكلها سلاسل عارية، صخرية جرداء كانت تبتعد بعضها عن بعض، كلما تقدمنا، وتزداد اكفهرارًا مما جعل الأرض تحس بأكثر مما ترى. وعندما أصبحنا، في أواخر الأصيل، في عرض البحر الأحمر، أصبحت مياهه زرقاء كمياه البحر الأبيض المتوسط تحت لمسات الهواء العليل.

لم يكن في السفينة مسافرون غير الحجاج، وكان هناك منهم عدد كبير جدًا بحيث إن الباخرة قد ضاقت بهم، ذلك أن شركة البواخر إذ كانت تحرص مدفوعة بجشعها ونهمها، على الاستفادة إلى أبعد الحدود من موسم الحج القصير، قد حشرت المسافرين حشرًا، ضاربة براحتهم ورفاهيتهم عرض الحائط، لقد حشرتهم على السطح، وفي الغرف والممرات، والسلالم، وغرف الطعام من الدرجتين الأولى والثانية، والعنابر التي أفرغت من الحمولة لهذاالغرض وزودت بسلالم مؤقتة: وفي كل مكان أو زاوية توفرت لديها. وكان المسافرون، في معظمهم، حجاجًا قادمين من مصر، وأفريقيا الشمالية، احتملوا، بصبر عظيم، وواضعين نصب أعينهم هدف الرحلة من دون أي شيء آخر، كل ذلك الضيق، دون تذمر أو شكوى، كل من قدر له أن يراهم كيف كان يجلسون القرفصاء على ألواح الخشب، جماعات متراصة، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وكيف كانوا يعدون طعامهم بصعوبة وعسر (ذلك أن الشركة لم تكن لتقدم لهم أي طعام)، وكيف كانوا يسعون دائمًا، جيئة وذهابًا، طلبًا للماء في صفائح من تنك أو أوعية من الخيش، وكل حركة من حركاتهم في هذا الخضم البشري عذاب مقيم، وكيف

كانوا سوى عدد قليل جدًا لمثل هذا الخلق العظيم - كما يؤدوا فريضة الوضوء قبل الصلاة، كيف كانت أنفاسهم تضيق في هواء العنابر العميقة - طابقين تحت السطح - حيث تشحن البالات والصناديق في العادي من الأحوال. إن كل من قدر له أن يرى ذلك لم يكن ليجد مفرًا من إدراك قوة الإيمان التي كانت تعمر صدور هؤلاء الحجاج. لم يكن يبدو عليهم أنهم كانوا يشعرون بما يقاسون من آلام، ذلك أنهم كانوا مستغرقين إلى أبعد حدود الاستغراق في التفكير في مكة، ولم يكن لهم من حديث سوى حجهم. والحق أن الانفعال الذي به كانوا يتطلعون إلى مستقبلهم القريب قد أضاء منهم الوجوه، وكانت النسوة ينشدن معًا أناشيد المدينة المقدسة، ومرة بعد أخرى : «لبيك اللهم لبيك»!

ويستمر في وصف رحلته عندما أقبل على رابغ قائلاً :

وعند ظهر اليوم التالي تقريبًا حوت صفارة الباخرة، دلالة على أننا وصلنا إلى رابغ، وهي ميناء صغير إلى الشمال من جدة. هنا، كما تقضي بذلك التعاليم الإسلامية ينبغي للحجاج القادمين من الشمال أن يطرحوا ثيابهم اليومية، وأن يضعوا على أجسامهم لباس الإحرام. أما السبب في هذا اللباس، وهو من تعاليم الرسول ﷺ، فهو أنه في إبان الحج يجب أن يتجرد كل زائر لبيت الله من كل شعور بالفرق بين الأمم والأجناس، أو بين الغني والفقير، والرفيع والوضيع، لكي يعلم الجميع أنهم أخوة سواسية أمام الله والناس. وإذن فسريعًا ما اختفت جميع ألبسة الرجال الزاهية، ولم يعد باستطاعتك أن ترى الطرابيش التونسية الحمراء، أو البرانس

المراكشية الفاخرة، أو جلابيات الفلاحين المصريين الكثيرة الزخرف: وفي كل مكان من حولك لم يكن هناك سوى هذا اللباس الأبيض المتواضع، مجردًا من أي زينة تتزين به الأجسام التي أخذت تمشى الآن بقدر أكبر من الاعتدال والعزة.

وفي فجر اليوم الثالث ألقت السفينة مراسيها عند شاطئ جزيرة العرب، ووقف معظمنا عند حاجز السفينة، وحدقوا بأبصارهم إلى الأراضي التي كانت ترتفع ببطء من بين ضباب الصباح.

ولقد كان باستطاعة المرء أن يلمح، في جميع الجهات، أشباح سفن الحجاج، وبينها وبين اليابسة أقلام صفراء فاقعة زمردية في الماء: شطوط مرجانية غائصة في الماء تؤلف جزءًا من تلك السلسلة الطويلة الممتدة أمام الشاطئ الشرقي من البحر الأحمر، ووراءنا، نحو الشرق، كان هناك شيء يشبه الكثيب، مسود ومنخفض، ولكن ما أن ارتفعت الشمس من ورائه حتى انقلب إلى بلدة على البحر، تزداد بيوتها ارتفاعًا من طرفها إلى وسطها فتشكل بناء دقيقًا من الأحجار المرجانية الحمراء والصفراء الداكنة: ميناء جدة. وشيئًا فشيئًا أصبح باستطاعتك أن تميز النوافذ المنقوشة، وستائر الشرفات الخشبية التي خلع عليها الهواء الرطب على مر السنين لوناً أخضر داكنًا، وفي الوسط برزت منارة بيضاء مستقيمة كإصبع منتصبة.

ومرة أخرى ارتفعت صيحة «لبيك، اللهم لبيك» صيحة سرور من التسليم والاندفاع انطلقت مع الحجاج المتحمسين في لباس

الإحرام الأبيض على ظهر السفينة فوق المياه إلى أرض أمانيهم القصوى.

أمانيهم هم، وأمانيَّ أنا: ذلك أن شاطئ الجزيرة العربية؛ كان بالنسبة إليّ، ذروة سنوات من البحث.

ومن ثم رأينا جيشًا من الأجنحة البيضاء تندفع نحونا من البر: الزوارق العربية التي مخرت بأشرعتها المياه الهادئة، وشقت طريقها بصمت بين الشواطئ المرجانية غير المنظورة - أول رسل جزيرة العرب، مستعدة لاستقبالنا، وإذ اقتربت رويدًا رويدًا من السفينة لتزدحم، آخر الأمر سواريها المتمايلة إلى جانبها، انطوت أشرعتها الواحد تلو الآخر كأنها أجنحة طيور تصفق فرحًا بعثورها على الطعام، وانبعث من صمت اللحظة المنصرمة صراخ وصياح من وسطها، صياح الملاحين الذين أخذوا يقفزون من زورق إلى زورق واندفعوا إلى سلم السفينة ليفوزوا بأمتعة الحجاج، الذين أخذوا، كما لم يؤخذوا قط من قبل، برؤية الأرضي المقدسة، تركوا الأمور تجري دون أن يبدوا أية مقاومة أو دفاع عن النفس.

ويستمر في وصف مياه البحر المرجاني والمشاعر والأحاسيس وعن رحلاته إلى إيران ومصر وبلدان أوروبا والبحار التي مشى فيها، ثم يقول لقد كان أمام شاطئ البحر الأحمر الذي تقع العين فيه على مبان متشابهة على كل من جانبيه.

إلا أن جزيرة العرب قد دللت على نفسها من بعد بسمائها الفولاذية، وكثبانها الرملية العارية وتلالها الصخرية نحو الشرق،

وفي تلك النفحة من العظمة وذلك الجدب العاري اللذين يمتزجان دائمًا ذلك الامتزاج الغريب في جزيرة العرب.

ثم أفاض في الحديث عن رحلته وترجمة ما فيها من مشاهد حيث يقول:

وفي أصيل اليوم التالي سارت قافلتنا في طريق مكة، تتلوى بين جماهير الحجاج، والبدو، والجمال التي تعلوها الهوادج، والهجن، والحمير بحلاها الزاهية، نحو الباب الشرقي. وكانت السيارات تمر بنا بين حين وآخر، الأولى تحمل الحجاج وتزعق أبواقها مبددة صمت المكان، وقد بدا لي أن الإبل كانت شاعرة بأن السيارات عدوة لها، ذلك أنها كانت تجفل كلما اقتربت منها سيارة، وتدير رؤوسها باحتدام وغيظ نحو جدران المنازل، وتحرك أعناقها ذات اليمين وذات اليسار، وقد بدا عليها الاضطراب واليأس. لقد كان هنالك زمن جديد يقترب مهددًا تلك الحيوانات الشامخة الصابرة، فيملأها خوفًا وتشاؤمًا. ثم أخذ في وصف مشارف جدة ومعالمها بعد مغادرتها:

وقفنا هنيهة خلفنا ووراءنا أسوار جدة البيضاء ووجدنا أنسنا فجأة في الصحراء - في سهل عريض أشهب متوحد منقط بالعلق الشائك والحشائش والتلال المنخفضة المعزولة التي كانت ترتفع منه جزر في البحر، مصونة من الشرق بسلاسل صخرية أكثر ارتفاعًا بعض الشيء، جرداء لا أثر فيها لأي حياة. وفوق ذلك السهل المهيب كله كانت القوفل تشق طريقها بعناء وفي مواكب

طويلة، مئات وألوف من الجمال - واحدًا بعد آخر في صف واحد، محملة بالهوادج والحجاج والأمتعة، تختفي أحيانًا وراء التلال لتظهر مرة أخرى، وبصورة تدريجية التقت مسالكها في طريق رملي واحد اختطته قوافل مماثلة عبر قرون مطاولة.

وفي صمت الصحراء وقع خفوف الجمال، ونداءات سائقيها البدو بين حين وآخر.

كان معظم الحجاج يركبون الهودج - أي هودجين على كل مطية واحدة - وكانت حركة المطايا اللفافة تصيب الإنسان بالدوار وكان التعب يأخذ من أحدنا كل مأخذ فيغفو بضع لحظات ليصحوا على رجة مفاجئة، ثم يغفو ثانية، ليستيقظ كرة أخرى. ومن آن إلى آخر كان سائقو الجمال، الذين كانوا يرافقون القافلة مشيًا على الأقدام، ينادون حيواناتهم، أو يغني أحدهم، بين الفينة والأخرى، على خطوات المطايا الطويلة.

ووصلنا إلى بحره مع الصبح تقريباً، فتوقفت القافلة لقضاء النهار، ذلك أن الحر لم يكن يسمح بالمسير إلا أثناء الليل، ويصف بحره قائلاً:

هذه القرية، التي لم تكن في الحقيقة سوى صف مزدوج من الأكواخ، والمقاهي، وبعض البيوت المصنوعة من سوق النخيل، ومسجد صغير: كانت المكان التقليدي الذي اعتادت القوافل أن تتوقف فيه إذ كان في منتصف الطريق بين جدة ومكة. منذ أن تركنا الساحل ظلت الأرض نفسها تقريبًا: صحراء مع تلال متوحدة هنا

وهناك، وجبال زرقاء في الشرق تفصل تهامة عن نجد، بيد أن كل تلك الصحراء من حولنا كانت أشبه الآن بمعسكر كبير جدًا من الخيام، والمطايا، والهوادج التي لا عد لها ولا حصر، وخليط من اللغات المتعددة - العربية والهندوستانية والفارسية والصومالية والتركية إلى غير ذلك من اللغات التي لم يعلم عددها إلا الله. كان ذلك في الحق مجموعة من الأمم، غير أنه لما كان كل فرد يرتدي لباس الإحرام فإن المرء لم يكن يلحظ أيما فرق بين مختلف الأجناس التي بدت وكأنها أمة واحدة ليس غير.

ولقد كان الحجاج متعبين بعد تلك الليلة التي قضوها في المسير. ولا شك في أن السفر، بالنسبة إلى معظمهم، كان مهمة غير عادية إلى حد بعيد، وأن تلك الرحلة الأولى من نوعها في حياة بعضهم.

وقبل شروق شمس اليوم التالي ضاق السهل الرملي واقتربت التلال بعضها من بعض، وعبرنا مضيقًا ورأينا على ضوء الفجر الشاحب أول بيوت مكة، ثم دخلنا مع شروق الشمس.

كانت البيوت تشبه بيوت جدة بنوافذها البارزة وشرفاتها المحصورة ولكن الحجارة التي كانت مبينة منها كان يبدو أنها أثقل وزنًا وأضخم جسمًا من حجارة جدة المرجانية الخفيفة اللون. كان الصباح باكرًا ما يزال، ومع ذلك كانت الحرارة الشديدة آخذة في الازدياد. وأمام الكثير من البيوت كانت هناك مقاعد عليها كان يرقد رجال متعبون. وأخذت الشوارع غير المرصوفة تضيق شيئًا

فشيئاً، بينما كانت قافلتنا تتخطاها إلى وسط المدينة، وإذ لم يبق للحج إلا أيام معدودات، فقد كانت الجماهير غفيرة جدًا في الشوارع، حجاج لا عد لهم ولا حصر بلباس الإحرام، وآخرون ارتدوا مؤقتًا ثيابهم العادية - ثيابًا من جميع أرجاء العالم الإسلامي، وسقاة منحنون فوق قربهم أو تحت نير تتدلى من كل طرفيه صفيحة كاز قديمة تستخدم بدلاً من الدلو، وسائقو حمير مع حميرهم ذات الأجراس الرنانة وسرجها البهية المبهرجة، ومطايا قادمة من الجهة المقابلة محملة بالهوادج الفارغة، تعج بنغمات مختلفة. ولقد كان هنالك هرج ومرج وضوضاء عظيمة في الشوارع الضيقة بحيث كان يخيل إليك أن الحج لم يكن شيئًا يحدث سنويًا منذ قرون، بل مفاجأة لم يكن الناس قد أعدوا لها عدتها، ولم تعد قافلتنا قافلة بمعنى الكلمة بل خليطًا مضطربًا من الإبل والهوادج والأمتعة، والحجاج، وسائقي الجمال، والضجيج.

وبعد فطور سخي قدمه إلينا المطوف، خرجت إلى المسجد الحرام، وكان دليلي إليه الشاب نفسه الذي سبق له أن استقبلنا من قبل، فمشينا خلال الشوارع المكتظة الصاخبة، ومررنا بحوانيت القصابين وقد علقت أمامها صفوف الخرفان المسلوخة، وباعة الخضار وقد نشروا بضاعتهم فوق حصائر من قش فرشت على الأرض، وبين أسراب الذباب ورائحة الخضار، والغبار، والعرق، ومن ثم خلال سوق ضيقة مسقوفة لم يكن فيها غير حوانيت باعة الثياب من كل نوع ولون.

وكانت الحوانيت، كوى صغيرة ترتفع مقدار متر واحد عن

أرض السوق، فيها يجلس صاحب الحانوت متربعًا وقد أحاط نفسه بأكوام الأقمشة من مختلف الألوان، في حين تتدلى فوق رأسه جميع أصناف الألبسة لجميع أمم العالم الإسلامي وبعد ذلك أخذ في إعطاء وصف دقيق وصورة حية عن الحج حيث يقول:

وكان هناك، أيضًا، من جميع الأجناس والهيئات، بعضهم يلبسون العمائم وبعضهم مكشوفو الرؤوس، بعضهم يمشون صامتين، وقد أحنوا رؤوسهم، وغيرهم يهرولون بخفة بين الجماهير. هرج ومرج وضجيج وعجيج من كل جانب بحيث تشعر أنك وسط أمواج متكسرة وتستطيع أن ترسم بعض خطوطها ولا تستطيع أن تأخذ لها أبدًا صورة كاملة. إلى أن وجدنا أنفسنا، فجأة، أمام إحدى بوابات الحرم.

ومن ثم رأيت لأول مرة المربع داخل الحرم.

وهذه إذن، كانت الكعبة، التي كانت ولا تزال محط أشواق الملايين الكثيرة من الناس قرونًا عديدة، إن حجاجًا لا يحصون ولا يعدون قد بذلوا تضحيات عظيمة عبر العصور للوصول إلى هذه المحجة، فمات الكثيرون منهم على الطريق وبلغها الكثيرون منهم بعد مشقة كبرى، وفي أعينهم جميعًا كان ذلك المبنى المربع الصغير ذروة آمالهم وغاية أحلامهم.

هناك انتصبت الكعبة، مغطاة بكاملها بالنسيج الحريري الأسود، جزيرة هادئة وسط ساحة المسجد المربعة الواسعة: أبسط كثيرًا من أي أثر معماري آخر في العالم.

لقد سبق لي أن رأيت في بلدان إسلامية مختلفة مساجد أبدعت في بنائها أيدي الفنانين من المهندسين المعماريين العظام. رأيت مساجد في أفريقيا الشمالية، معابد تتألق بالرخام والمرمر الأبيض، وقبة الصخرة في القدس، قبة كاملة فوق بناء دقيق، ومباني استانبول الفخمة، ومسجد بايزيد، ومساجد بورصة في الأناضول، ومساجد الصفوية في إيران روائع ملكية من حجارة زاهية وبلاطات ملونة وأبواب مطعمة بالفضة، وخرائب مساجد تيمورلنك الجبارة في سمرقند الرائعة.

كل هذه سبق أن رأيتها - ولكن شعوري لم يكن قط قويًا كما كان الآن أمام الكعبة.

إن جزءًا من فريضة الحج أن تطوف بالكعبة سبع مرات، إن الكعبة هي رمز وحدانية الله.

وتقدمت أنا أيضًا، وأصبحت جزءًا من ذلك السيل الدائري حول الكعبة، وكنت بين الفينة والأخرى أشعر بوجود رجل أو امرأة بقربي: صور منفردة تبدت لعيني لتختفي من بعد عنهما.

وتلاشت الدقائق، وهدأ الزمن نفسه، وكان هذا المكان هو محور العالم، وبعد وصف مقام إبراهيم ثم أخذ في وصف عرفات قائلاً:

وعلى مقربة من هنا، ولكني لا أستطيع أن أراه وسط هذا القفر الميت من الوديان والتلال، يقع سهل عرفات، حيث يتجمع جميع الحجاج الذين يأتون إلى مكة في يوم من أيام السنة كيما

يذكروا ذلك «اليوم الآخر» عندما يتعين على الإنسان أن يؤدي لخالقه حساباً عن كل ما أتاه في هذه الحياة الدنيا. كم وقفت هنا، عاري الرأس، في ثوب الإحرام الأبيض، بين حشد من الحجيج المرتدين الثياب البيضاء، العاري الروؤس، من قارات ثلاث، وشاهدنا جبل الرحمة المنتصب من السهل الفسيح: واقفين متربصين، حتى الأصيل، نتفكر في ذلك اليوم الذي لا مفرّ منه، يوم الحساب.

وإذ وقفت على رأس التلة أحدق إلى أسفل نحو سهل عرفات الغائب عن ناظري، شعرت كأن الأرض أمامي، التي كانت ميتة منذ لحظة، قد بدت فيها الحياة من جديد بتلك التيارات من الأنفس البشرية التي مرت عبرها، وامتلأت بالأصوات الغريبة تصدر عن ملايين الرجال والنساء الذين مشوا ما بين مكة وعرفات في أكثر من ألف وثلاثمائة حجة منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة، إن أصواتهم وخطواتهم وأصوات حيواناتهم، وخطواتها، تستيقظ وتسمع من جديد: إني أراهم يمشون ويركبون ويتجمعون - كل تلك الملايين من الحجاج بثيابهم البيضاء عبر ألف وثلاثمائة عام، إني أسمع أصواتهم، وأجنحة الإيمان الذي جذبهم معًا إلى هذه الأرض من الصخور والرمال.

ومرة أخرى أراني راكبًا فوق سهل عرفات - راكبًا في عدو سريع فوق السهل، وسط ألوف وألوف في ثياب الإحرام، عائدين من عرفات إلى منى ثم مكة - نقطة دقيقة تافهة من تلك الموجة العارمة المزمجرة من الرجال والإبل الذين لا عدّ لهم ولا حصر.

ويفيض في الحديث مصورًا رحلة العودة من عرفات إلى المزدلفة ومنى قائلاً:

ونتابع ركوبنا، هاجمين طائرين فوق السهل، ويخيل إليّ أننا طائرون مع الريح، منغمسون في سعادة لا تعرف نهاية ولا حدودًا .. وتزعق الريح في أذني بنشيد النصر: «إنك لن تكون غريبًا بعد الآن، أبدًا أبدًا!».

إخوان لي عن اليمين، وإخوان لي عن اليسار، كلهم لا أعرفهم ولكن أحدًا منهم ليس غريبًا عني: فنحن في فرحة سباقنا المضطربة جسم واحد يسعى إلى هدف واحد. إن العالم أمامنا لفسيح. ووسط الضوضاء التي تصم الآذان من خطوات الألوف من الإبل المندفعة والمئات من البيارق المصفقة، تنمو صرخة الحجاج إلى زمجرة منتشية ظافرة: «الله أكبر».

وتسيل هذه الزمجرة في موجات عارمة قوية فوق رؤوس الألوف من الرجال فوق السهل الفسيح، إلى أطراف الأرض جميعًا: «الله أكبر!» لقد سما هؤلاء الرجال فوق حيواتهم الصغيرة، إن إيمانهم يدفعهم الآن إلى الأمام، كأنهم بنيان واحد نحو آفاق غير محدودة .. يخطو الإنسان خطوات واسعة بكل ما وهبه الله من بهاء وسناء: خطوة بهجة، لإتمام مناسك الحج.

وبالجملة فقد جاءت هذه الرحلة إلى بيت الله الحرام تعكس أشكالًا وأنماطًا من النواحي التاريخية والجغرافية وواقع الحضارات القديمة وهي تجدد لنا مستوى ثقافته وخبرته وغير ذلك

من النماذج والأنماط المتنوعة وهي تعكس لنا أبعادًا كثيرة عن التوجهات الدينية واهتمامه بالقضايا التاريخية والاجتماعية ولقد كانت النظرة الإسلامية ذات مفهوم واضح حدد البعد الفكري والأخلاقي للعقيدة الإسلامية التي دفعته لرحلة الحج حيث رأى في الإسلام نظرة شاملة للحياة والكون وللإنسان والتحرر من الأساطير والأوهام كما أشار إلى ذلك لقد كانت الرحلة مرحلة جديدة في حياته زادته إيمانًا وثباتًا وقوة، وهكذا من كتاب الله وسنة الرسول الكريم اتضحت له معالم الشخصية الإسلامية فكرًا وعملًا - لقد شاهد في رحلته إلى المشاعر المقدسة الكبير والصغير والأبيض والأسود الغني والفقير كلهم متساوون في حقوقهم الإنسانية لا تمايز بينهم في جنس أو لون فكل المشاعر والأعمال التي تؤدى لا يقصد بها إلا وجه الله وذكره وفضله .. في أجواء مفعمة بالإيمان.

وبعد فإن الحج في أدب الرحلات هو رسالة فكرية قدمها عدد من الرحالة من أبناء الأمة الإسلامية إلى العالم فهي تجسيد ملموس للثقافة الإسلامية برمتها والضارب تاريخها في أعماق العهود الزاهية للإسلام.

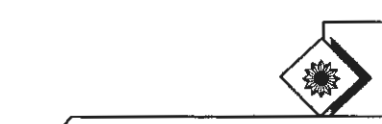

رحلة أحمد أمين

لقد دوّن الأستاذ أحمد أمين رحلته وهو الأديب المصري المعروف ومن كبار الكتّاب، وعالم بالأدب وغزير الاطلاع على التاريخ والتراث الإسلامي، عمل أستاذًا بالجامعة المصرية، وكان عضوًا في مجامع اللغة العربية في القاهرة ودمشق وبغداد، وتتجلى رحلة الحج من خلال رؤية الرحالة في هذه الرحلة الإيمانية إلى البقاع المقدسة، ويستهل حديثه عن ذلك قائلاً: عن الحج رياضة روحية ورحلة دينية، طالبت به الأديان على اختلاف أشكالها وأزمانها، وليس الحج إلى الكعبة إلا تعظيمًا لبيت من بيوت الله، ورمزًا إلى الأمكنة المقدسة التي عبدالله فيها إبراهيم وإسماعيل وغيرهما من الأنبياء والصديقين.

طهره الإسلام من الأوثان وجعله رمزًا لعبادة الله، وجعل ما فيه من الشعائر ذكري لأبينا إبراهيم عليه السلام في سعيه وطوافه، ومجتمعًا للنفوس الطاهرة تدعو ربها وتطلب منه الرحمة والمغفرة.

وعد الحج ركنًا من أركان الإسلام الخمسة، وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وليس ذكر الحج في آخر الأركان إلا أنه عبادة العمر، وختام الأمر، وتمام

الإسلام، وكمال الدين.

وفي الحق أن في الحج فوائد دينية عديدة، فالحاج إذا نوى السفر من وطنه استحضر أماله واستذكر سيئاته وندم عليها وتهيأت نفسه لقبول الخير، فكان في ذلك طهارة من ذنوبه وحسن استعداد لطهارة نفسه وقربها من الخير وبعدها عن الشر.

والتجأ إلى الله أن يحفظه في أهله وماله وولده، وأن يوفقه للبر والتقوى وأن يرزقه في سفره سلامة البدن والدين والمال ويبلّغه حجَه على أحسن وجه وأكمله، وفي هذا كله طهارة لنفسه وقوة لروحانيته.

فإذا تقدم في أعمال الحج فأول ما يواجهه الإحرام، وهو أن يتجرد الرجل من كل ثوب مخيط ويلبس إزارًا ورداء، ويلبس في رجليه نعلين، ويعجون إذ ذاك بالتلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك له، فترى الناس إذا أحرموا لبسوا اللباس الأبيض البسيط، واختير اللون الأبيض لأنه أدل على الطهارة والنظافة، والطهارة والنظافة في الثياب تشعران بالطهارة والنظافة في النفس، وحرم المخيط من الثياب رمزًا إلى أن الإنسان خارج إلى ربه من زخارف الدنيا وما فيها؛ لأن لبس المخيط من الثياب وسيلة التفاوت بين اللابسين، فيكون الحج مظهرًا للأزياء المختلفة والصناعات المتفاوتة، والإسلام يريد في مثل هذا الموقف إشعار الناس بأنهم أمام الله سواء، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، وملكهم وصعلوكهم، وهذا

مظهر من مظاهر المساواة في الإسلام، وكثيرًا ما قصد الإسلام إلى المساواة عرض مترين، أقيم على قطعة من صخرة مرتفعة ليرجمها الناس بالحجارة إذا رجعوا من عرفات، تمثيلاً لقوة نفوسهم وتجسيمهم الشيطان ورميه بالحجارة، وبعد الخروج من منى والمرور بواد ضيق يتسع الوادي وتنفتح أرجاؤه إلى الشمال والجنوب.

يجتمع الناس في هذا المكان في اليوم التاسع من ذي الحجة مع قليل من ليلة العاشر فترى منظرًا عجبًا، لا أذكر في حياتي أن رأيت منظرًا أرهب منه ولا أجل منه: عصبة أمم لا عصبة حكومات، يجمعهم غرض واحد ولا تشتتهم الأغراض، يرجون التخفف من الدنيا ويندمون على التفاني في أعراضها، يحتقرون أصنام الناس من مال وجاه وشهوات، ويسعون إلى طلب رضا الله بطاعته، ويشعرون بالسعادة الحقيقة، وهي السعادة الروحية الباقية لا ... المادية الفانية، ويؤمنون بإله واحد، له وحده يخضعون وبه وحده يستعينون، أما الخضوع لغيره فضرب من الإشراك، وأما التذلل في سبيل المال والجاه وأعراض الحياة فضرب من العبودية لا يرضاه دين الإسلام، كلهم ينادي: لبيك اللهم لبيك، فتتجاوب بهذه الكلمة الأرجاء وتدوي بها الأصداء، فتتغلب روحانيات الناس على مادياتهم، هنالك يتطلع الناس إلى رحمة ربهم ويطلبون منه العون على صفاء نفوسهم، ويحتقرون أنفسهم الماضية التي خضعت للشهوات وأفسدتها اللذات، ويسعون إلى مثل أعلى فيها حب الخير وبغض الشر، والرجاء من الله أن يوفقهم إلى حياة من

نوع آخر فيها الطاعة والإخلاص وعمل الخير.

قد احتشد مئات من الناس .. بملابسهم البيضاء يعجون بالتلبية والدعاء والتسبيح والتهليل حتى يزلزلوا الجبل بدعائهم وابتهالهم، قد نسوا دنياهم ونسوا أنفسهم وتعلقت أرواحهم بربهم، وهذا يستغفر مما جنى، وهذا يندم على ما فات، وهذا يعاهد الله على الطهر الدائم، وكلهم يرجون افتتاح حياة جديدة عمادها التقوى والإخلاص.

ثم يأخذ في تصوير الموقف في عرفة قائلاً: وبعد صلاة العصر ذلك اليوم ينهض خطيب عرفة ويصعد بناقته على الجبل ويقف على الصخرة التي وقف عليها رسول الله ﷺ فخطب خطبة الوداع، فيخطب الخطيب خطبة يعلم فيها مناسك الحج ويكثر فيها من التلبية والدعاء، ومن دونه قوم يبلغون للناس قوله ويلوحون بمناديل يشيرون بها إلى التلبية، يتابعه كل الناس بتلبيتهم فتتحد نداءاتهم ويغمر الناس إذ ذاك شعور غريب.

وفي هذا الاجتماع فرصة كبيرة لتلاقي ذوي الرأي من المسلمين في الأقطار المختلفة، يتبادلون الرأي فيما يصلح أممهم دينير السبيل لمستقبلهم.

حتى إذا غابت الشمس في الأفق أعلن تمام الموقف فينفر الناس من عرفات هاتفين هتاف الفرح والسرور على ما وفقهم الله من أداء الفرض.

هذا هو الوقوف بعرفة وهو أهم ركن من أركان الحج، من

فاته فقد فاته الحج؛ لأن أهم جزء في الحج يحقق حكمته، ففيه يجتمع المسلمون بعد الرياضة الروحية الطويلة والأسفار الشاقة، ويتجهون اتجاهًا واحدًا، ويتبادلون النصيحة والشعور بالأخوة، ويرغبون في زوال الشرور عنهم وتوالي نعم الله عليهم، ولهذا جاء في الحديث: «ما رؤي الشيطان في يوم هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة».

بعد هذا ينفر الحجاج من عرفات إلى منى وفي طريقهم يمرون على المزدلفة وينزلون بها ويقيمون بها إلى ما بعد صلاة الصبح، وفي هذه المزدلفة المشعر الحرام فضاء من الأرض أحيط بجدار قصير تتوسطه مئذنة تضاء أيام الحج، وبجواره مجرى عين زبيدة، وسمي المشعر لأن العرب كانت قد اعتادت أن تشعر جِمالها عنده أي تضربها في سنامها حتى يسيل منها الدم في التضحية.

ويسترسل في الحديث بعد وصول الحجاج إلى منى قائلاً: يصل الحجاج إلى منى وينصبون خيامهم في فضائها الواسع، ومنى ليست مجرد صحراء كعرفات والمزدلفة، وإنما هي قرية بها مبان ومساكن يقيم بها بعض الناس طوال العام وبعضهم في موسم الحج، وينزل بعض الحجاج في هذه المساكن بدل الخيام.

ويقيم بها الحجاج إلى عصر اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، فيهبون إلى الجمرات يرجمونها، كأنهم يرمزون برجمها إلى أنهم يحاربون الشيطان وانتصروا على نوازع الشر في نفوسهم، وكبحوا جماح شهواتهم ورجموها وتغلبوا عليها، فلم يعد في

نفوسهم إلا الطهارة والطاعة وعبادة الله وحده.

فإذا تمت هذه الأعمال، ونزل الحجاج إلى مكة فطافوا بالكعبة طواف الإفاضة، وسعوا وتحللوا، وبذلك يتم الحج.

وبعد هذا يقصد أكثر الحجاج إلى زيارة مسجد رسول الله ﷺ في المدينة.

هذه هي المدينة بأسرارها وأبوابها، وهذه هي القبة الخضراء تدلنا على مكان الحرم منها، هذه هي المدينة التي كان يقيم فيها الأوس والخزرج، وهم أول من قبلوا الدعوة الإسلامية من القبائل العربية وبايعوا رسول الله ﷺ على أن يؤمنوا بدعوته ويحموه مما يحمون منه أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وسموا من أجل ذلك بالأنصار.

وهذه هي المدينة التي استقبلت النبي حين هاجر إليها استقبالاً رائعًا، واستقبلت من أتى منعه ومن أتى بعده من المهاجرين، وأشركوهم في ديارهم وأموالهم وعقدوا الأخوة بينهم.

هذه كلها ذكريات مرت بذهبي وأنا أدخل المدينة وأزور الحرم، وهذه الذكريات وأمثالها يذكرها الذاكرون من عباد الله المخلصين عند الحج في موسم الحج.

وبعد: فقد جاءت رحلته، وحديثه صورة بيانية أدبية في الحديث عن الحج في موسم الحج، والمتفحص لرحلته يدرك سمو بيانه وعلمه وثقافته الواسعة، حيث جاء وصفه دقيقًا وأعطانا صورة واضحة المعالم، وبوصوله إلى المدينة المنورة كان الشوق

قد أضناه إلى هذه الرحاب الطاهرة التي رآها في صورة رائعة، فوصف تأثره بها ومدى انبهاره بمجدها وتاريخها الحافل العريق.

لقد جاءت رحلته إلى الحج مؤثرة ملكت عليه مشاعره وحواسه خلال رؤيته لهذا البلد المبارك الأمين، يهيج به مكامن الأشواق لدى المتلقي لزيارة هذه الأماكن المقدسة.

وهو وإن لم يصف لنا ما شاهده في الطريق بين المدينتين مكة والمدينة، فلأن الشوق والحنين إليها لم يسبقاه على تملي المشاهد بين المدينتين. ومن خلال الصورة التي قدمها نجد أنه جعل من هذه الرحلة وثيقة أدبية تاريخية صادقة ودقيقة يستفيد منها المؤرخون والأدباء والجغرافيون على حد سواء.

رحلة الشيخ علي الطنطاوي ١٩٣٥م

هو من العلماء الأفذاذ والأدباء النابهين ونشا على حب اللغة العربية والأدب والثقافة الإسلامية الواسعة حيث تولى القضاء والتدريس في كلية الشريعة في دمشق والرياض ومكة المكرمة، وله كتب كثيرة ومقالات متنوعة وأحاديث في الإذاعة والتلفاز، وقد استقر في نهاية عمره في مكة المكرمة وتوفي سنة ١٤٢٠هـ رحمه الله ولقد استهل حديثه عن الحج بأسلوبه الأدبي السهل قائلاً:

يا عازمين على الحج، يا من يشد الرحال، ويعد الأحمال، ليصل إلى فناء الحرم، ويقوم عند الملتزم، ويشرب من ماء زمزم: قفوا قليلاً فاستمعوا مني كلمة، ثم أمضوا على بركة الله .. إنكم ما حملتم مشاق السفر، ولا رضيتم بفراق الأهل، ولا أنفقتم هذا المال إلا ابتغاء ثواب الله،وادخارًا من الحسنات ليوم الحساب، فهل علمتم قبل أن تمشوا أن الحج حجان: حج مبرور وردت الأحاديث الصحاح بأنه ليس له ثواب إلا الجنة، وأن صاحبه يرجع منه كيوم ولدته أمه، وحج ما فيه إلا إنفاق المال وإرهاقُ الجسد، وفراق العيال، فماذا تعملون ليرفع الله حجكم إليه، ولا يرده عليكم، فيضرب به وجوهكم.

أنا أقول لكم: هل ترتفع الطيارة إذا أثقلتها بالحديد، وحمّلتها

أضعاف ما تطيق، ثم ربطتها بحبال الفولاذ إلى صخور الجبل؟

إنها لا ترتفع إلا إذا خفّفت أحمالها، وقطعت عنها حبالها، وكذلك الأعمال فإذا أردتم أن يصعد حجكم فخففوا عن عواتقكم أثقال الذنوب، واقطعوا الحبال التي توثقكم بأرض الشهوات، أو حُلُّوها.

فاقعد يا أخي الحاج وحدك، وأحضر فكرك قبل أن تخطو أول خطوة في طريق الحج، وحاسب نفسك، وانظر في حياتك في بيتك، وصلاتك بأهلك، وروابطك بأصحابك، وسلوكك في وظيفتك أو تجارتك، وفي مصادر ثروتك، وطرق إنفاقك، فكر فيها كلها، وقسها بمقياس الشرع، فما وجدته منها محرمًا فتب منه، واستسمح أصحابه قبل أن تمضي إلى الحج.

ثم تدبر أمورك وأمور عيالك في غيبتك لتريح بالك منها، فلا تفكر فيها وأنت في الحج، فتعطي أهلك من النفقة ما يكفيهم في غيابك، وتوكل بهم من يقوم بأمرهم إلى حين عودتك، وتعهد بعملك إلى من تثق به، وتعتمد بعد الله عليه.

ويمضي مسترسلاً في الحديث وذكر الحج وشعائره وآدابه قائلاً:

واعلم يا أخي الحاج أن الحج غسل للقلب من أوضار الذنوب، فهل يغسل أحد جسدَه من الأوساخ بالماء الوسخ؟ فكيف إذن تبغي أن تتخلص بالحج من تبعات الحرام إذا كان حجك بمال حرام؟ إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا فليكن أول ما

تصنعه أن تعد لنفقات حجك مالاً حلالاً.

ويوصي بأهمية اختيار الرفيق قبل الطريق للحج قائلاً:

واعلموا أن على ألسنة الناس أقوالاً سائرة يلقونها، لا يفكرون بمعناها، وكأنها من كثرة الترداد قد صارت ألفاظًا بلا معانٍ، وهي ثمرة تجارب بشرية طويلة منها قوله: (الرفيق قبل الطريق).

وأولى سفرة باختيار الرفيق الصلاح سفرة الحج، ورب رفيق حججتَ معه فاستفدت من علمه، واسترحت إلى حلمه، واطمأننت إلى أمانته، ورب رفيق نغّص عليك حجتك، وأضاع عليك ثوابك.

رفيق يجعل الحج مردودًا ومرفوضًا، ورفيق يجعله مبروراً ومقبولاً، فاختر لك رفيقًا عالمًا بالمناسك، فإن لم تجد فخذ كتابًا من كتب المناسك لعالم موثوق به، ولا تركن إلى هذه الكتب التي يؤلفها من ليسوا بعلماء، ولو رأيت الإعلان عنها، والدعوة إليها، فإن فيها خطأ كثيرًا.

ولا تأخذ كلام المطوفين قضية مسلمة فإن أكثرهم من غير العلماء.

ولا تقبل من كل من يتكلم في العلم فربما تكلم في العلم في زماننا وتصدر للإفتاء من ليس بعالم ولا بطالب علم.

فإذا أعددتم المال الحلال، وانتقيتم الرفيق الصالح، وتبتم من

ذنوبكم، وأديتم الحقوق التي عليكم، فأخلوا أذهانكم من هموم العيش وخلّفوها وراءكم، وفرّغوا قلوبكم ما استطعتم لربكم، فإنكم تفكرون في الدنيا العمر كله، ففكروا في الآخرة هذه الأيام فقط، وتعملون طول حياتكم لما لا ينفعكم بعد موتكم، فاعملوا هذه الأيام فقط لما يبقى لكم، ويفيدكم يوم العرض على ربكم.

ثم يوجه الحديث والنصح والإرشاد والحفاظ على الوقت وحكمة الحج وشعائره واستشعار معنى الحج ومناسكه وآداب الزيارة وفتح الأبصار والبصائر على هذه الأماكن المقدسة قائلاً:

يا إخواني الحجاج:

إنكم تقومون للصلاة، تنظرون إلى مسير الشمس في النهار، وتبحثون عن نجم القطب في الليل، وتضعون (البوصلة) أمامكم وتستحضرون موقع البلد في أذهانكم لتعرفوا أين تقع الكعبة، فتجعلوها قبلتكم في صلاتكم، وبينكم وبينها الأبعاد والآماد، وبينكم وبينها الصحاري والبحار، والجبال والأنهار، لا يمنعكم بعدها ولا تصدكم العوائق دونها عن أن تتوجهوا إليها بأجسادكم وقلوبكم، وأن تتصوروها على الغيبة، وتحنوا إليها على البعد، فهل أنتم هؤلاء تمشون إليها كما يمشي المحب إلى لقاء المحبوب، ودونه الحُجُب والأستار، فكلما جزتم إليها بادية، أو ركبتم بحرًا، رُفع لكم من دونها حجاب، وكلما دنوتم منها شبرًا رُفع لكم ستر، حتى وصلتم إلى المواقيت.

ويواصل الحديث حول مواقيت الحرم وهذه الفريضة - التي

أكرم الله بها هذه الأمة - قائلاً:

هذي مواقيت الحرم يا حجاج فقفوا، هذه أعتاب ديار المحبوب، هذه مشارف بيت المليك، إن من يدخل حضرة ملك من ملوك الدنيا، يلبس للمقابلة لباسها الرسمي، وهذه أبواب حضرة ملك الملوك، رب العالمين، فاخلعوا عن أجسادكم ثياب الدنيا، والبسوا للنسك لباسه الرسمي.

البسوا ثياب الإحرام التي لا يمتاز فيها غني عن فقير، ولا أمير من أجير، وانزعوا مشاغلها ومشاكلها عن قلوبكم، واغسلوا بالماء أجسادكم، واغسلوا بتجديد، التوبة نفوسكم، وانووا إما الحج وحده، وإما العمرة والحج مقرونين، تدخلون بالعمرة فتطوفون وتسعون وتبقون محرمين إلى انتهاء أعمال الحج، وأما العمرة وحدها فإذا أكملتم مناسكها - أي طفتم وسعيتم - حلقتم ولبستم ثيابكم وحللتم، ثم أحرمتم بالحج يوم الحج، والأول هو الإفراد، والثاني: القران، والثالث: التمتع، وكل ما تنوون حسن، وكل من الثلاثة هو الأفضل في أحد المذاهب، وإن كان التمتع هو آخر ما أمر رسول الله ﷺ العمل به أولى.

ويدعو للتواصي بالسكينة والصبر في الحج قائلاً:

ثم أصغوا تسمعوا صوت الشرع في قلوبكم يأمركم بالتوحيد وإخلاص العبد لله، واتباع سبل الخير، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، اسمعوا أوامر الله في آيات كتابه وأقوال نبيه، فإذا تمثلت لأذهانكم، فأجيبوا بألسنتكم وبقلوبكم:

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

لبيك أمرتنا فأطعنا، ونهيتنا فاجتنبنا، فأعنا اللهم على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، فإنا لا نستطيع أن نقوم بغير معونتك، لا شريك لك، فنطلب منه، ولا إله سواك فنفر إليه، لقد فررنا إليك، وجئنا قاصدين بيتك، فهل تردنا عن بابك خائبين، وأنت أكرم الأكرمين؟

ثم يفيض في الحديث عن المواقيت والالتزام بها قائلاً:

هذه يا حجاج مواقيت الحرم (آبار علي) على أبواب المدينة، و(الجحفة) عند رابغ، و(قرن) عن السيل الكبير، ووادي محرم قرب الطائف، و(يلملم) في الجنوب الشرقي من مكة.

هذه حدود منزل الوحي، لقد جزتموها الآن محرمين، فجدُّوا السير، واحدوا المطي أو استحثوا سائق السيارة.

لقد دنوتم الآن من الحرم، أتعرفون يا إخوان ما الحرم؟

هنا دار السلام إن عمت الأرض الحروب، هنا دار الأمن إن شمل الناس الخوف.

كل حي هاهنا آمن: الناس والحيوان والنبات، ليس هاهنا حرب ولا قتال، الحيوان هاهنا لا يصاد، والأشجار لا تقطع، لا عدوان على أحد، ولا تجاوز على شيء.

هذه حدود الحرم، ألا ترون أعلامها؟

لقد أقام هذه العلامات أبو الأنبياء إبراهيم، وبقيت حيث أقامها.

لقد دخلتم الآن الحرم، فجددوا التلبية واجهروا بها، وقولوا بقلوبكم مع ألسنتكم: لبيك اللهم، قد دعوتنا فأجبنا، سمعنا المؤذن يؤذن بالحج فجئنا رجالاً وعلى كل ضامر، أتينا من مكان بعيد، نزرع الأرض،نطوي البيد، نركب الريح، ونمتطي اللجج، امتثالًا لأمرك، وابتغاء رضاك.

لبُّوا يا حجاج، واجهروا بالتلبية، لبوا عند كل رابية وجبل، تلبّ معكم الروابي والجبال، لبوا كلما صعدتم نُشُزًا، لبوا كلما هبطتم واديًا، لبوا فهذه جبال مكة بدت لكم.

لقد وصلتم، لم يبق إلا قليل، فجدُّوا المسير.

هذه مكة فادخلوها من أعلاها، من جهة ذي طوى - حي الزاهر - ثم اهبطوا من الحجون، من عند المقبرة، فمن هناك دخلها رسول الله ﷺ، ثم امشوا من عند المسعى حتى تدخلوا من باب السلام (باب بني شيبة).

فهنيئًا لكم، نلتم المرام، هذا باب السلام، وهذه زمزم، وهذا المقام، وهذه الكعبة البيت الحرام.

فلبُّوا وهللوا، وادعوا فإن دعاء المسلم أولُ ما يرى الكعبة مستجاب، هذا هو المشهد الذي قطعتم من أجل رؤيته الآفاق، وحملتم المشاق، إني لن أنسى يوم وقفت هذا الموقف أول مرة، من إحدى وثلاثين سنة، لقد سلكنا الصحارى من دمشق، فكنا

كلما دنونا يومًا زاد الشوق بنا شهرًا تمنيت أن تُطوى لي الأرض، وأن يتصرم الزمن.

وأكثر ما يكون الشوق يومًا إذا دنت الخيام من الخيام

حتى إذا وقفت على باب السلام صفّق من الفرحة اللب، وبكت من السرور العين، فما رأيت الكعبة إلا من خلال الدموع.

هذه دارهم وأنت محبٌّ ما بقاء الدموع في الآماق!

إني لا أتمنى إلا أمنية واحدة، هي أن أنسى هذا المشهد لاستمتع برؤيته من جديد، هذه مكافأة الحاج، إنها لذة من لذائذ الروح لا مثيل لها، فأشبهه بها لأدل عليها من لم يعرفها.

لذة لا يدرك مداها إلا من ذاقها، لذة لا توصف ولا تعرف:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبَّابة إلا من يعانيها

أسأل الله أن يمن بذلك على كل راغب فيه، مشتاق إليه.

وجملة القول فقد استعرضنا ما كتبه الشيخ علي الطنطاوي عن رحلة الحج بلغة سهلة ملائمة لموضوعها ووصف حي بليغ وهو بطبعه حين يتحدث أو يكتب يترك النفس على سجيتهافلم يتكلف في عبارة ولا فكرة ونراه يحسن مخاطبة المتلقي ويصور ما بداخله من مشاعر وأحاسيس إزاء بعض المواقف وجاء حديثه مفعمًا بالشوق والحنين إلى هذه البقاع المقدسة وعامرًا بالتوجيهات السديدة والأمور العلمية والمعاني العظيمة للحج وآدابه واللقاء في هذه الرحاب الطاهرة ميدان عظيم حيث إنه مهوى أفئدة المؤمنين

تحقيقًا لدعوة إبراهيم عليه السلام حيث يكتظ الحرمان الشريفان من كل عام بألوف الحجاج في غبطة وبهجة روحية عميقة وأمن وأمان وسط أجواء مفعمة بالإيمان وخدمات متميزة فائقة بالحرمين الشريفين والأماكن المقدسة من توسيعات متتالية وإنشاءات للمرافق هائلة خدمة لضيوف الرحمن وخدمة الحرمين الشريفين وهما مصدر فخر وشرف واعتزاز لقادة هذه البلاد وشعبها لتمكين حجاج بيت الله من أداء مناسكهم في يسر وسهولة واطمئنان ليؤدوا فريضة الحج ويشهدوا منافع لهم من اجتماعية وأدبية ومادية وتربوية.

وهكذا رسم الشيخ الطنطاوي في رحلة الحج مناهج عمل من خلال دعوته الإيمانية لهؤلاء الحجاج ليتفيأوا ظلال دوحة الإسلام وتعاليمه السمحة ولأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح فيه أولها وتبقى راية التوحيد خالدة خفاقة، إلى جانب شمولية الوصف الطبيعي للمكان إلى جانب جملة خصائص تتمتع بها رحلته وهي موضوعات حميدة الأثر في النفس غنيةُ بالمشاعر والصور وذات مضمون تربوي بارز.

وأخيراً: فإن من نعم الله علينا أن هدانا للإسلام وجعلنا خير أمة وخصنا بما حبانا به من رحمة وفضل في كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإذا تمسكنا فلن نحيد عن الطريق المستقيم ولا يزال منارًا للأمة ومثاراً للهمة وأن في الحج إلى بيت الله إعلاءَ لشأن الملة وسقيا لجمع الكلمة وسبيلًا لوحدة المسلمين وتحقيقًا لحكمة الحج أعاده الله على المسلمين بالخير والقوة والسعادة والعزة .. وفي هذه الأجواء المفعمة بالإيمان

والعامرة بالعبق الروحي وبشتى أنواع الخدمات لحجاج بيت الله حتى ينعموا بالنفحات الروحية في أطيب جوار بقرب بيت الله الحرام.

رحلة الأديبة عائشة عبدالرحمن ١٣٩٢هـ

لقد سطرت رحلتها في كتاب أرض المعجزات وهي: أديبة عرفت بنشاطها في العلوم الدينية واللغوية والتاريخية يحفزها الحرص على لغة القرآن الكريم والاهتمام بالدراسات الإسلامية والسيرة النبوية هي الدكتورة عائشة عبدالرحمن المولودة سنة ١٩٢١م بدمياط والمعروفة باسم بنت الشاطئ، ولقد اشتملت رحلتها إلى الحج التي قامت بها ومشاهدة قوافل الحجيج وتنقلهم، حيث ذكرت عددًا من الأمور التاريخية بجانب ما تحدثت عنه وأقاضت فيه من مشاعر إسلامية متدفقة، إنها رحلة إلى الحج وما فيها من عبر وعظات ودروس ومشاهد وآثار.

تبدأ الحديث قائلة:

على غير موعد، كان هذا اللقاء مع التاريخ.

كنت في المغرب الأقصى مشغولة بدراستي القرآنية في جامعة القرويين، أرى فيها الجهاد والعبادة.

وقومنا هناك مشغولون بوداع خمسة عشر ألفاً من الحجاج المغاربة، في حفلات شملت ربع البلاد في الريف والصحراء والعواصم، وفي الثغور على حافة البحر وساحل المحيط .. وسيطرت هذه الحفلات على الأفق كله، بمراسمها وتواشيحها،

فأرهفت شوق القاعدين، وأنا منهم.

وآرقني الحنين إلى الحرمين، من حيث بدا ألا مكان لي على الطائرات المحجوزة إلى آخر يوم يدرك موسم الحج.

وقد أذن الله فهيأ لي الأسباب من حيث لا أتوقع. وفي ثلاثة أيام، لا أكثر، كانت إجراءات سفري، وصحبتني رعاية الله في رحلتي من الدار البيضاء إلى الديار المقدسة، مع آخر فوج من الحجاج المغاربة.

ومعي ما تيسر من الدراهم، وزاد قليل من قديد الخبز وجاف الإدام، قدرت أنه يكفيني مع التقشف في رحلة ونسك. وصلنا إلى مطار جدة، قبيل مشرق الشمس من صبح الخامس من ذي الحجة؛ لأجد نفسي في ضيافة سمو الأمير الشاعر عبدالله الفيصل، من حيث لم أحتسب أنه ما زال يذكرني، قد طال الأمد على آخر لقاء لنا في مجلس سمر على ضفة النيل بالقاهرة.

وفيما كنا في المساء بقصر جدة، نسترجع الذكريات ونتناشد أشجاننا ونتشاكي هموم أمتنا وعبر أيامنا ولياليا، استأذن علينا زائر من المراسم الملكية، تحدث إلى سمو الأمير الذي أبلغني متلطفًا، أنني انتقلت من ضيافته إلى ضيافة جلالة الوالد، الملك فيصل.

ولعل أول ما خطر إلى وأنا أتلقى هذه الرعاية الكريمة، هو هم التصرف في (توزيع) ما حملت معي عبر قارات ثلاث من زاد الخبز القديم والإدام الجاف!!

وشهدت الموسم مع مليون وخمسين ألف حاج، وسعتهم الأرض المباركة، حيث يقضون معًا مناسك حجهم، ويتحركون في وقت واحد من الطواف إلى المسعى، ومن منى إلى عرافات، ويفيضون منها قبل الفجر إلى المزدلفة، وتجمعهم «منى» على الرحب والسعة في ليلة عرفة، ويوم النحر وأيام بعده.

وإن أكبر عواصم العالم لتضيق ببضعة ألوف من السائحين إن طرأوا عليها في وقت واحد، ويعيها أن تدبر لهم المنزل والطعام ووسائل الانتقال.

في كل خطوة وكل موقف ومشهد، وجدتني مع التاريخ في البيت العتيق وأم القرى.

وتفيض في الحديث عن النهضة والتطور قائلة.

مدنية العصر قد غزت الوادي الأجرد غير ذي الزرع. وأسراب الطائرات والسيارات قد حلت بديلاً عن النوق والجمال .. والكهرباء قد حلت بديلاً عن الحطب. والرخام يرصف ساحة البيت العتيق وطريق المسعى، مكان الحصا والرمال، والمباني العصرية تقوم في موضع الخيام والدور البدوية البسيطة الساذجة. ولا شيء من هذا كله يمس روح المكان. تغير الشكل والمظهر، وبقي للمكان جهر شخصيته التاريخية، يتألق بنور قداسته ويتوهج بسنا أصالته وعراقته.

ثم تأخذ في الحديث عن الكعبة وعن هذه البقاع المباركة حيث تقول:

والكعبة تستبدل كل عام كسوة حديدة بأخرى قبلها. وتبقى حقيقتها بمنأى عن طوارئ التغيير والتبديل: مثابة الحج ومهوى الأفئدة، وبيت الله المطهر للطائفين والعاكفين والركع السجود، كذلك تتغير أشخاص الحجاج عامًا بعد عام، وتختلف شخصياتهم من جيل إلى جيل. والسمت واحد، على تفاوت الأجيال والشعائر والمناسك واحدة، على تعاقب السنين وتباعد العصور.

وتصل الحاضر بالماضي عبر حقب وأدهار، في هذه البقاع المباركة التي تحتفظ بجهر شخصيتها منذ عرفها التاريخ مثابة للحج وأمنا، فلسنا نراها اليوم إلا كما رآها آباء لنا وأجداد، على تنائي الزمان.

سعوا كما سعينا، وطافوا مثلما طفنا، ووقفوا بالمشعر الحرام وعلى عرفات، حيث وقفنا، ونحروا في منى كما نحرنا، ورجمعوا الشيطان وجنده كما رجمنا.

والأماكن، غيرها، تتغير وتتبدل، فيطمس جديدها معالم القديم، ويدك عمرانها المحدث أطلال العتيق، فلو أن أحدًا من أهلها غاب عنها بضع عشرات سنين ثم عاد إليها؛ لأنكرها وأنكرته، وأعوزه فيها ترجمان ودليل.

كم عرفت الدنيا غير هذا البيت العتيق من بيت ومزار، وكم شيدت قبله وبعده قصور باذخة ومعابد شامخة وصروح ممردة شاهقة.

وهذا البيت العتيق، حيث هو منذ كان: كعبة الحجاج وملاذ

العابدين، تتضاءل دونه أبهى الدور وأفخم القصور وأعلى الصروح!

وراء المعروف من تاريخه الديني، دهورًا وأحقابًا موغلة في أعماق ما قبل التاريخ، شهد الزمن فيها موضع هذا البيت ملاذاً للضاربين في الفلاة، يلتمسون لديه الأمن والراحة، ويؤدون في حماه شعائر عبادتهم التي ارتدت في ظروف مجهولة إلى وثنية ضالة، هجرت البيت العتيق فلم يبق منه سوى أطلال جذبت إليها إبراهيم الخليل فجاءها من أرض كنعان، وترك عنده ولده إسماعيل وأمه هاجر في واد موحش غير ذي زرع ترك إبراهيم عليه السلام ولده، ودعا ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إلى من ترك من ذريته عند بيت الله المحرم، وأن يرزقهم من الثمرات، ثم انصرف عائدًا إلى أرض كنعان، فكان مسعى الأم هاجر بين الصفا والمروة، مهرولة شوطًا من بعد شوط، عسى أن تلمح سبيلاً لنجاة من الهلاك.

كان هذا المسعى قربانًا مباركاً، أخذ موضعه في العقيدة الدينية شعيرة من شعائر الحج، فذلك هو مسعانا مهرولين بين الصفا والمروة، مثلما سعت «هاجر» التي دخلت التاريخ الديني بهموم أمومتها، وعاد إبراهيم إلى ولده وقد بلغ مبلغ السعى، فأفضى إليه ربه في المنام: أن يذبحه قربانًا لرب هذا البيت العتيق. وامتثل الفتى لأبيه في أمر ربه، صابرًا لم يتردد، وتجلت رحمة الله بعد ذلك البلاء المبين، فكانت آية الفداء: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ

﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾

[الصّافات: ١٠٢-١٠٧].

وخلد المشهد شعيرة من شعائر الحج. فكلما هلّ عيد الأضحى نحرنا الهدي في منى، أو حيثما كنا: ذكرى وعبرة، وإحياء لمشهد البذل والفداء طاعة وبراً وتقوى. والعبرة في الشعائر بالتقوى.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾

[الحَجّ: ٣٧].

وتأصلت حرمة أم القرى لموضع هذا البيت منها، فما عرف التاريخ سواها عاصمة دينية للعرب.

وقد غبرت عليها عصور بعد إبراهيم عليه السلام، ارتد فيها العرب إلى الوثنية، دون أن تفقد مكة حرمتها فيهم أو أن ينقطع حجهم إلى بيتها العتيق.

وبقي البيت العتيق في أم القرى، مثابة للناس وأمنا، وكعبة الحجاج من كل قبائل العرب.

ثم تحدثت بإسهاب عن قصة الفداء وحادث تجديد الكعبة وعام الفيل.

لقد أسهبت في حديث طويل عن رسالة الإسلام والبيت العتيق

وقضايا تاريخية كثيرة ثم تقول: وتمضي الأعوام والقرون، وتتعاقب الأجيال والعصور، والتاريخ مشدود إلى مشهد الحجيج، يسعون إلى البيت العتيق محرمين متطهرين، خاشعين، قانتين، قد تجردوا من كل زينة وجاه وزهر، وطرحوا عنهم ما يتفاخر به الناس من أزياء وألقاب ورتب ومناصب، وتخففوا من أثقال المادية التي تئد روح الإنسان، وتخنق فيه هيامه الفطري بالحق والخير والجمال.

وجاءوا بيت الله في زي الإحرام، شبه عراة وشبه حفاة، وتماحت بينهم فروق الألوان والأجناس والعناصر والطبقات والدرجات.

واستوى الملوك والرعايا.

واستوى الأمراء والدهماء.

واستوى الرؤساء والأتباع.

فليسوا جميعًا سوى عباد الله، وما يتفاضلون إلا بالتقوى! وتتجلى فيهم، وبهم، الآية المحكمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

يمحق بها الدين في ختام رسالاته، كل ما يئود إنسان العصر من مآسي التفرقة العنصرية وجرائم الاضطهاد المذهبي، ولعنة الإكراه في الدين، وبصوت واحد، في حرم البيت العتيق، يعلو

هتاف مليون وخمسين ألف مسلم، شهدوا هذا الموسم يرددون.

لبيت اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك. وهكذا تصور رحلتها إلى الحج في كتابها أرض المعجزات في تصوير أدبي شائق، يجعله نوعًا أدبيًا متطورًا يجاري الرواية الحديثة وأدب السيرة الذاتية، مما يدل أبلغ دلالة على قدرتها وثقافتها الإسلامية الواسعة وتصويرها البديع لأحوال الحجاج والطرق والمواصلات وخصائص تلك الأيام المباركة وما فيها من عبر وعظات، وبهذه الصورة الأدبية والتاريخية كانت مشاهد هذه الرحلة ووصف المشاعر والقضايا التاريخية وتوظيفها بما يمكن الإفادة منه من معلومات.

وهكذا يتميز أدب الرحلات بتقديم وصف دقيق لما شاهده الرحالة وتم التعرف عليه، وقد كان الحج هو الدافع القوي لذلك.

رحلة حسن عبدالوهاب المغربي

هو حسن حسني عبدالوهاب المغربي المتوفى عام ١٩٦٨م حيث يوضح لنا في رحلته أسماء الرحالة المغاربة في القرون السالفة والمراحل التي كان يسلكها الركب وقد ضبط أسماءها بعض المغاربة الذي دونوا أسماءها كالعبدري في القرن السابع، وابن رشيد وخالد البلوي الإندلسيان في القرن السابع والثامن، والعياشي، وابن الدرعي في القرن الثاني عشر وغيرهم من مشهوري العلماء، وقد نص أولئك الرحالة على محطات النزول ووصفوها كما ذكروا أيضًا ما لاقوا من العقبات في اجتيازهم الطريق من بلادهم إلى الأماكن المقدسة لقد أوضح لنا المؤرخ حسن عبدالوهاب بتفصيل أسماء طرق الحج البرية بالمغرب العربي وقال: «سلك الحجاج طريقين معهودتين من زمن بعيد:

إحداهما: طريق الواحات تمر بجنوب الجزائر والبلاد التونسية لتجتاز بلاد (الجزائر) فبلاد الجريد فالأعراض (قابس) تونس فطرابلس فمصر.

والثانية: وهي الطريق الشمالية وتقطع الجبال والتلال فتمر بتلمسان فالجزائر قسطنطية بجاية فتونس وتسلك من هناك طريق الساحل إلى قابس فطرابلس فبرقة فمصر على ما تقدم، وكثيرًا ما

كان يسلك الرفاق الطريق الشمالية في الذهاب والجنوبية في العودة والعكس».

وتحدث عن أصعب الطرق البرية على الحجاج المغاربة وقال مبينا خطرها: «وأشق مرحلة على المغاربة في سفرهم كله هي مفازة برقة (بني غازي) حيث يلاقون بيداء قاحلة جرداء لا ماء فيها ولا مقر لتجديد الزاد، فمن قطعها يعد نفسه فائزًا سعيدًا، وما بقي من المسافة فيطويها الحاج على طريق البلاد المصرية الغزيرة العمران إلى أن يصل إلى سواحل بحر القلزم (البحر الأحمر) فيعبره في (مركب) ويقصد أحد المراسي الحجازية كجدة وينبع.

وبعد أداء فريضة الحج وزيارة المدينة المنورة يقفل الركب راجعًا وكثيرًا ما يكون عوده على طريق بيداء شمال جزيرة العرب فيقف بالقدس الشريف ويزور المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، ولا سيما قبر خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام، وربما يجتاز إلى بلاد الشام، ومنها يرجع إلى مصر سالكًا طريق طور سيناء.

وعن عودة الحجاج المغاربة إلى ديارهم وما يتبع ذلك من فرح وسرور وزينة واحتفال شعبي كبير بمقدمهم من الديار المقدسة سالمين قال: «فبمجرد وصولهم إلى البلاد المغربية وحلولهم بقرية من قراها يهرع الخاص، والعام وتقام الولائم والأفراح بمثل ما احتفل بهم عند تشييعهم بل أكثر من قبل فيسارع إلى إقراء ضيوف الله العائدين وتترنم الجماعات بالأناشيد الشجية، والقصائد الملائمة للمقام، وقد تكون الأناشيد باللسان الدارج ومنها ما

حافظ الزمان عليه وأوصله إلينا، ومنها ما تردده الأمهات إلى وقتنا هذا، وتعلل به أطفالهن عند النوم، ومن يراجع كتب الرحلات يرى طرفا شهية من أخبار عودة الحجاج، وحفاوة أهل المغرب عند اجتيازهم العواصم الكبرى ويكفي أن نشير إلى ما ذكره الرحالة الشهير ابن بطوطة عند مروره حاجا بمدينة تونس، وما وصف به أهل البلاد، وما لاقاه من سكان الحاضرة من التكريم والتبجيل.

ويصف لنا طريق الحجاج المغاربة الساحلي وما يلاقونه في ذلك من أهوال البحر، ويقول: «أما السفر بحرًا فكان يختلف تمامًا عن السفر بطريق البر، وذلك أن بعض السفن الأفرنجية تأتي في كل عام إما من جنوة أو من البندقية أو من مرسيلية (فرنسا) أو (أسبانيا) وترسوا بالمرافئ الكبرى لشمال أفريقيا كطنجة ووهران ومدينة (عناية) وتونس وصفاقس فتحمل عددًا من الحجاج بأثمان يتفق عليها، وتبحر بهم قاصدة الإسكندرية، وما بقي من المسافة يقطع برًا فيمر الحاج بالقاهرة فالصعيد (الجهة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر) إلى أن يصل إلى مرفأ مواجهة إلى جدة فيستأنف ركوب البحر من مركب شارعي قاصدًا رابغ أو الليث أو جدة نفسها).

وعن خطورة سفر الحجاج المغاربة في الخط البحري قال: «ولا مراء أن السفر بحرًا كان عرضة لأخطار وللعواصف ولا سيما الغرق فكم من سفينة شراعية لعبت بها أمواج المالح فذهبت أدراج الرياح» - وروى لنا علماء المغرب - فيما بلغنا من رحلاتهم -

أهوال البحر إذا هاج وماج وأحوال هذا النوع من الفواجع ولذلك كنت ترى مراكب الشراع تسير دائمًا على مقربة من الشواطئ ولا تفارق البر حتى إذا ما حصل عطب للسفينة أو غرق فاز ركابها بالنجاة من الخطر بالسباحة ولا ننسى الكارثة المؤلمة التي ألمت بالسفينة الإسبانية الحاملة لأسرة المؤرخ التونسي الشهير عبدالرحمن بن خلدون إذا فاجأتها عاصفة مهولة فغرقت بمدخل الإسكندرية بمرأى ذلك العلامة وقد خرج لملاقاة عياله الوافدين من تونس).

وحول خطورة هؤلاء القراصنة الذين يتعرضون في البحر لسفن الحجاج المغاربة بالسلب والنهب قال: «وهناك خطر آخر لا يقل إيلامًا من الأول يتهدد الحجاج الذي يقتحمون ركوب المالح ألا وهو الوقوع في اسر لصوص البحر (القرصان) وقد كانوا يعيثون فسادًا وعنادًا - وعلى اختلاف أجناسهم - في أطراف البحر المتوسط، فكم من رجل عظيم ذاق في طريقه إلى أداء الفريضة آلام الأسر ولم ينج من المصيبة إلا بفضل من الله سبحانه وما يبذله أهله من المال لفدائه إن تيسر ذلك. وها هي التواريخ المحلية تفيدنا بأخبار غرق الحجاج وتفاصيل فداء الأسارى منهم في القرون الفائتة ولهذا السبب كان أهل المغرب يفضلون كثيرًا الحج برًا على السفر بحرًا بالرغم من طول المسافة وبعد الشقة وما ينالهم من المتاعب المتنوعة».

وإذا كان المشارقة قد اشتهروا على المغاربة في ميدان القصة

والرواية والأدب، فإن المغاربة تفوقوا عليهم في ميدان الرحلات والتاريخ والجغرافية والفلك، والمكتبة العربية والإسلامية تزخر بمئات المخطوطات في هذه الفنون، ويذكر لنا وقد قمت بإحصاء تجريبي لعدد الرحلات الحجازية التي ألفت عبر العصور فرأيت الرحلات الحجازية المغربية تأتي في الدرجة الأولى بدون أن ينافسها أي دولة من دول العالم الإسلامي والعربي، ويظن البعض بأن السفر بالطائرة أو الباخرة إلى الحج قضى على تلك الرحلات، ولم يعد أحد يقوم بتدوين رحلته إلى الحج، والحقيقة عكس ذلك، فالمغاربة لا زالوا على عادتهم مهتمين أشد الاهتمام بتدوين رحلاتهم إلى الحج في عصرنا الحاضر، وقد قدم نماذج من رحلاتهم، وقد قدم أصداء زيارتهم لمكة وللمدينة المنورة، مدعمين ذلك بصورهم الشخصية، حتى تكتسي رحلاتهم الطابع الفني الذي هو ضروري في أدب الرحلات، حتى لا تكون الرحلة جافة لا طعم لها تبعث على الملل، خالية من عنصر الإثارة والتشويق، ثم تحدث بعد ذلك عن:

الرحالة العبدى الحيحى:

الذي سحر الناس ببيانه في رحلته الحجازية (الرحلة المغربية) وشوقهم فيها إلى زيارة الأماكن المقدسة لدى المسلمين مكة والمدينة ومسجد الرسول الأمين ﷺ أنه رحالة فذ عالم مجتهد، مجهول الميلاد والوفاة، لا يعرف له أي ترجمة كل ما هنالك أنه

اشتهر اسمه برحلته الحجازية التي حسب بعض النقاد المنصفين تفوق رحلة ابن جبير الشهيرة بلاغة وأسلوباً وبيانًا.

ومن الذين ذكروه في تآليفهم الرحالة الأندلسي البلوي في رحلته الحجازية (تاج المفرق في تحلية علماء لمشرق) وقال عه: «ومما انتخبت هنا منها ما أنشدنيه (أبو عبدالله بن يحيى بن فليته) بمنزله من الحفرة التونسية قال:

أنشدني الشيخ الفقيه الأديب أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد بن سعود العبدى الحاحى لنفسه وذلك في رجب الفرد سنة تسعين وتسعمائة معارضًا لأبيات القاضي أبي الفضل عياض التي هي في كتاب الشفاء له:

يا ساكني دار الحبيب إليكم
مني سلام طيب النفحات
يهنيكم قرب الأحبة فارحموا
صبابكم قد صد بالنزلات
كم ذا أعلل بالوصول إليكم
قلبا شجيا مغرم الجنبات
قد نلتم قرب الحبيب فانتم
ابدا لذلك طيبو الأوقات
صلى الإله وخلقه طرا على
من فاح منه معطر الروضات

ولقد خرج من حاحة ناحية إقليم الصويرة بأقصى المغرب

متوجهاً إلى الحج على الطريق البري المألوف في ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٨٨هـ الموافق ١٠ ديسمبر ١٢٨٩م مرورًا بوجدة آخر مدن المغرب الشرقي، وقاصدًا تلمسان ومليانة والجزائر وبجاية وتونس والقيروان، إلى أن وصل إلى طرابلس بليبيا، ومنها استأنف طريقه برًا إلى العقبة ودخل أرض الحجاز، وتابع سيره إلى أن وصل إلى أم القرى مكة المكرمة وأدى فريضة الحج وبعد ذلك سافر إلى المدينة المنورة للزيارة.

وصل إلى المدينة المنورة بعد ما قطع آلاف مترات وواجه ألم السفر وأتعاب الطريق، وبقلمه السيال يصف لنا مشاعره الجياشة وفرحته العارمة ويقول: «وفي ضحى يوم الاثنين الثامن والعشرين من ذي الحجة وصلنا إلى معهد الفضائل المشهورة، ومحتد المآثر المذكورة المأثورة، مجمع محاسن الدارين، ومنبع مفاخر العصرين، ومطلع سعادة الثقلين، روضة أزهار الأيام، ومشرق أنوار بدر التمام، ولقد جال العبدى الحيحى في رحاب طيبة وتفقد مآثرها الإسلامية التاريخية وتذكر فيها أمجاد الإسلام الغابرة الخالدة، ونظم قصيدة بالمناسبة رقيقة سأل فيها نفسه أين كانت وكيف بادت منازل الأوس والخزرج وبدر وقريش وكعب ولؤي وقصى قال فيها:

وإن تعطف لطيبة ليث عنس ... فعرج إنها بيت الروي
وقل أين الأحبة ليت شعري ... أيخفى الترب أقمار السمي؟
وسل بدرًا بعير من قريش ... وعن فرسانها وسط الركى

فقالت ما سمعت بمشرقي نجا من صرفها أو مغربي
وكررت السؤال ببطن مر فقيل ظللت عن نهج سوي
فلا وأبيك ما في الأرض حي وقي سهم الحتوف ولا ابن حي

رحلة الأمير شكيب أرسلان

الأمير شكيب أرسلان أحد أعلام الثقافة العربية الإسلامية حيث قام برحلة الحج ونشرها في كتاب أصدره بعنوان: «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف»، حيث صور الحج ومشاهده، وأماكنه وكان للأدب من كل ذلك حصيلة كبيرة.

ولقد ولد الأمير شكيب أرسلان سنة ١٢٨٦هـ وتوفى في بيروت سنة ١٣٦٦هـ، وقد ملأ الشرق العربي نثرًا بليغًا وأدبًا ساميًا رفيعًا ينعت بأمير البيان وهو أديب وسياسي ومؤرخ، وزار عددًا من البلدان في الشرق والغرب.

من ميناء السويس:

يبدأ شكيب أرسلان حديثه عن رحلة الحج انطلاقًا من ميناء السويس وحتى وصوله إلى جدة فيقول: «وصلنا من ميناء السويس في ٨ مايو على باخرة تقل نحوًا من ١٣٠٠حاج من إخواننا المصريين، وفيهم بعض المغاربة، فسارت بنا الباخرة رهوًا ورخاءً لم نشعر فيها إلى جدة بأدنى حركة للبحر تزعج الراكب، وإنما كان المزعج هو اكتظاظ السفينة بالراكبين حتى لا يقدر أحد أن يمر من شدة الزحام.

وفي اليوم الثالث من مسيرنا ناوحنا ميناء رابغ، ولما كان الحجيج الوارد من الشمال في البحر الأحمر عليه أن يحرم من رابغ، فقد أحرم جميع الحجاج الذين في الباخرة، وارتفعت الأصوات من كل جهة: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، فاستشعر الناس من الخشوع في أثناء ضجيج الحجيج هذا ما اتصل بأعمال القلوب، وتغلغل في سرائر النفوس، وأحس الجميع بأن البيت الذي يخلع الناس تعظيمًا له أثوابهم قبل الوقوف بعتبته بمسيرة يومين، ويشتملون في القصد إليه ما ليس فيه شيء من المخيط، لبيت مقدّس، لا يؤمه الناس كما يأمّون سائر البيوت، وأنه فوق بيوت الملوك، وفوق مقاصير القياصرة، وأواوين الأكاسرة، التي لا يحرم في الطريق إليها أحد لا من بعيد ولا من قريب.

وما زال الناس مستشعرين الخشوع تلك الليلة، مواظبين على التلبية، مترقبين طلوع الفجر الذي يدنيهم من جدة، ميناء البيت العظيم الذي يؤمونه، إلى أن انفلق الصبح، وأخذت تبدو جبال الحجاز للعين المجردة، فارتفعت الأصوات بالتهليل والتسبيح والتكبير، وازداد ضجيج التلبية للعلي الكبير، وخالط الهيبة والخشوع بالقدوم على البيت الحرام، الفرح والابتهاج بالوصول إلى أطهر بقعة وأقدس مرام، ولم تكن ترى إلا عيونًا شاخصة، ولا تحس إلا قلوبًا راقصة، والجميع متطلعون إلى سواحل الحجاز منتظرون ببالغ الصبر أن يقبلوا على جدة، فلما كان ضحى اليوم الرابع من ذي الحجة دخلت الباخرة مرسى جدة، لكن بتؤدة

عظيمة لما في هذا المرسى من الجبال والصخور التي تكاد رؤوسها تبرز من تحت لجج البحر وإذا بخمس عشرة باخرة راسيات في ذلك الميناء على أبعاد متفاوتة من البر.

ثم استرسل في وصف جدة وغرابة ألوان بحرها قائلاً:

ولقد طاب لي من ميناء جدة منظران لا يزالان إلى الآن منقوشين في لوح خاطري (أحدهما) رؤية هذه البواخر الواقفة في الميناء ناطقة بلسان حالها: إنه وإن كانت هذه السواحل قفارًا لا تستحق أن ترفأ البوارج ولا السفن فإن وراءها من المعنوي أمرًا عظيمًا، ومقصدا كريمًا، هذه البواخر الكثيرة ماثلة أمام جدة ثلاثون باخرة وأربعون باخرة، وقد يبلغ عدد الراسي فيها إلى خمسين باخرة، حتى يعود البحر هناك غابا أشبًا، وتظن نفسك في هامبروغ أو نيويورك.

وأما (المنظر الثاني) فهو منظر مياه هذا الميناء، فلقد طفت كثيرًا من البحار وعرفت أكثر البحر المتوسط والبحر الأسود، وبحر البلطيك وبحر المانش والأوقيانوس الاطلانتيك، ولم يقع بصري على شيء يشبه مياه بحر جدة في البهاء واللمعان. كنت كيفما نظرت يمنة أو يسرة أشاهد خطوطًا طويلة عريضة في البحر أشبه بقوس قزح في تعدد الألوان وتألق الأنوار، من أحمر وأزرق وبنفسجي وعنابي وبرتقالي وأخضر إلخ. ولا فرق بين هذه الخطوط وبين قوس قزح سوى أن هذه الخطوط مستقيمة، وإن هذه في السماء، وهاتك في الماء.

ويواصل حديثه عن ميناء جدة الذي شد انتباهه قائلاً:

قضيت العجب من هذا المنظر وقلت إن مثل هذا الميناء لا تمله النواظر، ولا تشبهه المناظر، ومهما كانت نواظر. ثم سألت ربان الباخرة - وهي من البواخر الهندية ربانها إنكليزي - عما كان رأي هذا المنظر في بحر آخر وقلت له إني جلت كثيرًا في الدنيا، ورأيت أبحرًا وبحيرات وأنهاراً لا تحصى، ولم أعهد مسرح لمحة على سطح ماء يحاكي في البهاء هذا الميناء. وقيل لي فيما بعد أن ملوحة البحر الأحمر زائدة، وإن هذه الملوحة هي السبب في تكوُّن هذه الشعاب التي تكثر في هذا البحر وتجعل مسالكه خطرة، وإن هذه الشعاب تنمو وتعلو حتى تقارب سطح الماء، ومنها ما يبز عن سطح الماء فيكوّن جزيرة. وإن هذه الشعاب متكونة من أعشاب وحيوانات بحرية من طبقة الأسفنج، وهي ذوات ألوان شتى كلها ناصع، ومنها ما هو أحمر ساطع، ومنها ما هو أخضر ناضر، ومنها ما هو أصفر فاقع، ومنها ما هو دون ذلك، وهي في غاية الجمال، ومن أبهى ما يوضع في أبهاء القصور للزينة.

قالوا: وإن آمن مرسى في الحجاز مرسى رابغ، ذلك لعمق غوره وقلة شعابه.

شعرت في الحجاز أني تظللني راية عربية محضة حقيقة، لا راية مشوبة بشعار أجنبي.

وأحمد الله على بقاء هذه الجزيرة تحت سلطان أهلها دون

سواهم، ولا تعرف شيئًا من الامتيازات الأجنبية التي تكاد تغرق في لججها الأمم التي تحت الوصاية، سوى مملكة ابن سعود خاضعة للشريعة الإسلامية بجميع أحكامها.

وإذا كان أدب الرحلات من أمتع الفنون الأدبية وأقربها إلى النفس فإن أدب الحج قد كسب مجموعة من الكتب الجيدة لبعض مشاهير الأدباء والكتاب حيث استأثر باهتمامهم وضمنوها انطباعاتهم التي تعد من أدق المعلومات الجغرافية والتاريخية والأدبية ومنهم صاحب هذه الرحلة الذي يواصل حديثه حيث يقص علينا شيئًا من مشاهداته وانطباعاته قائلاً:

ثم شاهدت جلالة ملك هذه الديار وخادم الحرمين الشريفين عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، وكان في جدة ذلك اليوم، فوجدت فيه الملك الأشم الأصيد، الذي تلوح سيماء البطولة على وجهه، والعاهل الصنديد الأنجد الذي كأنما كان استقلال العرب الحقيقي على قده، فحمدت الله على أن عيني رأت فوق ما أذني سمعت، وتفاءلت خيرًا في مستقبل هذه الأمة.

ركبت بدعوة جلالة الملك عبدالعزيز إلى يساره في السيارة، وسرنا بمعيته مساء يوم وصولي، وذلك إلى البلد الأمين، حماه رب العالمين.

ولم أجد الحرارة في جدة فوق ما تتحمله النفس حتى نفس الذي لم يتعود الحر، بل هواء البحر يرطب جو جدة ويخفف من سموم الصحراء، وذلك بخلاف مكة التي حرها شديد.

ثم أخذ بعد ذلك في وصف الطريق من جدة إلى مكة قائلاً:

فأما الطريق من جدة إلى مكة في هذا الفصل فليس فيها ما يسرح به النظر في مؤنق أو ناضر. فلا ترى من أولها إلى ما يقارب آخرها غصنًا أخضر يلوح، ولا رقعة بقدر الكف خضراء، ولا يكاد يقع بصرك من الجانبين إلا على رمال محرقة وعلى آكام وأهاضيب أكثرها من الحجارة السود كأنها من بقايا البراكين.

وكانت قوافل الحجاج من جدة إلى مكة خيطًا غير منقطع والجمال تتهادى تحت الشقادف، وكثيرًا ما تضيق بها السبيل على رحبها، وكان الملك أيده الله من شدة إشفاقه على الحاج وعلى الرعية لا يرفع نظره دقيقة عن القوافل والسوابل ولا يفتأ ينتهر سائق سيارته كلما ساقها بعجلة قائلاً له: تريد أن تذبح الناس.

وكل هذا لشدة خوفه أن تمس سيارته شقدفا أو تؤذي جملا أو جمالاً، وهكذا شأن الراعي البر الرؤوف برعيته، الذي وجدانه معمور بمعرفة واجباته.

وما زلنا نسير حتى دخلنا حدود مكة التي يحرم فيها الصيد فالمسافة بالسيارة لا تتجاوز أربع ساعات، وبعد ذلك وصلنا وصرنا بين البيوت، فعلمنا أننا تشرفنا بدخول البلدة التي تشرفت بمولد محمد سيد الوجود، وبالبيت الذي طهره إبراهيم وإسماعيل للطائفين والعاكفين والركع السجود، فقصدنا توا إلى البيت الحرام حيث طفنا وسعينا، وجأرنا ودعونا، والله يتقبل الدعاء ويغفر الذنوب في ذلك المقام الكريم ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

وبعد ذلك أخذ يتحدث عن مكة المكرمة ويواصل حديثه عنها قائلاً:

(صفتها الحسية، ومكانتها المعنوية، وكعبتها البهية، وهوى القلوب إليها من جميع البرية، ورزقها من جميع الأغذية والثمرات، استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام).

مكة هذه البلدة المقدسة التي هي فردوس العبادة في الأرض وجنة الدنيا المعنية، عبارة عن واد ضيق ذي شعاب متعرجة، تحيط بذلك الوادي جبال جرداء صخرية صماء.

ثم أخذ يتحدث عن روعة موقف عرفات العام ومواكب الحج فيها، ووصف ابن جبير الأندلسي لها في القرن السادس)، ويواصل الحديث قائلاً:

ما أنس لا أنس منظر عرفات ليلاً، فهو من أبهج ما ارتسم في خاطري من مناظر هذه الدنيا الفانية مع كثرة ما شاهدت في حياتي وما تقلبت في الأمصار والعواصم.

وفي هذه الأجواء المفعمة بالعبق الإيماني يصف الصعود إلى عرفة والعودة إلى منى قائلاً:

ثم أفضنا مع الحجاج الكرام عائدين إلى منى حيث بتنا ليلتين لقضاء المناسك، فما رجعت إلى مكة وقضيت المناسك إلا وكنت

مريضًا جد مريض. ولم يثقل علي ذلك لان الحج الشريف تطهير وتمحيص، فرجوت أن يكون المولى سبحانه قد غفر لي ذنوبي الكثيرة التي يستحق تمحيصها أكثر من هذه الأوصاب. والله غفور رحيم.

وهكذا تتجلى رحلة الحج من خلال رؤية الرحالة حيث أطلق رحالتنا لقلمه العنان يسترسل في وصف الأماكن المقدسة وتاريخها وآثارها ومناسك الحج وما قاله الرحالة القدامي عنها وتأتي أهمية هذه الرحلة حيث أن كاتبها يكتب عن ثقافة وخبرة ويعبر عن فهم وتجربة وقد التقى في رحلته هذه بالملك عبدالعزيز ﷺ من قرب وعرفه معرفة وثيقة وأثنى عليه وعلى جهوده وعبقريته وخدمته للإسلام والمسلمين وجهوده في إحياء التراث السلفي ونشر المعرفة الدينية الصحيحة إلى غير ذلك من أياديه البيضاء على العلم والعلماء - لقد نهج في كتابة رحلته منهجًا قصصيًا شيقاً وخصص صفحات للحديث عن الكعبة ومكة المكرمة وتاريخ المسجد الحرام والمشاعر الحرام ووصف ذلك وصفا رائعًا ووصف جدة حيث لفت انتباهه غرابة لون مياه بحرها وأقام طيلة بقائه في جدة في منزل السيد حافظ وهبة وأورد حكايات وقصص وأحاديث شيقة عن شعوره نحو هذه البلاد المملكة العربية السعودية حيث يقول قد حماها الله من الأجانب والاستعمار كما تحدث عن عين زبيدة وأهمية المياه وعن المطوفين وهو في كل مناسبة يعلن دعوته لحكومات الدولة الإسلامية بوجوب توعية الحجاج والاعتناء بأمر الحج ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن الطائف تاريخها وأعلامها

وعن سوق عكاظ وأهمية هذه الرحلة تكمن في كون المؤلف من المؤرخين المدققين في ملاحظاتهم لذا جاءت رحلته إلى الحج مليئة بالفوائد الأدبية، ومفعمة بالفرائد التاريخية والتحقيقات الاجتماعية وبذلك كون صورة تاريخية معينة عن هذه الأماكن التي تضم أطهر وأشرف البقاع والذي في أجوائها ترتفع دعوات كل المسلمين وتتجه إليها أنظارهم خمس مرات في اليوم ويتلهفون شوقًا إلى زيارتها وتأدية مناسك الحج في أجواء مفعمة بالإيمان والأمن والاطمئنان وعامرة بشتى أنواع الخدمات التي تلبى كافة احتياجاتهم وتطلعاتهم في أطهر البقاع وينعموا بالنفحات الروحية في أطيب جوار بقرب بيت الله الحرام.

رحلة عبدالله فيلبي ١٩٣١م

هذه الرحلة التي قام بها الحاج عبدالله فيلبي المولود في عام ١٣٠٢هـ من أسرة إنجليزية كان مولده في سيلان حيث كان يعمل والده بتجارة القهوة وقد كانت أول زيارة له إلى الجزيرة العربية في عام ١٣٣٦هـ، وقام برحلته الشهيرة التي بدأها من ميناء جدة عبر عسير ونجران حتى الجنوب ثم توالت بعدها رحلاته وزياراته وتوطدت علاقته بالملك عبدالعزيز رحمه الله وقد ساعدت رحلاته الكثيرة على تكوين كم هائل من المعلومات الجغرافية والأثرية والتاريخية عن الجزيرة العربية وقد أعلن إسلامه في عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣٠م.

وكانت وفاته في بيروت في عام ١٩٦٠م عن عمر يناهز الخامسة والسبعين، وألف عددًا من المؤلفات منها كتابه في قلب الجزيرة العربية وأيام في بلاد العرب وقد فصل في هذا الكتاب تاريخ مجيئه إلى هذه البلاد سنة ١٩١٥م، واجتماعه بالملك عبدالعزيز رحمه الله، كما صدر له كتاب: "الربع الخالي" الذي قدم فيه وصفًا حياً . . .

ولقد شرع في وصف رحلته إلى الحج، وذكر ما شاهده في طريقه قائلاً:

بنهاية الأسبوع الثالث من إبريل ١٩٣١م، كانت قد وصلت آخر مجموعة من سفن الحج - من مصر والسودان، من المغرب وسوريا، من الهند والشرق الأقصى، لقد كان تجمعًا من عدد ضئيل مخيب للآمال، من ٤٠٠،٠٠٠ زائر من وراء البحار التقوا في مكة، ليتضاعف العدد في الأيام القليلة المقبلة مع قدوم حجاج جدد قادمين من نجد واليمن فضلاً عن الحجاج الحجازيين.

لقد تراوح عدد حجاج الخارج خلال السنوات الخمس السابقة ما بين ٨٠،٠٠٠ و١٢٠،٠٠٠ ويعزى الانخفاض في ١٩٣١م أساسًا إلى الكساد الاقتصادي العالمي الذي وسم ذلك العام والأعوام التالية. ففي ١٩٣٢م هبط العدد أكثر عن ذي قبل إلى ٣٠،٠٠٠، وفي العام الذي تلاه إلى مجرد ٢٠،٠٠٠، وهذا يمثل منتهى الانخفاض، ذلك لأنه في ١٩٣٤م ارتفع عدد القادمين من الخارج إلى ٢٥،٣٧٠ حاجًا ومنذ ذلك الحين استمر العدد في تحسن بطيء لكنه مطرد حتى أعادت الحرب الحالية عقارب الساعة إلى الوراء مرة أخرى. ففي العقد السابق للحرب ربما كان معدل حجاج الخارج الذي يزورون مكة كل عام نحو ٣٥،٠٠٠، وقيل هذه الفترة كان وفود الحجاج من الملايو والهند وحدها كثيرًا ما يتجاوز ٥٠،٠٠٠ نفس في العام؛ وقد كان هذا العنصر بصفة خاصة هو الذي تقلص إلى نسب ضئيلة بسبب الهبوط في أسعار السلع التي ينتجونها - السكر والمطاط خاصة.

ويسترسل وهو يقص رحلته قائلاً:

لم تثبت رؤية هلال شهر ذي الحجة، وكان الناس ينتظرون في قلق شديد أخبار ثبوته عند القادمين من أماكن نائية في الصحراء والجبال، ولا يمكن تحديد اليوم الرئيس للاحتفال بالحج - الوقوف عند جبل الرحمة في سهل عرفات الواسع في اليوم التاسع من الشهر القمري ذي الحجة - في غياب مثل هذه المعلومة؛ ولم يبدد الشك إلا يوم الخميس، الثالث والعشرين من إبريل، اليوم الخامس من الشهر، بعد الشهادة الضرورية أمام الهيئات الدينية واعتمادها لها. لقد كان الهلال قد رُئِيَ فعلاً في المساء السابق للتاسع عشر من إبريل، لذا فإن اليوم التاسع من ذي الحجة سيقع في يوم الاثنين، السابع والعشرين؛ لذا فإنه بالإمكان إعداد العدة للخروج العظيم إلى منى وعرفات، والذين شاءوا التبكير إلى الموقع - والمتعة تحت النجوم حتى الوقوف العظيم - بدأوا التحرك خارجين من مكة بعد صلاة الجمعة.

وفي تلك الأمسية نفسها بدأ الاحتفال الفعلي بالحج بحفل العشاء الملكي التقليدي في القصر، الذي كان قد دعي إليه ما بين ٦٠٠ و٧٠٠ ضيف، ممثلون تقريبًا لكل قطر ومجموعة تدين بعقيدة الإسلام.

وبعد الفراغ من العشاء بالسرعة الشرقية المعروفة، تجمع الجمع الغفير في قاعة الاستقبال الفسيحة بالقصر ليستمعوا بإلقاء الشعراء لقصائدهم الشعرية المناسبة لهذه المناسبة - شعراء الجزيرة العربية ومصر، وتلت الخطب الشعر - بالعربية والأوردية، بل وبالإنجليزية.

ثم تكلم الملك عبدالعزيز، الذي ليس في كل الجزيرة العربية، الأرض التي لا تفتقر إلى الفصاحة، من خطيب أكثر منه تمرسًا في الخطابة، أو أكثر تواضعًا وبساطة في الأسلوب،ولا أثقل وزنًا وأشد تأثيرًا في أسلوب خطابته. إنه لما يربو على ثلاثين سنة من مسؤولية متزايدة رفاهية مملكة تتسع باطراد، كان دائمًا مدركًا للإمامة التي صنعها وضعه الفريد. لقد كان يرتجل الحديث دائمًا، بلسان متكلم دائمًا من كرسيه، كما يفعل العرب، وبلا حيل خطابية، أو إشارات باليد تقريبًا: إنه يهيمن على مستمعيه بالتدرج بهم نحو الذروة بتقريرات منطقية مستندة دائمًا على أقوال لعلماء ثقاة من السابقين، معروفين لسامعيه مثلما أنهم معروفون لديه.

وهكذا؛ باختصار شديد كانت خطبة الملك في ضيوفه عشية الحج، بسيطة جدًا في معالمها، مباشرة في مناشدتها، ثم أخذ في وصف خروج الحاج إلى المشاعر قائلًا: لقد شهد اليوم التالي خروج الحجاج، في ثياب بيض ورءوس حاسرة، في غاية النشاط إلى عرفات.

ويستمر في حديثه واصفًا الطريق إلى المشاعر المقدسة حيث يقول:

لقد كان الطريق الواسع المخترق للمدينة شرقًا والمجاور لمقبرة المعلاة القديمة والقصر الملكي في المعابدة والمفضي للمسجد الحرام، طيلة اليوم مسرحًا لحركة لا تنتهي، وفي ازدياد

دائم وقطارات الجمال حاملة الهوادج، أربعة أو خمسًا في صف أفقى أحيانًا، تسير حاملة أثقالها، ببطء وتقدم إلى مقصدها، الذي يبعد نحو تسعة أو عشرة أميال. وبين صفوف هؤلاء المسافرين بهذه الكيفية كانت جماعات من الحجاج على الحمير تتخلل طريقها في خطوات أسرع، داخلة في هذا الخليط من الدهماء وخارجة. وبالرغم من ذلك فإن في الطريق العريض مكانًا كافيًا للفيالق السائرة على أقدامها، كباراً وشبابًا، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وبصفة عامة في فرق حاملة رايات متعددة الألوان لتكون مناطق تجمع للجماعات المختلفة، في الطريق وفي سهل عرفات أيضًا في آخر المطاف، الذي بدأ يتحول إلى مدينة من الخيام، وقد أضفت هذه الرايات والمظلات لمسة من اللون البهيج على اللون البني والأبيض من كتل الأجسام والإحرامات التي كانت تسير وتكاد تكون بلا انقطاع في الطريق وهنا وهناك تأتي مجموعة ممن وصلوا حديثًا من جهة الشرق، حريصة على تأدية الشعيرة الخاصة من أول دخول لمكة. وكلما تقدم اليوم نحو المساء اكتظ الزحام، من الجمال، والحمير، والمشاة. ثم هبط ظلام الليل على مدينة لا تزال تفرغ المترددين عليها من الناس في سيل لا نهاية له.

ثم يأخذ في الحديث مسترسلًا عن الخروج إلى منى وعرفات قائلاً:

لقد كان مقررًا لي أن أركب مع الملك عبدالعزيز، ولكن، لعلة ما نتجت عن تأخر جملي، فإني قمت بالرحلة إلى منى في سيارة وزير المالية، وبذلك أتيحت لي فرصة رؤية الطريق الجديد

المقرر لكل السيارات لإخلاء الطريق الرئيس للجمال والمشاة، ولم يزل الجمل النجدي نافرًا من هدير السيارات بينما كان أخوه الحجازي قد وطّن نفسه عليها منذ فترة طويلة.

إن طريق السيارات يتابع الوادي إلى الجنوب من منى، والذي فوقه العين الرائعة المبنية من الحجارة للسيدة زبيدة، على مستوى مرتفع من سفوح التلال على اليسار من الطريق الصاعد.

إن منى، التي كانت قرية مهجورة ٣٥٠ يومًا من السنة القمرية، قد بعثت للحياة فجأة، وأصبح كل بيت من بيوتها غير الكثيرة مكتظًا بالحجاج الذين يدفعون إيجارات باهظة - تبلغ أحيانًا نحو ٣٠ أو ٤٠ جنيهاً إسترلينياً للأيام القليلة، لقد تفتق واديها، الواقع بين تلالها السوداء المنخفضة، عن مدينة من الخيام، كما أن الطريق الوحيد المخترق للقرية ووسط الوادي، كان غاصًا بالمشاة والقوافل الماضية إلى عرفات، وتجولت في المعسكر والقرية - ولم يكن أمرًا سهلاً للجماعات المتحركة من الناس والجمال. وكان القمر يضفي على المنظر سحرًا.

وفي مثل هذه المناسبة في الشرق ليس هناك ساعات معلومة للنوم. إن كثيرين ينامون فعلاً، بما في ذلك نفسي، ولكن نومنا لم يؤثر على ما تعودناه، فقد كنت أصحو في الثالثة صباحًا لصلاة الصبح في القاعة الكبرى للاستقبالات.

وبما أن الوقت بعد الصلاة لا يزال مبكرًا قبل شروق الشمس، وحين بدأ ضوء النهار يخترق ضباب الوادي من وراء

التلال السوداء، بدأ إنهاض الجمال الباركة. وفي لحظة ثانية كنا جميعًا على سروجها، وتحركت مجموعة نحو أسفل الوادي، وسرعان ما انضمت القوافل الأخرى في موكب رهيب. لم يكن هناك أقل من ١٠٠٠٠ جمل ذلك الصباح، يوم الحج، وفي هدوء سار الموكب في الوادي كالسيل، والشمس ترتفع قليلاً حتى بلغت ذروتها مطلة من قمم التلال على ضباب من الغبار المعلق في الجو. وبمئذنة مزدلفة الوحيدة مررنا حتى دخلنا الوادي الضيق إلى بازان صهاريج المياه، حيث علقت عين زبيدة عبر الطريق. ثم جئنا إلى العمودين اللذين يحددان حرم مكة، ووراء هما تقع المنطقة المدنية، أو المحايدة، المسماة وادي عرنة، وفيها مسجد نمرة، وهو سور أبيض، بحيطانه دعامات، ولا مئذنة له. ففي هذا المكان المحايد، الذي علمت حدوده البعيدة نحو سهل عرفات بأعمدة أخرى، أنخنا أسوة بسنة الرسول ﷺ وانتظرنا حتى العصر.

وكانت الخيام قد نصبت قبل وصولنا، وشرعنا في تناول إفطار خفيف لم نكن زاهدين فيه، وبعده أصبحت الغفوة، أو النوم إن أمكن الشيء الغالب.

وأمامنا، غير بعيد، كان جبل الرحمة، أهم معالم سهل عرفات، واقفًا ظاهرًا يعلوه عموده الأبيض الذي يحدد موضع مدينة الخيام التي قامت أثناء الليلة الفائتة لإيواء الحجاج، وحولنا من كل الجهات كان وادي عرنة بخيام متفرقة، بينما جماعات ضخمة من الحجاج، معظمهم أفارقة سود من أصقاع نائية، استقرت في مسجد نمرة وآباره الغنية. وبدأ النهار يحتر، مولدًا

حرارة في الظهيرة، ليبددها فيما بعد بنسمات خفيفة تمس في رقة أجسامنا ونحن مجتمعون في الظلال الكريمة للخيام، لقد كان الماء كثيرًا، بل والثلج أيضًا، حيث فسح لنا الجمع الغفير المنتظر للصلاة طريقًا وصلنا به إلى مسجد نمرة وإلى أماكننا قرب المنبر والمحراب.

كان قد ألقى الخطبة الشيخ عبدالله بن حسن، شيخ أئمة مكة، الذي صعد درجات المنبر البسيط في شكله، وفي يده عصا، وانطلق يشرح ببعض التفصيل أوامر الرسول ﷺ عن الحج. ومن حين لآخر كان المصلون يبكون أو يدمعون عندما يذكِّرون بحجة الوداع، وكان قريبا مني رجل هندي مسن، دخل في نوبة من التنهدات، وبدأ المرء يشعر بوحدة بينه وبين إخوانه المصلين، بنوع من الجلال لمناسبة قدر لها أن تحيي في نفوس الناس قصة وحي بلغ ذروته في هذه البقعة بعينها منذ قرون طويلة خلت لإكمال الدين الذي انتشر في الفترة الفاصلة بين المناسبتين إلى أماكن نائية خارج حدود الجزيرة العربية، ليكون نورًا يهدي ملايين وملايين في آسيا وإفريقيا، بل وأوروبا أيضًا.

وفي الأماكن الأخرى من السهل الواسع، التي انتهزت الفرصة لزيارتها في العصر، كان هناك جو أشبه بالاحتفال، فقد آثر بعض الناس البقاء في خيامهم على مواجهة أشعة الشمس الساقطة - إنها شديدة الحرارة في تلك الظروف بالرغم من هبوب نسمة باردة جافة خففت كثيرًا من شدة التعب وإن كان ذلك في الفضاء، وكان الناس، الأفقر حالاً، قد جاءوا معهم بسعف

النخيل، وغطوها بالأكياس الفارغة يستظلون بها.

وفي آخر المطاف، قللت الشمس من شدتها ببطء، وهي تميل نحو الغروب خلف جبل ثور، قبالة مكة، لقد مال قرص الشمس حتى اختفى وراء خط الجبال السود، فهدأ الدعاء في صمت محسوس، أعقبته حركة خفيفة. وما أن غربت الشمس، حتى بدأ الموكب العظيم في لحظة بالتحرك للعودة. وحسبما أذكر، فما من كاتب قادر على وصف النفرة من عرفات، وأدرت لحاظي في المنظر، كان منظر الجمال هو الذي راعني، ففي الوادي الفسيح كله، الذي غدا في حركة مفاجئة نحو مكة، كانت صفوف الجمال وفيالقها هي التي استرعت انتباهي، لا بد وأن كان هنالك ما لا يقل عن ٥٠٠٠٠ منها، كلها سائر للأمام في خطوتها السريعة الصامتة التي تميزت بها وسيلة النقل الرئيسة في الجزيرة العربية. لقد كان منظرًا طيبًا حقًا، وما أن ازداد الغسق، وارتفع الغبار من حفيف الأخفاف حتى بدأت فيالقها تفقد واقعيتها وتتحرك بصمت وخفية، في الضوء الخافت المعلق الآتي من القمر فوقنا، ومعه المريخ والمشتري أمامنا، وفي ذيليهما منكب الجوزاء.

وبالرغم من ضوء القمر لقد استحال علينا رؤية أي شيء بوضوح في ذلك الضباب المتحرك، وأجسام الرجال متشحة بالبياض قابعة على ركائبها العملاقة، وتجاوزنا أعشابًا قصيرة وأشجر السلم ذات الشوك. وحين ضاق الوادي بين التلال المسودة، مررنا بسرعة بالجمال حاملة الهوادج، ومجموعات من المشاة، ورجالاً ونساءً.

لقد كان مدهشًا جدًا، ونحن لا نكاد نرى شيئًا، أن تتحاشى الجمال بفطرتها كل العقبات التي في طريقها، بشرية كانت تلك أم غير ذلك، والتي سرعان ما خلفتها جحافلنا وراءها.

لقد كانت همهمة الجمال في كل مكان، وكذلك نداءات الرجال لأصحابهم المفقودين - فرقة موسيقية متنافرة الأنغام.

بالرغم من أن الساعة لم تكن قد تجاوزت السادسة صباحًا بقليل فإن الشارع الرئيس كان يفيض بالحجاج العائدين، الذين لا بد أنهم قد حذفوا مرحلة مزدلفة وسافروا، على ظهور الجمال أو راجلين، طيلة الليل ليصلوا هنا في الوقت المناسب، لقد كان الحرم مزدحمًا، والمسعى، الذي يقاطعه الشارع الرئيس، كان مكتظًا بالناس الذين كانوا يعدون، أو يمشون يتدافعون ويدعون، بهذه الطريقة أو بأخرى.

ويفيض في الحديث عن عودته إلى الحرم قائلاً:

بعد أن أنعشت نفسي واسترحت لمدة من الزمن عدت بالسيارة للحرم بعد السابعة صباحًا بقليل لأتم الطواف والسعي قبل ارتفاع الشمس ارتفاعًا تحرُّ به الأشياء، واقتربت من باب إبراهيم، الباب الرئيس من الجانب الجنوبي للمسجد الحرام، ودخلت في مجموعة من المتسولين، الذي كانوا يلحون في الدعاء لي بقبول حجتي، ومقابل ذلك يأخذون الفلوس القليلة التي أعطيتهم بلا سرور.

وفي مكان آخر كانت حمامة من حمامات المسجد قد سقطت

وبقيت بدمائها عند مدخل الباب، وهو منظر نادر، بينما كان الآلاف من أخواتها في سيرها اليومي الذي لا ينقطع من الحركة.

وبادرني بالكلام أحد السوريين، الذي كان موظفًا لدى نظام حيدر آباد، مستفسرًا عن إمكانية الحصول على سفينة مبكرة إلى مصر، ثم شرع يشرح لي فكرته عن انقسام العالم إلى حزبين، ولمحت في بطاقته المطبوعة التي قدمها لي، معبرًا عن رغبته الشديدة في مناقشة هذا الموضوع معي بالتفصيل.

بعد ذلك أخذ في وصف المسجد الحرام والكعبة وشعائر الحج ومنظر الحجاج حتى نهاية الحج ويجوب بقلمه في ذلك الميدان مما يشوق القارئ لمتابعته ويقدمه في صورة بهية والعبرة بالكيف لا بالكم.

وهكذا وصف في رحلته ما شاهده في رحلة الحج وصفًا حيًا دقيقًا.

ولقد صدرت له عدة مؤلفات تاريخية لعل من أهمها: "أرض مدين"، وسبق له وأن أقام في المملكة العربية السعودية مدة طويلة، واتصل بالملك عبدالعزيز، وقد أتاح له ذلك فرصة إشباع رغبته في الترحال، والاطلاع على كثير من المناطق والمواقع الأثرية في مختلف أنحاء المملكة، وقد أفادت رحلات فيلبي وكتاباته تاريخ وجغرافية بلادنا بشكل متميز، باعتبار أنه قدم من خلال ما كتبه وصفًا حيًا لكثير من المواضع الجغرافية، والمواقع الأثرية، مما نتج عنه توثيق عدد كبير من مسميات المواضع في

مختلف أرجاء الوطن.

ومما يميز كتب فيلبي التي سبق أن صدرت بلغتها الأصلية قبل أكثر من سبعين عاماً أنها احتوت على معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، وجرى ترجمتها إلى اللغة العربية نظرًا لأهميتها التاريخية.

كما تمتاز كتب فيلبي أيضًا بأنها تضم عددًا لا بأس به من الصور الشمسية (الفوتوغرافية) لبعض الأعلام والمدن والمعالم الجغرافية، وهذه الصورة لا شك أن لها دورًا إيجابياً يعين على تصور بعض المعالم الجغرافية إضافة إلى بعض الجوانب الحضارية التي كانت سائدة تلك الفترة.

حيث غطت حقبة زمنية مهمة حيث كتب بأسلوبه السلس الرصين عن تاريخ المملكة، وجغرافيتها، وأعلامها، وآثارها، واقتصادها، وقد كان أثناء سياقه للأحداث العامة أو ذكرياته الخاصة لا يغيب عنه - كلما سنحت له الفرصة - إبداء إعجابه بشخصية الملك عبدالعزيز رحمه الله وبجهاده في توحيد البلاد، ثم إعجابه بسياسته في الارتقاء ببلاده حتى صارت دولة حديثة تحظى بتقدير العالم.

رحلات الحج في كتب الاستشراق الروسي

تحفل كتب الاستشراق الروسي وغيرها بالحديث عن رحلات الحج التي نشروها واعتمدوا فيها على وثائق ومخطوطات محفوظة في أرشيفات ومكتبات عدة في بلدان الاتحاد السوفييتي السابق، وقد نشر باللغة العربية كتاب بعنوان: "الحج قبل مائة عام" في بيروت عام ١٤١٤هـ، وعناية الجمهوريات الإسلامية في روسيا قديم بالحج، فهناك كتب مخطوطة ألفها حجاج روس لا نعرف عنها شيئًا، ولعل المسؤولين في مراكز البحث في جامعاتنا ودارة الملك عبدالعزيز ومركز أبحاث الحج ومركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية تتبنى مشروعًا علميًا يهدف إلى البحث عن تلك التقارير والمخطوطات والكتب والوثائق في أماكنها المختلفة وتصويرها وجلبها وترجمتها ووضعها متاحة للباحثين ممن يهتمون بأمور الحج ورحلات الحج وترميم تلك المخطوطات وصيانتها ودمجها بأوعية المعلومات بأنماطها المتعددة وتوفيرها للمستفيدين منها بحيث نحصر تلك المخطوطات والرحلات من مظانها وتقديم المعلومة الصحيحة بشكل علمي دقيق، وكم نحن بحاجة إلى التعريف بأوعية المعلومات ومصادرها وأشكالها إلى جانب التوثيق الببليوجرافي لقضايا علمية ومسائل معرفية عن الكثير من التراث العربي الإسلامي في الشرق والغرب المنشور منه عامة والمخطوط

منه خاصة في المكتبات ومراكز المعلومات وبيوتات الثقافة ووضع الفهارس الفنية والببليوجرافيات والكشافات وغيرها من الأدوات العلمية التي تحصر مصادر المعرفة من مظانها بحيث يصبح الاطلاع عليها سهلاً ميسورًا لمن أراد ذلك من الباحثين.

رحلة الدكتور جفري لانج إلى مكة المكرمة

الدكتور جفري لانج أستاذ الرياضيات في جامعة كنساس الأمريكية واحد من عباقرة الغرب الذين أسلموا فقد ولد مسيحيًا قرأ تفسيرًا للقرآن في سن الثامنة والعشرين من عمره فوجد فيه إجابات منطقية لأسئلته مما دفعه للإيمان بالله واعتناق الإسلام وبعد إسلامه وضع كتابه: (انطباعات أمريكي اعتنق الإسلام) الذي ضمنه قصة إسلامه ثم أصدر كتابه الثاني رحلة إلى الإسلام انتهت في مكة وأتيحت له فرصة عمل كأستاذ جامعي في المملكة وعاش في المملكة عامًا كاملًا شرف خلاله بأداء فريضة الحج والتي تعد من أهم المحطات الدينية في حياته فقد سجل تفاصيلها في كتابه ويشرح مفردات الحج ويسجل ملاحظاته أمضى ثمانية أيام في الحج أدى فيها الشعائر بدقة متناهية.

إن رحلته للحج وزيارة الحرمين الشريفين تجسد تجربته في الإسلام وعالمية الإسلام وقيمه ومبادئه وبعده الإنساني ومشاعر الأخوة والمحبة في الحج ووصف المدنيتين الكريمتين مكة والمدينة موطن الوحي ومتنزل القرآن وموئل الهدى ومهوى الأفئدة.

الحرمان الشريفان في عيون المثقفين وذاكرة الأدباء والرحالة

الحديث عن الحرمين الشريفين في عيون المبدعين والمثقفين كافة لا يضاهيه أي حديث؛ لأنه ميدان شريف ثر العطاء، وكيف لا يكون كذلك وأفئدة الناس تهوي إليهما من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم. فهو موضوع يتسم بالسعة وثراء المادة والشمول، يحتاج إلى دراسات عديدة تبرزه في صورة أكثر وضوحًا.

فما من أديب أو رحالة أو شاعر أو مبدع إلا هو مشتاق إلى رؤية هذه البقاع، يسلط الضوء على جانب من تلك الجوانب الروحية والحضارية، ولذا نجد كمًا زاخرًا بالأعمال الثقافية والأدبية من عرب وعجم، كل راصد لرحلته وشوقه لهذه البقاع من حجاج وعمار وزوار يسألون الله من فضله، ولكل وافد إلى هذه الديار خلفيته الثقافية التي ينطلق فيها الحديث عنها ويصف المشاهد وطرق الحج والمشاعر والعادات والتقاليد والتاريخ والجغرافيا من خلال أدب الرحلة وتصوير رؤيته لهذه البقاع الطاهرة، والقارئ لآثار الرحالة والأدباء والشعراء والمبدعين يجد فيضًا نفيسًا زاخرًا يبرز الحرمين الشريفين ومكة المكرمة والمدينة المنورة بما يثير كوامن النفس، وذلك مؤشر لعظمة المكان وروحانيته وعبقريته.

إن مكة المكرمة والمدينة المنورة تحتلان في ذاكرة المبدعين أوسع المساحات، وكيف لا تكون وهي منطلق الإسلام ومهبط الوحي ومهوى أفئدة المسلمين وزاخرة بأحداث غيرت وجه التاريخ وستظل مادة حية للحديث والإبداع والنور، ولآثارها وربوعها على اختلافها حضور في الأدب والتاريخ قديمًا وحديثًا، وكل من يستعرض التاريخ يدرك ويحس بدورها في الشعر والأدب .. يقول أحد الشعراء من أبناء مكة حسين عرب:

والمحاريب والمشاعر كون
ناطق بالتقى وبالإيمان

وستظل أفئدة الناس تهوي إلى الحرمين الشريفين وستظل رؤية الأدباء والرحالة والمبدعين لتلك البقاع الطاهرة تحتل المكانة الراقية في منارة المعارف الإلهية والرسالة الخالدة.

إن مكة المكرمة في عيون الرحالة وكتابات الأدباء والمؤرخين وحجاج بيت الله الحرام، هي أحب بلاد الله إلى الله وهي مهوى أفئدة المسلمين للمكانة الخاصة التي تمثلها عند المسلمين قاطبة، فهذا الاسم خالد في أعماق التاريخ الذي جعل من مكة قبلة للعبادة وللثقافة الإسلامية منذ سيدنا إبراهيم الخليل إلى رسولنا العظيم محمد بن عبدالله وحتى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فمكة المكرمة مهوى أفئدة العرب والمسلمين وهي قبلة المسلمين التي يتوجه إليها كل مسلم بقلبه وتسكن قيمتها الروحية في فؤاده فهي أرض المقدسات ومصدر الأشعاع وبها البيت العتيق وهي

أقدم وأشهر مدينة على وجه الأرض وضع بها أول بيت للعبادة هو المسجد الحرام كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عِمرَان: ٩٦]، وأن قواعده كانت معلومة معروفة لإبراهيم عليه السلام حين رفع هو وابنه إسماعيل عليهما السلام عمد تلك القواعد ولقد نزل القرآن الكريم بلغة أهل مكة وبلسان عربي مبين إن مكة أقدس مكان على وجه الأرض والكعبة المشرفة هي سُرة الأرض ووسط الدنيا ولمكة دور تاريخي وديني وثقافي عظيم على مر التاريخ ولها أثر في تشكيل الملامح الفكرية لعدد من المفكرين والأدباء والإصلاحيين والمؤرخين والرحالة في العالم الإسلامي والنشاط الثقافي والفكري ولمسجدها الحرام ومؤسساتها التعليمية والثقافية لقد توافد عليها العلماء والأدباء عبر التاريخ لأداء فريضة الحج وانتهاز هذه المناسبة الدينية الجليلة للقاء علماء هذه المدينة المقدسة وتلقي العلم في أروقة المسجد الحرام ولقاء العلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

إن مكة هي المركز الثقافي الأول الذي يشع فيه نور الإسلام على العالم وهي التي تهفو إليها أفئدة وقلوب المسلمين في شتى بقاع المعمورة فهي أرض الجلال وكما قيل:

أرض الجلال ولدت خير موحد
وبلغت ما لم تبلغ الأجواء
وظهرت في الدنيا بأسمى مغنم
وطن الرسول وجل منك بناء

بيت الرسول وفيه خير منزل
ومقام إبراهيم والإسراء
وعلى ترابك قد مشى خير الورى
وتحدث التاريخ والفصحاء

لقد كان لمكة أثر في الحياة الاجتماعية والعلمية في العالم الإسلامي وصورة مكة بارزة في الأدب والتاريخ ورحلات الحج كماأن لها فضائل كثيرة وقيل:

ومنحت للدنيا تراثًا خالدا نور النبوة إنه لبهاء
وبنوك قد سعدوا بأعظم موظن من دونه الأوطان والأحياء

ولقد سطر عدد من الرحالة رحلاتهم إلى مكة المكرمة خلال حجهم إلى بيت الله الحرام وبالجملة فقد كان أثر الحج في الرحلات والمؤلفات إلى مكة بارزًا فقد صورا الحج ومشاهده وأماكنه والمعالم التاريخية والأثرية وحرصوا على ذكر الأمور العلمية والتاريخية والجغرافية والاجتماعية والثقافية وأثرها في تشكيل هوية المسلم، كما وصفوا الطرق والمدن والمرافق والمناخ والأمن وذكر العلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين والمدارس وحلقات العلم في الحرم المكي وما إلى ذلك وصوروا الحج ومشاهده وأماكنه مما جاءت به قرائح الرحالة مما يؤكد مدى تأثرهم برحلة الحج إلى مكة المكرمة ووصفوا إحساسهم وشعورهم بشكل بارز رغم تكبدهم مشقة الإرهاق في صوب القفار والسير في الفيافي والمفاوز وصعوبات الطريق وما فيه من مخاطر ومتاعب

فقد كانت عاطفة هؤلاء الأدباء والرحالة والمؤرخين جياشة قوية وإن المتتبع لما كتبه الرحالة يجد كمًا هائلاً من المعلومات الثرية في شتى المجالات حول مكة المكرمة حتى إن تلك الرحلات لعبت دوراً كبيرًا في تاريخها وجغرافيتها وسكانها وتقاليدها.

فما كتب عن الأماكن المقدسة نتيجة لتلك الرحلات وما صور من كتب دينية وتاريخية متعلقة بالحرمين الشريفين يعتبر أكثر مما كتب عن أي جزء آخر من مناطق العالم.

إن هذا الكم من المؤلفات تتحدث عن مكة وعن الحرمين الشريفين وعن مناسك الحج والعمرة والآثار الإسلامية وأثر الحج في الحياة الاجتماعية والعلمية والأدبية في مكة المكرمة وسميت مكة أم القرى كما جاء في سورة الأنعام: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧] لقد ربطت بين الماضي والحاضر والمستقبل فقد حملت آخر رسالة سماوية.

ولقد دعا إبراهيم عليه السلام لمكة ولهذا البيت أن يجعله الله بلدًا آمنًا ويرزق أهله من أنواع الثمرات كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البَقَرَة: ١٢٥] أي مرجعاً يتوبون إليه بحصول منافعهم الدينية والدنيوية يترددون إليه ولا يقضون فيه وطرا ويأمن به كل أحد حتى الوحشي وحتى الجمادات كالأشجار، ولهذا كانوا في الجاهلية على شركهم يحترمونه أشد الإحترام ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يتعرض له فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيمًا وتشريفًا وتكريمًا فرسالة الإسلام قد طبعت مكة

بطابع المعرفة والثقافة الإسلامية التي يتحقق من خلالها أسمى نتائج الكمال الروحي والثقافي.

إن هذا البيت في مكة المكرمة جعل الله قصده ركنًا من أركان الإسلام حاطا للذنوب والآثام وفيه من آثار الخليل وذريته ما عرف به إمامته كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة: ١٢٥]، وقد عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل تطهير البيت العتيق لقاصديه من المتعبدين.

لقد حظيت مكة بعناية خاصة من لدن العلماء والأدباء والمؤرخين والرحالة قديمًا وحديثًا وتجلى ذلك في كثرة ما دار حولها من البحوث والكتب والمؤلفات والدراسات منذ وقت مبكر إلى يومنا هذا وكل هذا يعكس ما لمكة من مكانة سامية وغالية في نفوس المسلمين وتعد الرحلات التي كتبت عن مكة من مصادر التاريخ التي تضيف الكثير من المعلومات والأحداث وتقدم وصفاً للأماكن والشخصيات وللجوانب الاجتماعية والحضارية التي تشملها تلك الرحلات وتمثل رحلة الحج حجر الزاوية فقد نشطت الرحلات إلى مكة بقصد أداء فريضة الحج ولقد رصد الباحثون أكثر من مائة اسم من المغرب والأندلس من القرن الثالث الهجري حتى القرن الرابع عشر الهجري لعدد من العلماء والمؤرخين قدموا إلى مكة لأجل الحج والزيارة وخلّفوا تآليف بعضها مطبوع وآخر مخطوط ومن رواد الرحالة وهم كثر نستعرض نماذج منهم يأتي في المقدمة اليعقوبي (ت ٢٤٨) الذي وصف مكة في سفر سماه "كتاب البلدان" وكذلك زكريا بن خطاب وصل مكة سنة ٢٥٩هـ،

وسمع في مكة كتاب "النسب" للزبير بن بكار وتحدث عن علمائها وكذلك ناصر خسرو (٣٩٤-٤٨١هـ) تحدث بإسهاب عن مكة وعن المشاعر المقدسة والمآثر الإسلامية في كتابه (سفر نامة) وكذلك العلّامة محمد بن عبدالله بن يحيى (ت ٣٣٩هـ) زار مكة وأقام بها مدة تلقى العلم فيها على يد ابن المنذر وفي القرن الخامس نجد عبدالوهاب القرطبي (ت٤٦١هـ) أقام بمكة لمدة وتحدث عنها وسمع فيها الحديث والسيرة وتحدث عن مناسك الحج ووصف الحرم المكي والمعالم والآثار الإسلامية ثم يأتي الرحالة ابن جبير ألمع الرحالة الأندلسيين وصل مكة وتحدث عن رحلته وحجه إلى بيت الله الحرام ويصف لنا مشاهد كثيرة ويرسم الطريق إلى مكة بمنازله ومناهله رسما بارعاً وتصويرًا دقيقًا ومتقصيًا لأحوال مكة وآثارها وجبالها وجميع جهاتها ويصف المسجد الحرام وصفًا مسهبًا كما يصف مناسك الحج والمشاعر المقدسة وصفًا طويلاً وكذا شيخ الرحالين ابن بطوطة فقد زار مكة وأخذت بتلابيبه وشوقه فأسهب في وصفها وفي وصف الحرم وزمزم والصفا والمروة والأماكن المعالم والعادات والتقاليد في الحجاز فجاءت رحلته بأوصاف دقيقة مع اهتمامه بالقصص الفردية والنادرة في رحلته.

وهكذا حظيت مكة موطن الوحي ومتنزل القرآن وموئل الهدى ومهوى الافئدة وهي رمز ومكانة وقيمة لا تساويها ولا تشابهها أي قيمة ولا تسمو عليها مكانة بعناية خاصة من لدن العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين والرحالة قديمًا وحديثًا وتحدثوا عن الآثار

الثقافية بمكة المكرمة البلد الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا والـــذي أنـــزل الله بـــه ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: ١-٣] قبلة المسلمين ومهوى أفئدتهم، وحرم الله الآمن فيه يذكر ويمجد.

رحلة إلى مكة المكرمة في سنة ١٣٧١هـ

ذهبت إلى مكة المكرمة عبر رحلة برية شاقة عبر الفيافي والمهامه والمفاوز والرمال وكان الطريق صعبًا حيث لا طرق معبدة ولا استراحات على الطريق وما زالت تلك الأمكنة نقاطًا حية في الذاكرة وكانت المدة عشرة أيام ومررت بمعالم وصوى لم يعد الطريق يمر بها.

وفي صيف ملتهب وبعد رحلة في أحشاء الصحراء ومكابدة طرقها ووعورة السفر وعناء الترحال من مكان إلى مكان حيث انطلقنا من المجمعة مروراً بالوشم والسر والدوادمي والمويه وركبة وعشيرة، وكنت أقول لرفاق الرحلة جزاؤكم عند الله موفور وسعيكم لديه مشكور، ووصلنا مكة بعد سفر عشرة أيام وزالت حرارة الطبيعية أمام حرارة الإيمان وشعرت بالبهجة وأنا أدخل مكة المكرمة مهبط الوحي ورأيت المسجد الحرام بقبابه ومآذنه وشاهدت الكعبة رأي العين البقعة المطهرة أول بيت وضع للناس وكم أحست بشعور عميق من السكينة ورأيت أفواجا من الناس يأتون من كل فج عميق يدعون الله بقلوب ملؤها الرجاء.

وبعد أداء مناسك العمرة ذهبت للتجول في أنحاء مكة المكرمة وفي كل بقعة من بقاعها أثر وتاريخ حيث غار حراء مهبط الوحي،

وهو الجبل الذي شهد نزول أول آيات القرآن الكريم، وأبو قبيس والأخشبان وخندمة وشبير فجبال مكة المكرمة شواهد على أحداث التاريخ الإسلامي، ودار الأرقم وغار ثور وغيرها من الأماكن التي درج على ترابها هداة البشرية ورموز البطولة والإيمان وستظل مكة المكرمة مناراً للأمة فقد انبثق منها النور ونزل من سمائها الفرقان لقد تتابع الوحي فيها ثلاث عشرة سنة وولد فيها النبي محمد ﷺ في بيت من بيوتها وكنت أقول ما أسعدني اليوم في مكة التي ظلت مقصد المؤمنين في حجهم من عهد إبراهيم يقصدها الحجاج فيرونها واديًا بين سلاسل جبال متصل بعضها ببعض ولقد رأيت سفوح هذه الجبال فقد عمرت بالمساكن كل هذه الذكريات تملأ النفس فخرًا واعتزازًا.

وإن الحديث عن الحرمين الشريفين في عيون المبدعين والمثقفين كافة لا يضاهيه أي حديث لأنه ميدان شريف ثر العطاء .. وكيف لا يكون كذلك وأفئدة الناس تهوي إليهما من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم، فهو موضوع يتسم بالسعة وثراء المادة والشمول، يحتاج إلى دراسات عديدة تبرزه في صورة أكثر وضوحًا.

فما من أديب أو رحالة أو شاعر ومبدع إلا هو مشتاق إلى رؤية هذه البقاع، يسلط الضوء على جانب من تلك الجوانب الروحية والحضارية، ولذا نجد كمًا زاخرًا بالأعمال الثقافية والأدبية من عرب وعجم كل راصد لرحلته وشوقه لهذه البقاع من حجاج وعمار وزوار يسألون الله من فضله .. ولكل وافد إلى هذه

الديار خلفيته الثقافية التي ينطلق منها في الحديث عنها ويصف المشاهد وطرق الحج والمشاعر والعادات والتقاليد والتاريخ والجغرافيا من خلال أدب الرحلة وتصوير رؤيته لهذه البقاع الطاهرة.

والقارئ لآثار الرحالة والأدباء والشعراء والمبدعين يجد فيضا نفيسا زاخراً يرز الحرمين الشريفين ومكة المكرمة والمدينة المنورة بما يثير كوامن النفس، وذلك مؤشر لعظمة المكان وروحانيته وعبقريته.

إن مكة المكرمة والمدينة المنورة تحتل في ذاكرة المبدعين أوسع المساحات .. وكيف لا تكون وهي منطلق الإسلام ومهبط الوحي ومهوى أفئدة المسلمين وزاخرة بأحداث غيرت وجه التاريخ، وستظل مادة حية للحديث والإبداع والنور، ولآثارها وربوعها على اختلافها حضور في الأدب والتاريخ قديمًا وحدثًا، وكل من يستعرض التاريخ يدرك ويحس بدورها في الشعر والأدب .. يقول أحد الشعراء من أبناء مكة حسين عرب :

والمحاريب والمشاعر كون ... ناطق بالتقى وبالإيمان

وستظل أفئدة الناس تهوى إلى الحرمين الشريفين، وستظل رؤية الأدباء والرحالة والمبدعين لتلك البقاع الطاهرة تحتل المكانة الراقية في منارة المعارف الإلهية والرسالة الخالدة.

في رحاب الكعبة المشرفة

في يوم الأربعاء الموافق ١٤/ ١/ ١٤٢٩هـ حزمت حقيبتي وحملتها متوجهًا إلى مطار الملك خالد وامتطيت الطائرة إلى جدة ومنها إلى مكة المكرمة.

والحمد لله الذي جعل البيت العتيق مثابة للناس وأمناً .. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عِمرَان: ٩٦-٩٧]، هو أول بيت وضع للناس للطاعات والعبادات والخيرات .. مباركًا وهدى.

ولقد تشرفت صبيحة يوم الخميس الموافق ١٥/ ٢/ ١٤٢٩هـ بالحضور والصلاة في المسجد الحرام، ثم أتيحت لي فرصة دخول الكعبة المشرفة، حيث قام صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة مكة المكرمة بغسل الكعبة من الداخل بماء زمزم المخلوط بماء الورد، والذي قامت الرئاسة العامة للمسجد الحرام بتوفيره وتحضيره، وشارك سموه عدد من الأمراء والعلماء ومعالي الرئيس العام الشيخ صالح الحصين ومعالي نائبه الدكتور محمد بن ناصر الخزيم وعدد من أعضاء السلك الدبلوماسي الإسلامي وسدنة بيت الله الحرام .. وتجسد هذه

المناسبة العظيمة مدى اهتمام ولاة الأمر في هذه البلاد وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز وسمو ولي عهده الأمين - حفظهما الله - بالبيت الحرام والعناية به والقيام على صيانته والقيام على تنظيفه وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود، وإظهاره بالمظهر الذي يليق بمكانته وقد سيته.

وعندما صعدت للكعبة ودخلتها، صليت في رحابها ركعتين في جو روحاني عظيم، يسوده الهدوء والخشوع والسكينة والإيمان، وتذكرت تاريخ أول بيت وضع للناس، وأسماء الكعبة، وبناء الكعبة منذ آدم عليه السلام، وبناء إبراهيم عليه السلام، بناء العمالقة وجرهم وقصي بن كلاب وقريش وعبدالله بن الزبير، وحجر إسماعيل وكسوة الكعبة قبل الإسلام، وكسوتها في صدر الإسلام، وكسوتها في عهد دولة بني أمية، وتاريخ ذلك من بداية الدولة العباسية حتى الدولة السعودية.

واستعرضت في تلك اللحظات - وأنا في داخل الكعبة - سدنة الكعبة وخدمتها وأغوات المسجد الحرام وهدايا الكعبة والسيول التي كان لها أثر عليها .. وتذكرت أقوال المفسرين كابن جرير والقرطبي وابن كثير والفخر الرازي والذهبي والطبري وابن المنذر وغيرهم .. وكذا الرحالة الذين كتبوا عنها من أمثال ابن جبير وابن بطوطة والنابلسي والجزيري والعياشي وغيرهم .. وكذا الشعراء والعلماء والأدباء والمؤلفات الكثيرة التي كتبت عنها مثل كتاب: "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار" للأزرقي، وكتاب

الفاكهي: "أخبار مكة في قديم الزمان وحديثه"، وكتاب ابن فهد: "اتحاف الورى بأخبار أم القرى"، وغير ذلك مما لا يتسع له المقام .. حيث كنت في تلك اللحظات في داخل الكعبة، أتذكر التاريخ واستعرض ما كتب عن الكعبة المشرفة.

إن مكة المكرمة بما لها من قدسية، تمتلئ بعمق تاريخ عبق، لا ينقطع رفده، كما أنها ملهمة الشعراء، الذين أبدعوا القصائد العصماء في كل ناحية.

وبعد .. فما أكثر ما كتب عن الكعبة المشرفة خاصة، حيث إن الكثير من العلماء والمؤرخين والرحالة قد خدموا هذا الجانب خدمة عظيمة، وسجلوا كل ما يتصل بها منذ بنائها وحتى عصرنا الحاضر .. فالشكر لرئاسة المسجد الحرام والمسجد النبوي على ما يبذلونه من جهود عظيمة ونشاط ومتابعة متواصلة لخدمة بيت الله الحرام وإظهاره بالمظهر الذي يليق بمكانته وقدسيته .. ووفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه.

ولقد قلت هذه القصيدة بهذه المناسبة.

(مكة) النور جئت هيمان حالم ... جئت أسعى لبيت رب دائم
موطن الوحي والسلام أمانا ... جئت أشدو بحبك المتلاطم
أنت في الروح في القلب تهدى ... وأنا بالهدى وبالحق قائم
فيك جاء الوحي العظيم وجاءت ... كل من في الورى به اليوم عالم
لك عند الله العلي مقام ... كل من في الورى به اليوم عالم
يا ملاذ الإسلام يا مهبط القرآن ... يا موئل الهدى أنا هائم

أنا في نشوة الحبور غني أنا في لجة السعادة عائم
قبس للخير أنت فينا ومهد الـ دين والوحي والهدى المتقادم

رحلة للمشاركة في ندوة أدب الحج

في مكة المكرمة

تلقيت دعوة معالي وزير الحج الأستاذ السيد أمين مدني للمشاركة في الندوة الإسلامية الكبرى لموسم حج عام ١٤٢٢هـ، وقد حضر للمشاركة في هذه الندوة جمع غفير من رجال العلم والأدب والتاريخ من مختلف أرجاء العالم الإسلامي ولا شك أن اهتمام وزارة الحج بإبراز الأنشطة الثقافية التي تشكل جزءًا مهما من تاريخ الحج عمل حيوي فلقد أتاح لنا هذا اللقاء الذي يتضوع بهذا الجمع الميمون وتنعكس عليه هالة العلم والمعرفة حيث ضم اللقاء كوكبة من رجال الفكر ورواد الأدب وأساتذة التاريخ في الجامعات العربية والإسلامية على مائدة أدب الحج فأمتعونا بعلمهم وزاد تجاربهم وما أسهموا به من دور في هذا المجال فهذا اللقاء كان فرصة للحوار والنقاش والمداخلات التحليلية التي هي أساس مثل هذه اللقاءات العلمية المبنية على الدراسات الفكرية ولقد أحسنت الوزارة صنعًا بهذا التوجه الحضاري والإدراك الواعي لجسامة الدور الملقى على عاتقها في دراسة تاريخ وتراث وأدب الرحلة إلى الحج برؤية تاريخية والخروج منها بما نتطلع إليه من فائدة ونتائج جديدة تسهم في إثراء الحياة العلمية وتكون انطلاقة وإضاءة جديدة لدعم البحث العلمي والتاريخي، وقد كانت

ندوة مفعمة بالمعرفة وعامرة بالحوار العلمي ومشرقة بالتحليلات والمداخلات حول أدب الحج في المغرب العربي والمشرق العربي وظروف النقل البحري والحجر الصحي في أدب الحج المغربي من خلال القرن التاسع عشر ومشاكل الحجاج، كما يرى الرحالة والحج في الأدب التركي وأدب الحج في غرب أفريقيا وفي اللغة السواحلية وأدب الحج في القارة الهندية وجنوب آسيا والصين واليابان وأدب الحج في كتب التراث التاريخي والدور الثقافي للحج والحج وكتاباته من خلال رؤية مكية إلى غير ذلك من الموضوعات والأبحاث والدراسات.

لقد كان اللقاء يشبه أسواق العرب القديمة فأعاد إلى الذاكرة كيف كان أدب الحج وكيف كانت اللقاءات العلمية والمجالس الأدبية والمناقشات الفقهية حيث استأثر أدب الحج باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم وعني به أعلام بارزون.

ولقد ألقيت هذه القصيدة تحية لندوة أدب الرحلة إلى الحج خلال حفل افتتاح الندوة في يوم ١/ ١٢/ ١٤٢٢هـ.

ندوة الحج سلاما مفعما ... يبهج السمع ونبراس اليقين
ملتقى الفكر فما أروعه ... خير ذكر لتراث السابقين
أدب الرحلة كم خلّده ... من رجال عرفوا طول السنين
أخصبو الفصحى بما قد دونوا ... من بديع القول والكنز الدفين
شهدوا الحج وأحيوا ذكره ... أدبا ضاء على فكر النابهين
يمموا البيت وساروا نحوه ... كلهم شوق وحب وحنين

قادة الفكر تجلى عزمكم ... سامي الطرح وبالفكر الرصين
شهد التاريخ في ندوتكم ... موقفًا أحيا تراث السالفين
رحلات بهرت كل الورى ... فابن بطوطة شيخ الراحلين
وكذاك ابن جبير رائع ... سطر الرحلة في سفر مبين
شهد الحج وأثرى ذكره ... بجزيل الوصف والقول الثمين
وكثير غيرهم قد ذكروا ... رحلة الحج بأسلوب قمين
فتبدت آية للقارئين ... وتجلت بالسنا في كل حين
جعل الله لقانا زاهيا ... برضى الرحمن رب العالمين
حفظ الله بلادي انها ... موئل الفصحى ومهوى المسلمين

توسعة الحرمين عنوان وضاء ومعالم خالدة

في يوم الاثنين الموافق ٣/ ٩/ ١٤٢٣هـ قمت بزيارة لمكة المكرمة وتأدية العمرة، وقد أقلعت بنا الطائرة من الرياض في رحلة استمرت ساعة ونصف ثم هبطنا في مطار جدة ومنها إلى مكة المكرمة.

نحمد الله الذي كرم هذه البلاد بخدمة الحرمين الشريفين وخدمة ضيوف الرحمن وتبذل ما في وسعها من أجل راحة الحجيج والمعتمرين وتوفير كافة التسهيلات وأعطت رعاية حجاج بيت الله الحرام أولوية قصوى لينعموا بهذه المشاريع الكبيرة والمنجزات العملاقة التي تحققت في توسعة الحرمين الشريفين وتطوير مرافقها وخدماتها لمشروع جسر الجمرات وأبراج منى وغيرها كتوسعة الجهة الشمالية للمسجد الحرام وتوسعة الجهة الشرقية للمسجد النبوي الشريف وغيرها من مشروعات مستقبلية حتى يجد الحجاج والمعتمرون والزوار متعة العبادة وتسهيلاً لأداء مناسكهم.

ولا غرو فهذه البلاد موئل مقدسات الإسلام ومتنزل الوحي ومهد الرسالة وتفخر هذه البلاد بتوسعة الحرمين الشريفين وتزويدهما بمختلف أسباب الراحة ليؤدي ضيوف الرحمن مناسك حجهم في يسر وسهولة وأمن وطمأنينة ولا ريب أن توسعة الحرمين الشريفين مفخرة لكل مسلم وعمل صالح وهو مشروع عملاق وإعمار عظيم وصرح سامق وقيمة دينية لدى المسلمين ولا

غرو فهذه البلاد هي قبلة المسلمين ومهوى أفئدتهم، فهذا الإنجاز العظيم نحو توسيع الحرمين الشريفين اللذين يتوافد عليهما مئات الزوار وآلاف الحجاج وملايين الناس من كل أرجاء العالم الإسلامي سيظل التاريخ يذكره باستمرار بل إشراقة في جبين التاريخ المعاصر، وستظل هذه التوسعة مفخرة للملايين ومقصدًا للمسلمين حيث تهون المصاعب والعقبات ولم يعودوا يجدون مشقة في مجيئهم إلى هذه البقاع المقدسة للعمرة والزيارة والحج. فروعة التوسعة وجمالها سوف تستوعب الملايين التي تشرئب أعناقها وتتطلع بشوق عارم إلى الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث يسر الله لهم السبيل وذللت الصعاب وممارسة الشعائر الدينية في يسر وأمن وأمان وراحة، إن هذا العمل المبارك سيظل خالدًا وحياً وراسخًا بالعطاء السخي من قادة هذه البلاد ووفاء منهم على العمل والعطاء وخدمة الأماكن المقدسة، وإن هذه التوسعة الحديثة العملاقة للحرمين الشريفين لا يماثلها أو يضاهيها في سموها ومكانتها وإنجازها عمل آخر فهي توسعة رائدة كمًا وكيفًا وجمالاً وإبداعًا وإتقانًا وسوف يسهل ذلك على الحاج والزائر أمور عبادته وينسى التعب والمشقة والجهد والعناء وما كان يتحدث به ا لرحالة والركبان قديمًا عن صعوبة الوصول إلى الأماكن المقدسة كما ذكر ذلك ابن بطوطة وابن جبير والمسعودي والهمداني والبكري والعبدري وغيرهم من المؤرخين والرحالة حفظ الله بلاد الحرمين وأسبغ عليها الأمن والاستقرار والازدهار.

الخاتمة

هذه صور ونماذج لرحلات طائفة من العلماء والأدباء والمؤرخين الذين سطروا هذه الرحلات خلال حجهم إلى بيت الله وهناك رحلات أخرى لا يتسع المقام لاستعراضها وبالجملة فقد كان أثر الحج في الرحلات والمؤلفات إلى منطقة الحجاز بارزًا فقد صوروا الحج ومشاهده وأماكنه والمعالم التاريخية والأثرية وازدهرت الرحلات جنبًا إلى جنب مع ازدهار الفكر وتنوع منابع المعرفة وتوفر الأمن وغير ذلك من العوامل المساعدة على الرحلة وهناك رحالة لم يدونوا رحلاتهم بل قام بتدوينها أحد مرافقيهم أو تلاميذهم كما حدث بالنسبة لرحلة المودودي (رحلة في أرض القرآن).

فقد دونها رفيقه عاصم حداد سنة ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م وقد حرص هؤلاء الرحالة على ذكر الأمور التاريخية والجغرافية والاجتماعية والثقافية ووصف الطرق والمدن والمرافق والمناخ والأمن وذكر العلماء والأدباء والمدارس وحلقات العلم في الحرمين الشريفين وما إلى ذلك مما يعكس مدى تأثرهم بالرحلة إلى الحرمين الشريفين في فترات زمنية تاريخية ولقد صوروا الحج ومشاهده وأماكنه مما جادت به قرائح الرحالة مما يعكس مدى تأثرهم بالرحلة ووصفوا إحساسهم وشعورهم بشكل بارز يهيجون

به مكامن الأشواق رغم تكبدهم المشقة والإرهاق في جوب القفار والسير في الفيافي والمفاوز وصعوبات الطريق وما فيه من مخاطر ومتاعب ولقد كانت عاطفة هؤلاء الأدباء والرحالة جياشة قوية وإن المتتبع لما كتبه الرحالة المسلمون يجد كمًا هائلاً من المعلومات الثرية في شتى المجالات حافلة بالتحليل العميق حتى أن تلك الرحلات لعبت دورًا كبيرًا في تاريخ المدينتين مكة والمدينة وجغرافيتها وسكانها. وليس من المبالغة في القول أن ما كتب عن الحجاز وعن الأماكن المقدسة نتيجة لتلك الرحلات أو ما صدر من كتب دينية متعلقة بالحرمين الشريفين يعتبر أكثر مما كتب عن أي جزء آخر من مناطق العالم. إن هذا الكم من المؤلفات تتحدث عن الحرمين الشريفين والمدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة وعن مناسك الحج والعمرة والآثار الإسلامية الكريمة ولقد قام عدد كبير من علماء العرب والمسلمين بزيارات لهذه الأماكن والحديث عن علمائها ومعالمها وتاريخها وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية وجاءت كتاباتهم على نسق من العمق والشمول واعتمد بعضهم على الزيارة الميدانية، والمشاهدة الشخصية، واستجلاء معالم هذه البلاد من خلال ما كتبوه من مؤلفات ودونوا فيها انطباعاتهم وتاريخ الأماكن المقدسة انطلاقًا من أهمية هذه المصادر والمؤلفات من تاريخ المدينتين المقدستين والكشف عن المزيد من جوانب تلك الفترات التاريخية من تاريخ المدينتين المقدستين بخاصة، ومحاور تاريخية من تاريخ الجزيرة العربية بعامة.

لقد حفلت هذه الكتب بالعرض والمناقشة التاريخية التي تؤرخ لهذه البلاد ولعلمائها ووصف سكانها وأنشطتهم إلى جانب ما فيها من معلومات وتحليلات ذات أهمية بالغة لتاريخ الأماكن المقدسة وجغرافيتها ولسكانها ومناحي نشاطهم وعن الحج ومناسكه والعمرة كما أن مؤلفي كتب رحلات الحج ما قصدوا الرحلة بذاتها بقدر ما كان حرصهم واهتمامهم بزيارة بيت الله الحرام وأداء مناسك الحج وزيارة مسجد الرسول ﷺ فكانت رحلاتهم علمية ودينية وخصصوا كتبهم للحديث عن مكة المكرمة والمدينة المنورة وما يتعلق بهما من أمور دينية ودعوية وإرشادية وتاريخية وتسجيل المظاهر العمرانية والنواحي العلمية والاجتماعية والتاريخية والتراجم للعلماء والفقهاء والمحدثين. وهناك رحالة أجانب من غير المسلمين وقد تزيا معظم هؤلاء بزي المسلمين واتخذوا أسماء إسلامية ودخلوا إلى مكة والمدينة لتقديم التقارير عن أحوال البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية وقد ظهرت كتب تتحدث عن مجموعة من الرحالة الأوروبيين وكثيرًا عن مكة والمدينة ومن ضمن تلك الكتب كتاب (نصارى في مكة) ورحالة غربيون في بلادنا وغيرها.

المراجع والمصادر

- **إبراهيم رفعت**: مرآة الحرمين.
- **إبراهيم المازني**: رحلة الحجاز ط ١٣٤٩هـ.
- **ابن بطوطة**: رحلة ابن بطوطة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت ١٣٨٤هـ.
- **ابن حوقل**: المسالك والممالك.
- **ابن جبير الأندلسي**: رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار ١٣٨٤هـ.
- **ابن عبدالسلام الدرعي**: رحلة ابن عبدالسلام، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة ١٤٠٢هـ.
- **أحمد أمين**: فيض الخاطر القاهرة.
- **أحمد حسن الزيات**: مقال بمجلة الأزهر م ١٠ ذو الحجة ١٣٧٨هـ.
- **الأزرقي**: أخبار مكة.
- **البكري**: معجم ما استعجم.
- **بنت الشاطئ**: أرش المعجزات ط. القاهرة.
- **حمد الجاسر**: أشهر رحلات الحج - دار الرفاعي ١٤٠٢هـ.
- **حسين نصار**: أدر الرحالة مكتبة لبنان ١٩٩١م.
- **خير الدين الزركلي**: الأعلام بيروت دار العلم للملايين ١٩٩٩م (٨ مجلدات).
- **الرحلات المغربية والأندلسية**: عواطف محمد يوسف، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤١٧هـ.

- **السمهودي**: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى تحقيق محمد محي الدين دار إحياء التراث ببيروت ١٤٠٤هـ.
- **سمير عبدالحميد إبراهيم**: الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردي، جامعة الإمام ١٤١٩هـ.
- **شكيب أرسلان**: الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف.
- **الشنقيطي**: رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، دار الشروق جدة ١٤٠٣هـ.
- **شوقي ضيف**: الرحلات، دار المعارف بالقاهرة.
- **عباس محمود العقاد**: مع عاهل الجزيرة العربية دار صادر بيروت.
- **عبدالقادر الجزيري**: الدرر الفرائد المنتظمة، منشورات دار اليمامة تحقيق حمد الجاسر ١٤٠٢هـ.
- **عبدالله الحقيل**: رحلات إلى الشرق والغرب، الرياض ١٤١٤هـ.
- **عبدالله كنون**: رحلته في مجلة المنهل ١٤١٣هـ.
- **عبدالوهاب عزام**: مقال بمجلة الرسالة ١٣٥٧هـ.
- **العبدري**: الرحلة المغربية.
- **أبو الأعلى المودودي**: سفر نامه ارض الحجاز لاهور.
- **غلام رسول مهر**: يوميات رحلة في الحجاز، ترجمة سمير عبدالحميد، دارة الملك عبدالعزيز الرياض ١٤١٧هـ.
- **القزويني**: آثار البلاد وأخبار العباد (ت٦٨٢هـ) دار صادر ببيروت.
- **لسان الدين بن الخطيب**: الإحاطة في أخبار غرناطة ط ١٣٩٤هـ.
- **محمد أسد**: الطريق إلى مكة المكرمة مكتبة العبيكان ١٤١٨هـ.
- **محمد بهجت البيطار**: الرحلة الحجازية النجدية، مقال في مجلة التمدن الإسلامي، رمضان ١٣٨٥هـ.

- **محمد حسين هيكل**: في منزل الوحي ط القاهرة.
- **محمد سليمان منصور بودي**: سفر نامة حجاز لاهور.
- **محمد شفيق**: في قلب نجد والحجاز ١٣٤٦هـ.
- **المؤلفات النادرة عن المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية**: (نماذج مختارة).
- **محي الدين رضا**: رحلتي إلى الحجاز ١٣٥٣هـ.
- **مقداد يالجن**: رحلتي، منشورات دار عالم الكتب الرياض ١٤١٣هـ.
- **محمد الشريف**: المختار من الرحلات ١٤٢١هـ.
- **ناصر خسرو**: سفر نامة ناصر خسرو، ترجمة - يحيى الخشاب ط القاهرة.
- **ياقوت الحموي**: معجم البلدان دار صادر ببيروت.
- **الطريق إلى مكة**، دار الشروق الطبعة الأولى ١٩٩٨م.
- **يوميات** ألماني مسلم مراد هوفمان ١٩٩٢م القاهرة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
رحلة ابن جبير الأندلسي ٥٧٨هـ	٩
رحلة الحج في القرن الثامن الهجري كما وصفها الرحالة ابن بطوطة ٧٢٦هـ	٢٣
رحلة ناصر خسرو شاه ٤٤٢هـ	٣٣
رحلة ابن عبدالسلام الناصري الدرعي ١٩٩٦م	٤٥
رحلة إبراهيم رفعت باشا ١٣١٨هـ	٥٣
رحلة أحمد حسن الزيات	٥٧
رحلة إبراهيم المازني ١٣٥٤هـ	٦٥
رحلة السيد محي الدين رضا ١٣٥٣هـ	٦٩
رحلة محمد حسين هيكل ١٩٣٦م	٧٣
رحلة عباس محمود العقاد ١٩٤٦م	٨٧
رحلة الشيخ حمد الجاسر من صور الحج النجدي إلى بيت الله الحرام ١٣٤٨هـ	٩٩
رحلة الدكتور مراد هوفمان إلى مكة المكرمة ١٩٩٢م.	١١٧
رحلة السيد غلام رسول مهر ١٣٤٨هـ	١٣٥
رحلة ياباني في مكة	١٤٣

رحلة محمد بهجت البيطار ١٣٣٨هـ ١٤٩
رحلة عبدالقادر الجزيري ٩٤٠هـ ١٥٧
رحلة الدكتور عبدالوهاب عزام ١٣٥٧هـ ١٦٣
رحلة عبدالله كنون ١٣٧٦هـ ١٦٩
رحلة محمد الأمين الشنقيطي ١٣٦٧هـ ١٧٧
رحلة فتحي المراغي ١٤١٨هـ ١٨٣
رحلة محمد رشيد رضا ١٣٣٤هـ ١٩٧
رحلة الدكتور مقداد يالجن ٢٠١
رحلة محمد أسد ١٩٧٢م ٢٠٧
رحلة أحمد أمين ٢٢١
رحلة الشيخ علي الطنطاوي ١٩٣٥م ٢٢٩
رحلة الأديبة عائشة عبدالرحمن ١٣٩٢هـ ٢٣٩
رحلة حسن عبدالوهاب المغربي ٢٤٧
رحلة الأمير شكيب أرسلان ٢٥٥
رحلة عبدالله فيلبي ١٩٣١م ٢٦٥
رحلات الحج في كتب الاستشراق الروسي ٢٧٧
رحلة الدكتور جفري لانج إلى مكة المكرمة ٢٧٩
الحرمان الشريفان في عيون المثقفين والأدباء والرحالة ٢٨١
رحلة إلى مكة المكرمة في سنة ١٣٧١هـ ٢٨٩
في رحاب الكعبة المشرفة ٢٩٣
رحلة للمشاركة في ندوة أدب الحج في مكة المكرمة ٢٩٧
توسعة الحرمين عنوان وضاء ومعالم خالدة ٣٠١

الخاتمة ٣٠٣
المراجع والمصادر ٣٠٧
فهرس الموضوعات ٣١١
كتب صدرت للمؤلف ٣١٥

كتب صدرت للمؤلف

١- كلمات متناثرة.
٢- رحلات وذكريات.
٣- على مائدة الأدب.
٤- مراحل إعداد المعلم في المملكة.
٥- رمضان عبر التاريخ.
٦- في التربية والثقافة.
٧- صور من الغرب.
٨- من أدب الرحلات.
٩- المفيد في الإنشاء.
١٠- الشذرات في اللغة والأدب والتاريخ والتربية.
١١- توحيد المملكة العربية السعودية وأثره في النهضة العلمية والاجتماعية.
١٢- رحلات إلى الشرق والغرب.
١٣- يوم في ذاكرة التاريخ.
١٤- شعاع في الأفق "ديوان شعر".
١٥- عبق السنين "ديوان شعر".
١٦- رفقًا بالفصحى.
١٧- مسيرة التوحيد والبناء "لمحات تاريخية".
١٨- كتب ومؤلفون.
١٩- في آفاق التربية وأفياء التعليم.
٢٠- آفاق فكرية وشجون تربوية.
٢١- صور من أدب الرحلات إلى الحرمين الشريفين.
٢٢- رحلة إلى اليابان.

٢٣- اللغة العربية هوية وانتماء.

٢٤- رحلات وذكريات في ربوع بلادي.

٢٥- رحلات الحج في عيون الرحالة وكتابات الأدباء والمؤرخين.

- إلى جانب بحوث ومقالات في الصحف والمجلات الفصلية والشهرية وأحاديث في الإذاعة والتلفاز، وإسهامات إعلامية كثيرة.
- لديه عدد من المؤلفات والدراسات الأدبية والتاريخية ستأخذ إن شاء الله طريقها إلى النشر.